بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة فضيلة القاضي العلامة
محمد بن إسماعيل العمراني حفظه الله

الحمد لله وحده والصلاة والسلام علىٰ من لا نبي بعده وعلىٰ آله وصحبه وجنده.

وبعد:

فهذا كتاب «الحوار في السيرة النبوية» الذي ألفه فضيلة الشيخ العلامة[(١)] الشاب النشيط أبو عبد الرحمن نعمان بن عبد الكريم بن عبد الله الوتر حفظه الله وأطال في عمره، وكتب أجره، وضاعف في حسناته، وقوىٰ فؤاده، وأصلح وبارك في أولاده، وزاد في الشباب من أمثاله وفي العلماء العاملين من نظرائه، لمن أحسن ما اطلعت عليه من الكتب التي أخرجت للناس، حيث قد جمع فيه فنون الحوار، وآداب الحوار وآثاره، بأسلوب حسن، ونقاش هادئ يقل وجود نظيره في المؤلفات في هذا الموضوع، ولا يعرف قدره إلا من اطلع عليه بتأمل وإمعان، متجردًا عن التعصب والاعتساف، فجزىٰ الله المؤلف خيرًا، وزاد في العلماء من أمثاله آمين اللهم آمين.

(١) جزىٰ الله شيخنا القاضي العلامة خيرًا علىٰ حسن ظنه بي، وإلا فأنا طالب علم ورب البيت أدرىٰ بما فيه، وأسال الله العظيم الكريم الحكيم الرحيم أن يبلغني ما قال إنه جواد كريم.

آمــين آمــين لا أرضــىٰ بواحــدة		حتــىٰ أضــيف إليهــا ألــف آمينــا

وسبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، وصلىٰ الله علىٰ محمد وعلىٰ آله وسلم تسليمًا.

وحرر بتاريخ ٢٠ إبريل ٢٠٠٩

الموافق ٢٥ ربيع الثاني

١٤٣٠ من هجرة سيد الأولين والآخرين

محمد بن إسماعيل العمراني

رب يسر وأعن يا كريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الحكيم العلام، خلق الإنسان علمه البيان، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان علىٰ أفصح ولد عدنان وعلىٰ آله الأعلام الكرام، وعلىٰ أصحابه والتابعين لهم بإحسان.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة موقن بأن الله قد أقام علىٰ عباده الحجة، وأوضح لهم المحجة، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أصدق الخلق لهجة، وأكرمهم مهجة، وعلىٰ آله وصحبه.

أما بعد:

فإن السيرة النبوية العطرة طافحة بأنواع الحوار النبوي ذي المنهج السوي، والأسلوب التربوي، الذي لانت له به رقاب صعاب، وقلوب غضاب، فصار أهلها له أحبابًا وأصحابًا، بعد أن أزال عنهم الشك وولىٰ الارتياب.

وقد حاور النبي ﷺ الكبار والصغار، والنساء والرجال، والمؤمنين والكفار الرؤساء والملوك والأحبار محاورة الناصح الأمين، والمعلم الحكيم، حاور كل شخص بما يناسب حاله ومقاله، وجعل الرحمة والصدق شعاره ودثاره، ولم يكن قصده ﷺ المغالبة والمنافرة، بل تعبيد الناس لرب العالمين، والأخذ بأيديهم إلىٰ

الصراط المستقيم، في عقائدهم وعباداتهم وأخلاقهم ومعاملاتهم بأوضح عبارة وألطف إشارة.

هذا؛ وقد أولىٰ ديننا الحنيف الحوار أهمية بالغة لما يترتب عليه من الآثار العظيمة، فبه يدعىٰ إلىٰ الحق، ويعرض علىٰ الخلق، وبه يتفاهم أصحاب الأفكار المختلفة، والعقائد المتباينة، بحيث يكون القاسم المشترك بينهم.

فكم بالحوار تُركت من عقائد، وهجرت من أفكار، وتحول أشخاص بالحوار من أعداء ألداء إلىٰ أخلاء أوفياء بعد وقوفهم علىٰ الحقائق واتضاح الرؤىٰ!

وكم كُسرت بالحوار من الحواجز النفسية، وتلاقحت به الأفكار، وصقلت المواهب!

والقرآن الكريم فيه حوارات كثيرة جُلها بين الأنبياء وبين أقوامهم، والسنة النبوية فيها شيء كثير، كما سبقت الإشارة إلىٰ ذلك.

ويجب أن تكون قاعدة الانطلاق في الحوار مع غير المسلمين مبنية علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقاعدة انطلاق الحوار مع المنتسبين إلىٰ الإسلام مبنية علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ

رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وليس من نافلة القول أن يُعلم أن الحوار مع غير المسلمين إن كان من باب الدعوة إلىٰ الإسلام وبيان محاسنه وسمو تعاليمه ونسخه لما قبله من الأديان، وأنه الدين الذي لا يقبل الله بعد بعثة محمد ﷺ من أحد من البشر أن يكون علىٰ دين سواه، وإزالة الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام حول هذا الدين العالمي العظيم؛ فهذا من الواجبات الشرعية.

وإن كان من باب الدعوة إلىٰ وحدة الأديان، وأنه يجوز لكل أحد أن يعتنق ما شاء منها، والدعوة إلىٰ محبة غير المسلمين وموالاتهم وتوليهم، وطباعة القرآن والتوراة والإنجيل في غلاف واحد، وبناء مسجد وكنيسة ومعبد لليهود في مجمع واحد؛ فهذه إن صدرت من مسلم أو دعا إلىٰ ذلك أو رضي به كانت ردة عن دين الإسلام، وكفرًا بالله رب العالمين بإجماع المسلمين، وإن سموا ذلك حوارًا بين الأديان أو الحضارات أو غير ذلك، فالعبرة بالحقائق لا بالأسماء والشعارات التي يراد بكثير منها التلبيس والخداع.

هذا؛ وإن نجاح أي حوار يترتب -بعد توفيق الله- علىٰ أداء المحاور وصفاته، فكلما كان أغزر علمًا وأحسن خلقًا وفهمًا، وأوسع صدرًا وأصدق لهجة، وأكثر عدلًا وأمانة وتجردًا وإنصافًا، وأشد ثقة وأربط جأشًا كان الحوار أعظم ثمرة وأكثر بركة.

ولرسولنا الكريم ونبينا العظيم ﷺ القِدْحُ المُعَلَّىٰ والحظ الأوفى من هذا، ولذلك آتت حواراته أكلها كل حين بإذن ربها.

والمتأمل في الحوارات النبوية يجد أنها امتازت بما يلي:

١- قوة الحجة ووضوح المحجة.

٢- الصدق.

٣-التجرد للحق.

٤-الرحمة بالمحاور وعدم إهانته أو جرح مشاعره أو احتقاره.

٥- مخاطبة العقل والقلب.

٦-التدرج في الحوار.

٧-عدم اليأس.

٨-فتح الآفاق أمام المحاور وترك الفرصة له للتفكير والنظر ولو بعد الحوار، وإعطاؤه الفرصة الكافية للمناقشة والاستفسار.

٩-الفرح والسرور إذا انتفع المحاور أو اقتنع.

١٠- عدم الانتقام أو الانتصار للنفس.

١١- العفو والصفح وعدم مقابلة الإساءة بالمثل.

١٢- حسن الاستماع للمحاور.

١٣- الإثارة ولفت الانتباه.

١٤- الحكمة.

١٥- الرفق واللين والكلمة الطيبة دون تنازُل عن شيء من الدين.

١٦- الاهتمام ببيان المصالح والمفاسد؛ فإن ديننا مبني علىٰ تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها.

١٧- الفصاحة والبلاغة مع السهولة وعدم التكلف.

وكان من أهم أهداف تلك الحوارات النبوية:

١- تعبيد الناس لخالقهم ومالكهم ورازقهم ومدبر أمورهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

٢- إيضاح الحق ونفع الخلق في معاشهم ومعادهم، وتزييف الباطل بالحكمة والموعظة الحسنة.

٣-إزالة الوحشة وكسر الحواجز التي تحول دون قبول الحق دون تنازل عن شيء من الدين.

٤- إزالة الشبهات والعقبات التي حالت بين الناس وبين قبول الحق.

٥- الوصول إلىٰ الهدف بأقرب طريق وأسلم وسيلة.

٦- إيجاد البدائل الشرعية المناسبة.

هذا؛ وقد انتقيت من الحوارات النبوية ما رأيته مناسبًا لموضوع الكتاب محققًا لأهدافه، وذكرت عقب كل حوار الدروس المستفادة منه فيما يتعلق بالموضوع ويحقق أهدافه؛ بحيث تتضمن تلك الدروس المستفادة الفنون والآداب والأهداف والآثار دون تعرض في الغالب للفوائد الفقهية أو الخارجة عن الموضوع، إلا ما أرىٰ أن له صلة بموضوع الكتاب وأهدافه من الفوائد والاستطرادات، معترفًا بقصر باعي وقلة اطلاعي، وعلىٰ الله قصد السبيل هو حسبي ونعم الوكيل.

ولم أورد من الحوارات إلا ما كان صحيحًا وتركت ما لا يصح عملًا بقول

نبينا ﷺ: «**من حدث عني بحديث يرىٰ أنه كذب فهو أحد الكذابين**». أخرجه مسلم في «مقدمة صحيحه».

وآثرت أن أبقي الحوارات علىٰ صورتها وألفاظها كما وردت في كتب الحديث، إبقاءً لهيبتها ودلالتها، فإن الألفاظ النبوية تحمل من المعاني والدلالات ما لا تحمله غيرها، وهي بحمد الله سهلة المباني واضحة المعاني.

وما كان من الألفاظ محتاجا إلىٰ بيان بينته وهذا قليل بحمد الله.

وقد أوردتُ من الحوارات ما يدل علىٰ عالمية هذا الدين وصدق نبيه الكريم، وما قدمه للبشرية كلها من الخير في دينها ودنياها، وأن هذا الدين فيه حل لجميع المشكلات العالمية ما كان منها وما يكون.

وركزت علىٰ إيضاح الشمائل النبوية، ومكارم الأخلاق الزكية، ومعالم الرحمة بالبشرية التي اتصف بها نبينا الكريم ورسولنا العظيم، الذي ختم الله به النبوات، وجعل الكتاب الذي أنزل عليه آخر رسالة سماوية إلىٰ أهل الأرض.

وقد سميت الكتاب:

«الحوار في السيرة النبوية ـ فنونه وأهدافه وآدابه وآثاره»

فإليك أخي القارئ الكريم هذا الكتاب بما حواه من الفنون والآداب والآثار، وكاتبه أحوج إليها من قارئه.

فإننا كما قال ابن المبارك: «طلبنا الأدب بعد أن فات المؤدبون».

وإني أتوسل إلىٰ الرب الكريم الرحيم الواسع العليم الحي القيوم أن يجعل هذا العمل الصالح سببًا للعمل بما فيه، وأن يجعله حجة لي لا علي، وأن يعينني علىٰ نفسي، ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

ومثلي ليس أهلًا لا علميًّا ولا عمليًّا للتصدي لهذا، ولكنها مشاركة في الخير ودعوة إليه عسىٰ الله أن ينفع بها كاتبها ومَن شاء من خلقه؛ إذ لم أجد من سبق إلىٰ الكتابة في هذا الموضوع، وإنما عرضنا بضائعنا في السوق لما غاب المحتسب.

فأسأل الله الكريم الذي يقيل العثرات ويغفر الزلات ويستر العورات، ويمنح من شاء العطايا الجزيلة والهبات أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه ونافعًا لي ولعباده، وأن يجعله من جملة الزاد ليوم المعاد، وأن يثقل به الميزان ويثبت به القدم يوم تزل الأقدام، وأن يوصلني به إلىٰ عالي الجنان إنه هو الكريم المنان وهو المعبود المستعان.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ خير ولد عدنان صاحب الحوض والشفاعة والمقام وعلىٰ آله وصحبه الكرام الأعلام ومن اتبعهم وسار علىٰ نهجهم بإحسان.

* * *

كلمة شكر

أشكر زوجتي الفاضلة أم عبد الرحمن الإدريسية التي كتبت هذا الكتاب علىٰ الكمبيوتر وأعانتني علىٰ مراجعته فجزاها الله خيرًا.

* * *

تعريف الحوار

قال ابن منظور في «لسان العرب» (٣/ ٣٨٤): «المحاورة: المجاوبة، والتحاور: التجاوب، وتقول: كلَّمته فما أحار إلي جوابًا، وما رجع إلي حَوِيرًا ولا حَوِيرَة ولا مَحْوِرَةً ولا حَوارًا؛ أي: ما رد جوابًا، واستحاره أي استنطقه... وهم يتحاورون؛ أي: يتراجعون الكلام، والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة وقد حاوره...». اهـ المراد.

وقال ابن الأثير في «النهاية في غريب الحديث» (١/ ٤٥٨): وفي حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «حين يرجع إليكما ابناكما بحور ما بعثتماه به»؛ أي: بجواب ذلك، يقال: كلمته فما رد إلي حوارًا؛ أي: جوابًا». اهـ.

وقال الإمام القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٠٣): «قوله تعالىٰ: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يراجعه في الكلام ويجاوبه والمحاورة: المجاوبة، والتحاور: التجاوب.

ويقال: كلمته فما أحار إلي جوابًا، وما رجع إلي حَويرًا ولا مَحْوِرَة ولا حَوارًا، أي: ما رد جوابًا». اهـ.

وقال الطاهر بن عاشور في «تفسير التحرير والتنوير» (٧/ ٣١٩): والمحاورة: مراجعة الكلام بين متكلِّمَيْن». اهـ.

قال الراغب الأصفهاني في «مفردات القرآن» (ص١٤٢): «والمحاورة والحوار المرادة في الكلام ومنه التحاور قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾، وكلمته فما رجع إلي حَوارًا أو حَوِيرًا أو مَحْوِرة». اهـ.

ومن خلال ما سبق يتبين: أن الحوار هو كلام دائر بين اثنين.

وقد حرصت علىٰ توفر هذا الشرط في الأحاديث التي أوردتها في صلب كتابي هذا إلا النادر اليسير مما أوردته؛ لما فيه من عظيم الفائدة المتعلقة بالهدف من تأليف هذا الكتاب، والله من وراء القصد.

* * *

الفصل الأول
حوارات من السيرة النبوية
في ظروف عصيبة بعد البعثة وقبل الهجرة إلى المدينة

١ـ من حوارات النبي ﷺ للمشركين بمكة حين أمره اللّه بالبلاغ الخاص والعام:

١- عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال:

لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]. ورهطك منهم المخلصين؛ خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف:

«**يا صباحاه**».

فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فاجتمعوا إليه.

فقال: «**يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يابني عبد المطلب**». فاجتمعوا إليه.

فقال: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟**».

قالوا: ما جربنا عليك كذبًا.

قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد!**».

فقال أبو لهب: تبًّا لك أما جمعتنا إلا لهذا؟!

ثم قام فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ وقد تب[(١)].

٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا فعم وخص فقال: **«يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يابني مرة بن كعب؛ أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس؛ أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا؛ أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار؛ يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا غير أن لكم رحمًا سأبُلُّها ببِلَالها»**[(٢)].

٣-عن عائشة رضي الله عنها قالت:

«لم١٨ نزلت ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ قام رسول الله ﷺ على الصفا فقال: **«يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئًا سلوني من ما لي ماشئتم»**[(٣)].

الدروس المستفادة من هذا الحوار التاريخي العظيم:

أولًا: حكمة النبي ﷺ وحنكته وبُعد نظره ويتمثل ذلك في أمور:

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب التفسير برقم (٤٩٧١)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب: في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. برقم (٢٠٨)، واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ برقم (٢٠٤).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ برقم (٢٠٥)، وفي رواية لمسلم برقم (٢٠٧): «لما نزلت ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ انطلق نبي الله ﷺ إلىٰ رضمة من جبل فَعَلَا أعلاها حجرًا، ثم نادىٰ: **«يا بني عبد منافاه إني نذير، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأىٰ العدو فانطلق يربأ أهله فخشي أن يسبقوه فجعل يهتف يا صباحاه!»**».

١ ـ جمعه لعشيرته وقرابته خصوصًا وعمومًا لإبلاغهم ما أمره الله به توفيرًا للوقت والجهد.

٢ ـ استعماله ﷺ لأنجح وسيلة وأعظمها تأثيرًا في حصول اجتماعهم آنذاك.

حيث رقىٰ علىٰ أعلىٰ حجر في جبل الصفا كما تبينه الروايات السابقة، ثم هتف بهم: «**يا صباحاه**».

وهذه الكلمة كما قال ابن الأثير في «النهاية» (٣/٦-٧): يقولها المستغيث وأصلها: إذا صاحوا للغارة؛ لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح، ويسمون الغارة يوم الصباح فكأن القائل يقول: قد غشينا العدو.

وقيل: إن المتقاتلين كانوا إذا جاء الليل يرجعون عن القتال فإذا عاد النهار عادوا فكأنه يريد بقوله: يا صباحاه قد جاء وقت الصباح فتأهبوا للقتال». اهـ.

وبهذا علم أن رسول الله ﷺ استعمل في هذا الحوار أعظم وسائل الإعلام المتاحة آنذاك؛ من حيث اختيار الخطاب المثير الملفت للانتباه، وعلو المكان بحيث يبلغ نداؤه لأكبر عدد ممكن من الناس.

٣ ـ استخدم النبي ﷺ في حواره العظيم عنصر التشبيه والإثارة وذلك بضرب المثال ليكون ذلك أدعىٰ إلىٰ فهم المقصود وقبوله حيث قال: «**أرأيتكم لو أن خيلًا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟**» قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**».

وفي الرواية الأخرىٰ: «**إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأىٰ العدو فانطلق يربأ أهله فخشي أن يسبقوه فجعل يهتف: يا صباحاه!**».

٤ ـ أن الناس لما اجتمعوا وهم من بطون شتىٰ ومنهم القريب والبعيد عمَّهم

بخطابه وخصَّ؛ ليكون ذلك أشد وقعًا في نفوسهم وأبلغ في شد انتباههم.

ثانيًا: أنه ينبغي لمن حاور غيره لاسيما في هذه الأمور العظيمة التي فيها طلب الانتقال من دين إلىٰ دين، ومن عقيدة إلىٰ عقيدة، ومن شيء مألوف شاب عليه الكبير وشب عليه الصغير، ينبغي للمحاور أن يبين لمن يحاوره عظيم حرصه عليه وكمال شفقته عليه وكبير رغبته في نجاته وسلامته.

ويتضح ذلك في الحوار السابق من خلال ما يلي:

١- ضربه ﷺ المثل العظيم حيث خاطبهم قائلًا: «**إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأىٰ العدو فانطلق يربأ أهله فخشي أن يسبقوه فجعل يهتف ياصباحاه**».

وبهذا المثل صور نفسه معهم بصورة الأسرة الواحدة التي رأىٰ أحد أفرادها عدوًّا يريد أن يجتاحها ويستأصلها فانطلق مسرعًا إليهم لإنقاذهم، فلما خاف أن يسبقه العدو إليهم قبل إنذاره لهم جعل يسابق العدو بصوته إلىٰ أهله، ويهتف يا صباحاه، وهي كلمة إنذار وتحذير شديدة معروفة عند العرب آنذاك.

فبين لهم بهذا المثل أن مقصوده نجاتهم وسلامتهم وأمنهم، لاسيما وقد استشهدهم علىٰ صدقه فقالوا: ما جربنا عليك كذبًا.

وهذا أنفع وألطف وأبلغ ما يكون في حوار مثل هذا ولا غرابة، فقد قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وهو القائل صلوات ربي وسلامه عليه: «**أيها الناس إنما أنا لكم بمنزلة الوالد**».

٢- عند أن قال لهم النبي ﷺ: «**أنقذوا أنفسكم من النار، لا أغني عنكم من الله شيئًا**»، حيث طلب منهم إنقاذ أنفسهم من عذاب الله بالإيمان به وإفراده بالعبادة دون ما سواه، وأنه وإن كان حريصًا عليهم راغبًا في سلامتهم مشفقًا عليهم من عذاب الله، إلا أنه لا يملك لهم من الله شيئًا إن لم يستجيبوا لنداء الله.

٣ـ أنه لم يفرق في خطابه وإنذاره بين أقرب الناس إليه وأبعدهم عنه، فهم في حكم الله سواء، وكلهم مطالب بتحقيق العبودية لله، وكلهم لا يغني عنه من الله شيئًا، إلا أنه بدأ بالأقربين امتثالًا لأمر الله رب العالمين.

٤ـ أن النبي ﷺ في هذا الخطاب العظيم والحوار الجسيم جاء بشيء لم يألفه أهل الجاهلية؛ حيث خاطب النساء بما خاطب به الرجال، فذكر ابنته باسمها وعمته باسمها إشارة منه إلىٰ أن للمرأة حظًّا ونصيبًا في هذه البعثة العظيمة، وقد كان أهل الجاهلية يتنزهون عن ذكر النساء فيما هو دون هذه المحافل، بل ويعدونهن من سَقَط المتاع.

٥ـ أنه ﷺ بذل لهم ماله وأعلمهم أنهم وإن لم يستجيبوا له فسيرعىٰ لهم حق الرحم والقرابة حيث قال: «**غير أن لكم رحمًا سأبُلُّها ببِلَالها**».

ثالثًا: اتسم حوار النبي ﷺ لهم بالإيجاز مع الوفاء بالمقصود.

رابعًا: اتسم هذا الحوار بالعدل؛ حيث لم يفرق بين قريب وبعيد، وذكر وأنثىٰ؛ لأن المقام يعمهم جميعًا فسوىٰ بينهم في خطابه؛ لأن الذكر والأنثىٰ والشريف والوضيع والقريب والبعيد مأمورون بتوحيد الله وإفراده بالعبادة دون ما سواه.

خامسًا: مع أن هذا الحوار موجز إلا أنه تضمن أعلىٰ مقوِّمات الحوار الناجح حيث تضمن:

أ ـ استخدام أعلىٰ الوسائل المتاحة للبلاغ.

ب ـ تضمن الترغيب والترهيب.

ج ـ عمَّ فيه وخص.

د ـ تضمن ضرب الأمثال.

هـ ـ استخدام أنسب العبارات وأبلغها وأوفاها بالمقصود في مثل هذا المقام.

و ـ عدم مقابلة الإساءة بالمثل فقد قال له أبو لهب: تبًّا لك ألهذا جمعتنا؟!»، فلم يجبه النبي ﷺ بشيء.

وهذا يدل علىٰ حسن خلقه وكريم شمائله، وتفويته الفرصة علىٰ من أراد تعكير المقام بالخصام.

ز ـ تتجلىٰ في هذا الحوار رحمته ﷺ بالناس؛ فقد نصح لهم وبذل لهم ماله ووعدهم بصلة الرحم التي بينه وبينهم وإن لم يستجيبوا له، وألان لهم القول، ولم يقابل إساءة من أساء بالمثل.

ومن جميع ما سبق: يقدم رسول الله ﷺ للبشرية أروع الأمثلة في تحمل المسئولية وأدائها علىٰ أحسن حال من جميع الوجوه، وكيف يعرض الإنسان دعوته علىٰ الناس بأوجز عبارة وألطف إشارة، كيف لا والله أرسله رحمة للعالمين لإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور.

سادسًا: أن من صفات المحاور الناجح أنه لا يغضب لنفسه ولا ينتقم لها، ولا يقابل الإساءة بمثلها بل يصبر، فقد أعرض النبي ﷺ عما قاله أبو لهب وكأنه لم يقل شيئًا؛ لأن المقابلة بالمثل أثناء المحاورات قد تخرج الحوار عن مقصوده، وينتهي بمهاترات وانتصارات للنفس تَصْرِف المتحاورين عن القضية الأصلية.

سابعًا: أن من صفات المحاور الناجح الصدقَ؛ فالصادق لكلامه وَقْعٌ علىٰ

القلوب، ويؤخذ كلامه بعين الاعتبار بخلاف الكاذب؛ ففي الحوار السابق قال أعداء النبي ﷺ له: «**ما جربنا عليك كذبًا**».

ثامنًا: من صفات المحاور الناجح الجدية في طرح الموضوع واتخاذ كافة السبل الممكنة للوصول إلىٰ المطلوب، وهذا جلي ظاهر في الحوار السابق.

٢ـ استمر النبي ﷺ يدعو إلىٰ الله بلا كلل ولا ملل، ويزور المشركين إلىٰ نواديهم ومجامعهم ويعرض عليهم ما أرسله الله به إليهم، ويبين لهم ما لهم من خير عاجل وآجل إن أطاعوه واتبعوا النور الذي جاء به من عند الله، ولكنهم قابلوه بالسخرية والاستهزاء والتكذيب والأذىٰ، حتىٰ قالوا عنه ساحر، كاهن، شاعر، مجنون، وساموا أتباعه سوء العذاب فقُتل من قُتل وهاجر من هاجر فرارًا بدينه، وكتم آخرون إيمانهم، والنبي ﷺ لا يزداد إلا ثباتًا وصبرًا وصفحًا وإعراضًا عن الجاهلية، وتثبيتًا لأصحابه وتبشيرًا لهم.

فحاول كفار قريش ترغيبه وترهيبه وبذلوا ما في وسعهم في ذلك... إلىٰ أن قرروا قتله والله غالب علىٰ أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فهو القائل ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة: ٣٣].

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

فإليك أخي القارئ الكريم بعض الأمثلة التي وعتها صدور المحدثين، وسطرتها أقلامهم علىٰ جبين الدهر، شاهدة بصدق هذا الرسول وكريم أخلاقه، وعظيم ثقته بمُرْسِله، وأنه بعثه لتسعد البشرية كلها وتنعم بالعدل والرحمة، ويأخذ كل ذي حق حقه لا وكس ولا شطط، وكيف كانت له العاقبة الحميدة.

١ـ روىٰ البخاري في «التاريخ»، والبيهقي عن الحاكم من حديث عقيل بن أبي طالب قال:

«جاءت قريش إلىٰ أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنا! فقال: يا عقيل انطلق فَأْتني بمحمد.

فانطلقت فاستخرجته من كنس أو خنس ـ بيت صغير ـ فجاء به في الظهيرة في شدة الحر، فلما أتاهم قال: إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم فانته عن أذاهم.

فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلىٰ السماء فقال: «**ترون هذه الشمس؟**» قالوا نعم.

قال: «**فما أنا بأقدر أن أدع ذلكم منكم علىٰ أن تشعلوا منها بشعلة!**»(١).

والدروس المستفادة من هذا الحوار القصير، مع أنه مصيري وحاسم وواضح المعالم مايلي:

أولًا: عظيم ثبات النبي ﷺ، وثقته بربه الذي أرسله، وهكذا ينبغي لصاحب الحق، وهذا من صفات المحاور الناجح.

ثانيًا: الوضوح وعدم التلون أو الكذب والمداهنة؛ فقد أعلمهم صلوات الله عليه وسلامه أنه لن يتخلىٰ عن إبلاغ الناس ما أمره الله به من الدعوة إلىٰ إفراد الله بالعبادة وخلع عبادة الأصنام، وإن اعتبروا ذلك أذًىٰ لهم ومسبة لآلهتهم التي يعبدونها من دون الله مع أنها لا تسمع كلامهم،ولا ترىٰ مكانهم، ولا تملك لهم نفعًا ولا ضرًّا.

---

(١) «صحيح السيرة» للعلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص١٤٣-١٤٤).

ثالثًا: قطع طمع المخالف في الاستجابة لمطلبه الباطل.

رابعًا: أنَّ ضرب المثال للمخاطب أدعىٰ لفهمه، وهذا من فنون الحوار.

خامسًا: عدم الدخول في نقاش وحوار عقيم لا طائل تحته، وإن كان المحاور يتشوف إليه، وهذا من فنون الحوار وبراعة المحاور.

سادسًا: أن مكارم أخلاق النبي ﷺ كانت معلومة لدىٰ المحب والمبغض والقريب والبعيد، فقد حلف أبو طالب أن رسول الله ﷺ ما كذب قط ولم يعارضه كفار قريش ولا ردوا قوله.

سابعًا: صلف أهل الباطل واستماتتهم في الدفاع عن باطلهم، واتخاذ كل سبيل يقدرون عليه لإسكات أهل الحق ولكن العاقبة دومًا للمتقين.

ثامنًا: عظيم شجاعة النبي ﷺ، وإن كان وحده والمخالف له سادات قريش، فينبغي للداعي إلىٰ الحق أن يتحلىٰ بالشجاعة مع الحكمة والاستعانة بالله قبل كل شيء والثقة بوعده. وكل ذلك من صفات المحاور الناجح.

٢ـ عن محمد بن كعب القرظي قال:

«حُدِّثت: أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيدًا في قومه ـ قال يومًا وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلىٰ محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورًا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟

وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلىٰ يا أبا الوليد قم إليه فكلمه.

فقام إليه عتبة حتىٰ جلس إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا بن أخي إنك منَّا حيث قد علمت من السِّطَة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم

فرَّقت به جماعتهم وسفَّهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضىٰ من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

فقال له رسول الله ﷺ: «**قل يا أبا الوليد أسمع**».

قال: يا بن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتىٰ تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا حتىٰ لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتىٰ نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع علىٰ الرجل حتىٰ يداوىٰ منه أو كما قال له.

حتىٰ إذا فرغ عتبة ورسول الله يستمع منه قال: «**أقد فرغت يا أبا الوليد؟**».

قال: نعم.

قال: «**فاسمع مني**».

قال: أفعل.

فقال: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [فصلت: ١-٥].

ثم مضىٰ رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقىٰ يديه خلف ظهره معتمدًا عليها يسمع منه، ثم انتهىٰ رسول الله ﷺ إلىٰ السجدة منها فسجد ثم قال: «**قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك**».

فقام عتبة إلىٰ أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائي أني قد سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر علىٰ العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه.

قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار العظيم ما يلي:

أولًا: أن من فنون الحوار وآدابه: الإِصْغَاءَ للمتكلم حتىٰ يفرغ من كلامه دون مقاطعة، وكان هذا من أخلاق نبينا ﷺ كما هو واضح في الحوار السابق.

ثانيًا: أن من فنون الحوار وآدابه إعطاء المحاور فرصة أخرىٰ للكلام إن دعت حاجة لذلك، وسؤاله بعد الفراغ من كلامه ما إذا كان لا يزال لديه ما يقوله تأنيسًا له وتألفًا لقلبه، ففي الحوار السابق لما تكلم عتبة بن ربيعة والنبي ﷺ مصغ له، قال له رسول الله ﷺ بعد فراغه: «**أقد فرغت يا أبا الوليد؟**».

أيها القارئ الكريم: إنها من مكارم أخلاق نبينا ﷺ الذي أمرنا أن نتأسىٰ به،

---

(١) أخرج هذه القصة وما فيها من حوار ابن إسحاق في المغازي (١/ ٢٩٤) من سيرة ابن هشام. وحسنها الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه علىٰ «فقه السيرة» للغزالي (ص١٠٨).

قال الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

ثالثًا: مشروعية حوار الكفار إذا كان بغرض دعوتهم إلىٰ الحق والهدىٰ، أو بيان بطلان ما هم عليه بالحكمة والموعظة الحسنة، أو إزالة بعض الشبهات التي في أذهانهم عن ديننا إذا قام بذلك مَن هو أهل لذلك.

وقد بعث النبي ﷺ معاذًا إلىٰ اليمن وقال له: «**إنك تأتي قومًا أهل كتاب**».

قال سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في شرحه لـ: «كتاب التوحيد» (ص٤٣)**: «أي: فليسوا جهالًا، بل عندهم علوم وشبه، فنبهه ليستعد لهم وليبلغهم أمر الله». اهـ.

وقال العلامة الفوزان حفظه الله في إعانة المستفيد (١/ ١٠٧): «وقصد النبي ﷺ من هذا أن يتأهب معاذ لمن سيقدم عليهم وأنهم أهل كتاب يحتاجون إلىٰ استعداد علمي للمجادلة والمناظرة». اهـ.

رابعًا: أنه يجب علىٰ صاحب الحق أن يثبت عليه ويدعو إليه وينافح عنه بالحكمة والموعظة الحسنة مستعينًا بالله، لاسيما وأن خصمه قد يكون له شوكة ومكانة فيرغِّب ويرهِّب، وفي حوار النبي ﷺ السابق خير شاهد علىٰ هذا.

خامسًا: أن من آداب الحوار وفنونه إنزال المخاطب منزلته ومخاطبته بما يليق به مما لا يخالف الشرع، وألا يحتقر أو يتنقص من قدره، فإن ذلك أدعىٰ لاستجابته وإنصافه، فالنبي ﷺ كان ينادي عتبة بن ربيعة بكنيته فيقول له: «**يا أبا الوليد**»، وتلطف في خطابه.

وقد كان من ثمرة: ذلك حسن إصغائه، ثم ما قاله لكفار قريش بعد انصرافه إليهم حتىٰ قالوا له: «سحرك يا أبا الوليد بلسانه».

سادسًا: أن من آداب الحوار وفنونه: أن يتيح المحاور والمناظر فرصة لخصمه للتأمل والنظر ومراجعة نفسه، وألا يلزمه بالقبول الفوري؛ لأن للنفوس حظوظًا وللشيطان مداخل، وقد تكون هناك عوائق تحول بين الشخص وبين اتخاذ القرار بسرعة، والموفق من وفقه الله وأعانه علىٰ نفسه وهواه وشياطين الإنس والجن، فالنبي ﷺ لما فرغ مما عنده جوابًا علىٰ مقالة عتبة بن ربيعة قال له: «**قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك**».

سابعًا: أن أهل الباطل والشر لا يدخرون جهدًا لصرف أهل الحق عن الحق باليد واللسان، وبالترغيب والترهيب، وهنا: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ثامنًا: أن من صفات المحاور الناجح الإعراض عما يفسد الحوار ويقطع الطريق دون المطلوب، فلا ينتقم لنفسه ولا يجاري من يخاطبه في إساءة الأدب معه كما هو ظاهر في الحوار السابق.

٣ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت:

«قلت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل أتىٰ عليك يومٌ كان أشد من يوم أُحد؟

فقال: «**لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي علىٰ ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلىٰ ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم علىٰ وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم**».

قال: «**فناداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين**».

فقال له رسول الله ﷺ: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا**»(١).

والدروس المستفادة من هذه القصة الحزينة ما يلي:

أولًا: أن على الداعي إلى الحق والهدى أن يعرض دعوته على الخلق، وأن يغشاهم في أماكنهم لاسيما كبراء القوم وسادتهم الذين يرجى باستجابتهم للحق استجابة من وراءهم، فهذا سيد الأولين والآخرين يعرض نفسه ودعوته على ابن عبد ياليل في مكانه، مع تحمل المشاق في التنقل وحيدًا من مكان لآخر.

ثانيًا: نصر الله لرسله وهكذا أتباعهم كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

وهذا يزيد المؤمن إيمانًا وثباتًا وإقدامًا وطمأنينة؛ فعليه أن يدعو للحق واثقًا بوعد الله.

ثالثًا: العفو عند المقدرة؛ فقد لقي رسول الله ﷺ في رحلته هذه ما لقي، وأصابه من الهم والغم ما لا يعلمه إلا الله، فلما عرض عليه ملك الجبال بأمر الله أن يأمره فيهم بما شاء حتى لو كان بأن يطبق عليهم الجبلين العظيمين، إلا أن النبي -صلى الله

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم آمين برقم (٣٢٣١)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من المشركين والمنافقين برقم (١٧٩٥)، واللفظ له.

عليه- لم ينتقم لنفسه، فكيف يقال إن هذا النبي بعث ليسفك الدماء ويخرب العالم، وينتقم من أعدائه ويهلك الحرث والنسل، ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾ [النور: ١٦].

وإن في هذه القصة وهذا الحوار مع ملك الجبال لَأعظمَ برهان علىٰ سماحة هذا النبي الكريم، ورحمته بأعدائه، وعفوه عنهم عند القدرة عليهم، وحرصه علىٰ هدايتهم.

رابعًا: ألا ييأس الإنسان من هداية الخلق وإن أسمعوه ما يكره، وأروه ما يكره؛ لأن القصد عمارة الأرض بطاعة الله، وتعبيد الخلق لخالقهم ومالكهم ورازقهم ومدبر شئونهم ﷻ، فمع ما لقي النبي ﷺ في هذه الرحلة إلا أنه آثر الإبقاء عليهم رجاء أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا.

فينبغي للداعي إلىٰ الحق الحريص علىٰ هداية الخلق أن يتحلىٰ بالصبر، وأن يكون عنده أمل وألا ييأس فيحمله ذلك علىٰ الاستمرار حتىٰ يحقق هدفه.

٤ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما:

«أن ضمادًا قدم مكة وكان من أزد شنوءة، وكان يرقي من هذه الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدًا مجنون.

فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه علىٰ يدي.

قال: فلقيه، فقال: يا محمد، إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي علىٰ يدي من شاء فهل لك؟

فقال رسول الله ﷺ: «**إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله أما بعد**».

قال: فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات.

فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر.

قال: فقال رسول الله ﷺ: «**هات يدك أبايعك علىٰ الإسلام**».

قال: فبايعه فقال رسول الله ﷺ: «**وعلىٰ قومك**» قال: وعلىٰ قومي»[(١)].

وفي هذا الحوار العظيم الدائر بين رسول الله ﷺ وضماد رضي الله عنه دروس عظيمة منها:

أولًا: أن الشائعات لاسيما إذا كثرت يكون لها أثر عظيم علىٰ نفوس كثير من الخلق حتىٰ تصبح بمنزلة اليقين عند بعضهم.

فالواجب ألا يقابلها الداعي إلىٰ الحق الحريص علىٰ هداية الخلق بالعنف والفظاظة، أو بالإحباط والاستسلام، فهذا رسول الله ﷺ يسمع ضمادًا وقد صدق قول كفار قريش في رسول الله أنه مجنون، وجاءه مريدًا لشفائه، فما زجره ولا عبس في وجهه بل أسمعه ما نفعه.

ثانيًا: أن علىٰ الداعي إلىٰ الحق أن يخاطب كل شخص بما يناسبه ويغلب علىٰ ظنه أنه ينفعه، فهذا الرجل كان سيدًا في قومه ومن عقلاء العرب وبلغائهم، فخاطبه رسول الله ﷺ بكلمات كانت سببًا في إسلامه.

ثالثًا: أن علىٰ الداعي إلىٰ الحق ألا يفوت الفرصة إن لاحت له، ويستثمر

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة برقم (٨٦٨).

عواطف الناس في الخير، ويستغل إقبال قلوبهم، فهذا رسول الله ﷺ ما إن سمع مقالة ضماد التي تدل علىٰ أن شبهات المشركين قد تبخرت من عقله، وأن شكوكه قد زالت، وأنه قد تهيأ للدخول في الإسلام حتىٰ قال له: «**هات يدك أبايعك**».

رابعًا: أن علىٰ داعية الحق والهدىٰ أن يهيىء من يرىٰ فيه الأهلية، لاسيما إذا كان مطاعًا في قومه ليكون داعيًا إلىٰ الخير بعد أن كان مدعوًّا.

٥ـ عن عمرو بن عبسة السلمي قال:

«كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس علىٰ ضلالة، وأنهم ليسوا علىٰ شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت رجلًا بمكة يخبر أخبارًا، فقعدت علىٰ راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله مستخفيًا جرآء عليه قومه، حتىٰ دخلت عليه بمكة فقلت له: ما أنت؟

قال: «**أنا نبي**».

فقلت: وما نبي؟

قال: «**أرسلني الله**».

فقلت: وبأي شيء أرسلك؟

قال: «**أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء**».

قلت له: فمن معك علىٰ هذا؟

قال: «**حر وعبد**».

قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به.

فقلت: إني متبعك.

قال: «**إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترىٰ حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلىٰ أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني**».

قال: فذهبت إلىٰ أهلي وقدم رسول الله المدينة، وكنت في أهلي فجعلت أتخبر الأخبار وأسأل الناس حين قدم المدينة، حتىٰ قدم علي نفر من أهل يثرب من أهل المدينة فقلت: ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سَرَاع، وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك.

فقدمت المدينة فدخلت عليه فقلت: يا رسول الله أتعرفني؟

قال: «**نعم أنت الذي لقيتني بمكة؟**».

فقلت: بلىٰ.

فقلت: يا نبي الله أخبرني عما علمك الله وأجهله، أخبرني عن الصلاة؟

قال: «**صلِّ صلاة الصبح ثم أقصر عن الصلاة حتىٰ تطلع الشمس حتىٰ ترتفع، فإنها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار، ثم صلِّ فإن الصلاة مشهودة محضورة حتىٰ يستقل الظل بالرمح، ثم أقصر عن الصلاة فإن حينئذ تسجر جهنم، فإذا أقبل الفيء فصلِّ فإن الصلاة مشهودة محضورة حتىٰ تصلي العصر، ثم أقصر عن الصلاة حتىٰ تغرب الشمس، فإنها حينئذ تغرب بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار**».

قال: فقلت: يا نبي الله، فالوضوء؛ حدثني عنه.

قال: «**ما منكم رجل يقرّب وضوءه فيتمضمض ويستنشق فينتثر إلا خرت خطايا وجهه وفيه وخياشيمه، ثم إذا غسل وجهه كما أمره الله إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلىٰ المرفقين إلا خرت خطايا يديه مع**

أنامله مع الماء، ثم يمسح رأسه إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه علىٰ الكعبين إلا خرت خطايا رجليه من أنامله مع الماء، فإن هو قام فصلىٰ فحمد الله وأثنىٰ عليه ومجّده بالذي هو له أهل، وفرغ قلبه لله إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه»[(١)].

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار الدائر بين رسول الله ﷺ وبين عمرو ابن عبسة رضي الله عنه ما يلي:

أولًا: أنه ينبغي للمحاور أن يكون واسع الصدر عند الحوار، غير متضجر من كثرة الأسئلة، أو طلب إيضاح بعض المسائل أو بعض الأجوبة السابقة.

ثانيًا: الرحمة بالخلق وعدم تكليفهم فوق طاقتهم، أو تعريضهم للأخطار، فهاهو رسول الله ﷺ مع قلة أتباعه في أول الأمر ينصح عمرو بن عبسة بالرجوع إلىٰ أهله، وعدم إظهار إسلامه لئلا يناله من الأذىٰ ما لا يحتمله.

ثالثًا: ما كان عليه النبي ﷺ من قوة الثقة بالله، والإصرار علىٰ مواصلة السير في تبليغ دين الله، حيث قال لهذا المحاور له الذي دخل في دينه: «**ارجع إلىٰ أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني**»، فينبغي للمحاور الداعي إلىٰ الحق والهدىٰ أن يكون متفائلًا، عظيم الثقة بالله، صاحب عزيمة، ليكون ناجحًا في مهمته.

رابعًا: أن هذا الدين الإسلامي القويم دين تقبله الفطر السليمة وتطلبه، لاسيما إذا عرض علىٰ الناس عرضًا حسنًا، وليس بحاجة إلىٰ ترغيب للناس بدنيا، أو ترهيب، أو إكراه للناس ليدخلوا فيه، فقد قال الله تعالىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: إسلام عمرو بن عبسة برقم (٨٣٢).

ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [الروم: ٣٠].

ولذلك انتشر في أول الأمر مع شدة أذى المشركين للنبي ﷺ وأتباعه، ومع وصفهم للنبي ﷺ بأبشع الأوصاف المنفرة.

وهكذا يعيد التاريخ نفسه اليوم، فمع تشويه صورة الإسلام والمسلمين، والسخرية بهذا النبي العظيم الكريم، ومع وصف القرآن الكريم بأنه كتاب إرهاب، ومع ضعف المسلمين وقوة أعدائهم، إلا أن أعداد الداخلين في الإسلام تتزايد كثيرًا، لاسيما في الدول غير الإسلامية كأمريكا وأوربا، مما أفزع أعداء الإسلام وأقضَّ مضاجعهم، وصدق الله إذ يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [التوبة: ٣٣].

خامسًا: أن على المحاور الداعي إلى الحق أن يكون متحليًا بالصدق والوضوح، وألا يتشبع بما لم يُعْطَ، ويدعي الدعاوى العريضة الكاذبة التي قد تكون من أكبر أسباب الإعراض عنه.

فهذا نبينا ﷺ الصادق الأمين يُسأل عن عدد أتباعه فيقول: «**حر وعبد**»، فليست الكثرة أو القلة برهانًا على الحق أو الباطل، فكثرة الأتباع ليست مقياسًا شرعيًّا على أن الداعي على حق، وقلة الأتباع ليست مقياسًا شرعيًّا أن الداعي على باطل، بل الله يقول في كتابه الكريم: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: ١١٦]،

يقول ﷻ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: ١١٣].

فالواجب علىٰ من وجد الحق أن يلزمه، ويثبت عليه، ويدعو إليه، وألا يستوحش من قلة الأتباع.

سادسًا: أن الدين الإسلامي يدعو إلىٰ طهارة الباطن والظاهر، فكما أن نبي الله في هذا الحوار بين للسائل أن الله بعثه بأن يوحد الله وألا يشرك به، وبهذا يطهر القلب؛ فقد بين للسائل المحاور أيضًا كيفية الوضوء الذي يكون به غسل الأعضاء الظاهرة التي تكون عرضة للتلوث بالأوساخ وذلك خمس مرات كل يوم، وما يترتب علىٰ ذلك من طهارة معنوية أيضًا من الذنوب والخطايا.

سابعًا: أن علىٰ المحاور الداعي إلىٰ الحق وكل داعٍ أن يقرن الحكم بعلته إن علمها، ويبين ما يترتب علىٰ ما يدعو إليه من المنافع الدينية والدنيوية، فإن ذلك أدعىٰ لقبول دعوته، وهذا واضح في تعليم النبي ﷺ لعمرو بن عبسة الصلاة والوضوء، وهذا يدل علىٰ حسن تعليمه ﷺ.

٦ـ عن خباب بن الأرت قال:

«أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردةً، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا؟!

فقعد وهو محمر وجهه فقال: «**لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع الميشار علىٰ مفرق رأسه فيشق نصفين ما يصرفه ذلك عن دينه، وَلَيُتِمَّن الله هذا الأمر حتىٰ يسير الراكب**

من صنعاء إلىٰ حضرموت ما يخاف إلا الله!»[(١)].

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: أنه ينبغي علىٰ الداعي إلىٰ الحق والهدىٰ كبير القوم إن رأىٰ من أصحابه جزعًا أن يهدأ من رَوْعهم، وأن يثبتهم، ويضرب لهم من الأمثال ما يحملهم علىٰ الصبر.

ثانيًا: ما كان عليه النبي ﷺ من الثبات والحزم، وهكذا ينبغي لكبير القوم، فإن ذلك ينعكس علىٰ أتباعه، وينطبع في نفوس كثير منهم، والعكس بالعكس.

ثالثًا: أن الابتلاء سنة كونية، وتكون عواقبه حميدة لأهل الإيمان.

ورحم الله ابن القيم إذ يقول في «نونيته»:

والحق ممتحن ومنصور فلا ... تعجب فهذي سنة الرحمن

رابعًا: ما قاله العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في شرحه لرياض الصالحين (١/ ١٤٣):

«في الحديث دليل علىٰ وجوب الصبر علىٰ أذية أعداء المسلمين، وإذا صبر الإنسان ظفر.

فالواجب علىٰ الإنسان أن يقابل ما يحصل من أذية الكفار بالصبر والاحتساب، وانتظار الفرج، ولا يظنن الأمر ينتهي بسرعة.

قد يبتلي الله عَزَّ وَجَلَّ المؤمنين بالكفار يؤذونهم، وربما يقتلونهم كما قتلوا الأنبياء، اليهود من بني إسرائيل قتلوا الأنبياء الذين هم أعظم من الدعاة وأعظم من

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب مناقب الأنصار، باب: ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة برقم (٣٨٥).

المسلمين، فليصبر ولينتظر الفرج، ولا يمل ولا يضجر، بل يبقىٰ راسيًا كالصخرة والعاقبة للمتقين، والله تعالىٰ مع الصابرين.

فإذا صبر وثابر وسلك الطرق التي وتوصل إلىٰ المقصود، ولكن بدون فوضىٰ وبدون استنفار، وبدون إثارة بطريق منظمة؛ لأن أعداء المسلمين من المنافقين والكفار يمشون علىٰ خطًا ثابتة منظمة، ويحصلون مقصودهم.

أما السطحيون الذين تأخذهم العواطف حتىٰ يثوروا ويستنفروا، فإنه قد يفوتهم شيء كثير، وربما حصل منهم زلة تفسد كل ما بنوا إن كانوا قد بنوا شيئًا.

لكن المؤمن يصبر ويتئد ويعمل بتؤدة، ويوطن نفسه، ويخطط تخطيطًا منظمًا يقضي به علىٰ أعداء الله من المنافقين والكفار، ويفوت عليهم الفرص؛ لأنهم يتربصون الدوائر بأهل الخير يريدون أن يثيروهم، حتىٰ إن حصل من بعضهم ما يحصل حينئذ استعلوا عليهم وقالوا: هذا الذي نريد، وحصل بذلك شر كبير!

فالرسول عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه: اصبروا فالمؤمن فيمن قبلكم -وأنتم أحق بالصبر منه- كان يُعمل به هذا العمل ويصبر، فأنتم يا أمة محمد أمة الصبر والإحسان، فاصبروا حتىٰ يأتي الله بأمره، والعاقبة للمتقين.

فأنت أيها الإنسان، لا تسكت عن الشر ولكن اعمل بنظام وبتخطيط وبحسن تصرف وانتظر الفرج من الله، ولا تمل فالدرب طويل لاسيما إذا كنت في أول الفتنة، فإن القائمين بها سوف يحاولون ما استطاعوا أن يصلوا إلىٰ قمة ما يريدون، فاقطع عليهم السبيل، وكن أطول منهم نفسًا، وأشد منهم مكرًا، فإن هؤلاء الأعداء يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين والله الموفق». اهـ.

خامسًا: أنه كلما قوي الأذىٰ وزاد واشتد البلاء اقترب الفرج والنصر فلا يأس ولا قنوط.

سادسًا: أن في التأني السلامة وفي العجلة الندامة.

سابعًا: أن المطلوب من المؤمن وقت البلاء والاستضعاف وقلة الأعوان العفو والصبر مع التفاؤل بتغيير الحال، والأخذ بالأسباب مع الحكمة والحذر.

ثامنًا: أن في ذكر قصص وحكايات السابقين المشابهة للحال سلوان وتثبيت للفؤاد، ولذلك قال ربنا ﷻ مخاطبًا نبينا ﷺ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠].

وقال ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

٧ ـ عن المسيب بن حزن رضي الله عنه قال:

«لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله ابن أبي أمية بن المغيرة.

فقال رسول الله ﷺ: «**يا عم، قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله!**».

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟!

فلم يزل رسول الله يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.

فقال رسول الله ﷺ: «**أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك**».

فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ

كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣].

وأنزل الله تعالىٰ في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦][(١)].

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار العظيم بين رسول الله وعمه أبي طالب وهو علىٰ فراش الموت وبحضرة رءوس الكفر ما يلي:

أولًا: أنه لم يكن نبينا ﷺ في دعوته الناس إلىٰ توحيد الله وإخلاص الدين له حريصًا علىٰ أن يكون له أتباع يستفيد منهم مالًا أو جاهًا أو علوًّا في الأرض، وإنما كان قصده أن يكون الناس عبيدًا لله، وإلا فماذا يعني الحرص علىٰ إيمان رجل يجود بأنفاسه الأخيرة؟!

وهكذا ما رواه البخاري في «صحيحه»[(٢)] عن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: «**أسلم**»، فنظر إلىٰ أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم، فأسلم فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**».

فأي فائدة دنيوية من إسلام غلام يجود بأنفاسه الأخيرة؟! ثم يخرج رسول الله من عنده بعد إسلامه فرحًا مسرورًا.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الجنائز، باب: إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله برقم (١٣٦٠)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب: الدليل علىٰ صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع وهو في الغرغرة برقم (٢٤).

وفي رواية: أن أبا طالب قال لرسول الله ﷺ: «**لولا أن تعيرني قريش يقولون: إنما حمله علىٰ ذلك الجزع لأقررت بها عينك**».

(٢) برقم (١٣٥٦).

إن في هذا ورب الكعبة لَدلالةً عظيمة لكل عاقل علىٰ أن مقصود بعثة هذا النبي الأعظم عليه وعلىٰ سائر الأنبياء الصلاة والسلام: أن يُعبد الله وحده لا شريك له، وفيه ما كان عليه صلوات الله وسلامه عليه من الرحمة بالخلق، والحرص علىٰ نجاتهم من عذاب الله، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

أفبعد هذا يسوغ أن يقول عاقل: إنما جاء هذا الرجل لأخذ أموال الناس، وسفك دمائهم، والتملك عليهم، وأنه رجل إرهابي كما يقال: ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ٥﴾ [الكهف: ٥].

ثانيًا: أن علىٰ الداعي إلىٰ الحق والهدىٰ ألا ييأس من هداية الناس، وأن يحرص علىٰ نجاتهم إلىٰ آخر اللحظات، كما فعل نبينا ﷺ في هذه القصة.

ثالثًا: أن علىٰ الداعي إلىٰ الحق والهدىٰ ألا يمل من عرض دعوته علىٰ الناس، وتكرار ذلك علىٰ مسامعهم، فما زال نبينا ﷺ يكرر دعوته لعمه في الدخول في الإسلام حتىٰ فارق الحياة.

رابعًا: الرفق بالمدعو والتلطف له بالخطاب لاسيما إن كان قريبًا؛ لأن ذلك أدعىٰ لقبوله واستجابته إن أراد الله له ذلك، فرسول الله ﷺ يخاطب هذا الرجل المشرك، وهو عمه بقوله: «**يا عم، قل: لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله!**».

خامسًا: أنه ينبغي لداعية الحق والهدىٰ ألا يحجم عن عرض دعوته علىٰ شخص أو أشخاص بسبب وجود بعض الأعداء والمناوئين، طالما أنه لا يخشىٰ ضررًا أعظم علىٰ نفسه أو دعوته، فنبينا ﷺ لم يمنعه وجود أبي جهل وابن أبي أمية وهم من صناديد كفار قريش أن يدعو عمه إلىٰ الإسلام مع معارضتهم له في المجلس.

سادسًا: أن جلساء السوء ورفاق الشر قد يكونوا سببًا لسوء خاتمة الشخص عياذًا بالله وموته علىٰ الكفر أو ما دونه، فقد تسبب هذان في موت أبي طالب علىٰ الكفر، مع وجود داعي الإيمان والهدىٰ، فكيف إذا انفرد جلساء السوء بالشخص، نسأل الله السلامة والعافية.

سابعًا: أن التمسك بالعادات والتقاليد البالية الضارة خوفًا من كلام الناس قد يكون سببًا لسوء الختام، واقتراف الآثام عياذًا بالله، فهاهو أبو طالب يقول لابن أخيه رسول الله ﷺ: «**لولا أن تعيرني قريش يقولون: إنما حمله علىٰ ذلك الجزع لأقررت بها عينك!**».

ثامنًا: أن ما سبق ذكره قد يكون سببًا للبقاء علىٰ الكفر حال الحياة، ويحرم صاحبه لذة الهداية وحلاوة الإيمان والطاعة ثم يحرمه الجنة عياذًا بالله.

تاسعًا: ما كان عليه نبينا ﷺ من الرحمة بالخلق؛ فمع أن عمه اختار الموت علىٰ الكفر، وأبىٰ أن يستجيب له إلا أنه قال بعد موته: «**لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**»، حتىٰ أنزل الله عليه قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣﴾ [التوبة: ١١٣].

٨- عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«مكث رسول ﷺ عشر سنين يتَّبَّعُ الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة، وفي الموسم بمنىٰ يقول: «**من يؤويني من ينصرني حتىٰ أبلغ رسالة ربي وله الجنة؟!**».

حتىٰ إن الرجل ليخرج من اليمن، أو من مضر فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتننك، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتىٰ بعثنا الله له من يثرب، فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلىٰ

أهله فيسلمون بإسلامه، حتىٰ لم يبق دُار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام.

ثم ائتمروا جميعًا فقلنا: حتىٰ متىٰ نترك رسول الله يُطرد في جبال مكة ويخاف؟

فرحل إليه منا سبعون رجلًا حتىٰ قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين حتىٰ توافينا، فقلنا: يا رسول الله، علام نبايعك؟

قال: «**تبايعوني علىٰ السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم، وعلىٰ أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة**».

قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو من أصغرهم فقال: رويدًا يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تَعَضَّكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون علىٰ ذلك وأجركم علىٰ الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جَبينة فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله!

قالوا: أمط عنا يا أسعد فوالله لا ندع هذه البيعة أبدًا، ولا نسليها أبدًا، فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط ويعطينا علىٰ ذلك الجنة»(١).

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٢٢) واللفظ له، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦٢٤- ٦٢٥)، وقال: «صحيح الإسناد». ووافقه الذهبي، وقال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ١٦٠): «هذا إسناد جيد علىٰ شرط مسلم». وقال ابن حجر في «الفتح» (٧/ ١٧٧): «رواه أحمد بإسناد حسن وصححه الحاكم وابن حبان». اهـ، وسند الحديث صحيح ولله الحمد.

ومما يستفاد من هذا الحدث التاريخي العظيم بيعة أهل المدينة النبي ﷺ في العقبة علىٰ أن يهاجر إليهم وينصروه ويحموه ما يلي:

أولًا: أن من صبر ظفر، ومن ثبت نبت، ومن سار علىٰ الدرب وصل، فقد قام نبينا الكريم بما كلفه الله به من البلاغ خير قيام، وتحمَّل في سبيل ذلك المصاعب والآلام حتىٰ ساق الله إليه هؤلاء الأبرار الكرام، ففتحوا قلوبهم قبل بلادهم، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه رضي الله عنهم وأرضاهم وجعل الجنة منقلبهم ومأواهم.

ثانيًا: أخذ الحيطة والحذر، لاسيما في وقت طغيان الباطل وتطاول أهله وضعف أهل الحق، فقد واعد النبي ﷺ أهل المدينة العقبة في حين غفلة من الناس.

فالأخذ بالأسباب المأذون بها شرعًا، مع صدق اعتماد القلب علىٰ الله وحده لا شريك له هو هدي هذا النبي الكريم ودينه القويم، وفي هذه الحادثة دليل واضح علىٰ هذا.

ثالثًا: أن الصدع بكلمة الحق والأمر بالمعروف النهي عن المنكر من أعظم مبادئ الإسلام؛ ولذلك أخذ النبي ﷺ البيعة علىٰ ذلك سلفًا، فلا مكان في الإسلام للرذائل والمداهنة والنفاق.

رابعًا: أنه لا دين إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بسمع وطاعة، وهذا ظاهر في هذا الحدث العظيم والحوار الجسيم في البيعة وشروطها، وهذا لا يكون إلا للإمام الظاهر.

خامسًا: أهمية المال -الحلال- في قيام الدول وانطلاق الدعوات إلىٰ الحق والهدىٰ علىٰ منهاج النبوة، فقد جعل النبي ﷺ في شروط البيعة المأخوذة علىٰ أهل المدينة: النفقة في العسر واليسر.

فلابد من العناية بالموارد المالية، وتنميتها بالطرق الشرعية، لنخدم ديننا بدنيانا ولا نكون عالة علىٰ أعدائنا.

سادسًا: أن علىٰ داعية الحق والهدىٰ والمصلح والمطاع أن يربط الناس بالله والدار الآخرة، لا بالوعود الكاذبة والدنيا الزائلة، فذلك صمام أمان، فهذا رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام يأخذ البيعة ويشترط ويقول لهم: ولكم الجنة، فلها يعمل العاملون ويتنافس المتنافسون، أما ربط الناس بالدنيا وبيعتهم لأجلها فإنه يضرهم ولا ينفعهم، ويفرقهم ولا يجمعهم، ويفسد دينهم ودنياهم.

سابعًا: أن التأني في الأمور لاسيما العظيمة منها، والنظر في العواقب وألا يقدم الشخص إلا علىٰ بصيرة أمر في غاية الأهمية، ودليل علىٰ رجاحة العقل؛ فالنبي ﷺ لم ينكر علىٰ أسعد بن زرارة ما قال، وإقراره شرع.

ثامنًا: في هذه القصة العظيمة والحوار الجَلَل منقبة عظيمة للأنصار رضي الله عنهم، ودليل ظاهر علىٰ صدق إيمانهم بهذا النبي الكريم، حيث أبدوا استعدادهم لمفارقة الناس لأجله، وبذل أرواحهم وأموالهم رخيصة في سبيل من أرسله، وقد شهدت أفعالهم علىٰ صدق أقوالهم، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

تاسعًا: يظهر جليًّا في شروط البيعة: أن الدين الإسلامي يقوم علىٰ الاجتماع وعلىٰ التعاون علىٰ البر والتقوىٰ، وعلىٰ التكافل والتناصح، والجد والصدق والوضوح والوفاء.

* * *

الفصل الثاني
حوارات من السيرة النبوية بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة دار الهجرة ومنطلق الدعوة

أولًا: حوارات دارت بينه ﷺ وبين أحبار من أهل الكتاب:

فقد وجهوا إليه أسئلة لا يجيب عنها إلا نبي لما كان بأيديهم من التوراة، فأرادوا أن يستثبتوا من كونه هو النبي الذي بشرت به الكتب السماوية السابقة، وذكرت صفته، فمن ذلك:

١- ما رواه أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«بلغ عبد الله بن سلام ـ وكان من أحبار اليهود ـ مَقْدَمُ النبي ﷺ المدينة، فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي.

قال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء ينزع الولد لأبيه ومن أي شيء ينزع إلىٰ أخواله؟

فقال رسول الله ﷺ: «**خبرني بهن جبريل آنفًا**».

قال عبد الله: ذلك عدو اليهود من الملائكة.

فقال رسول الله ﷺ: «**أما أول أشراط الساعة: فنار تحشر الناس من المشرق إلىٰ المغرب، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها**».

قال: أشهد أنك رسول الله. ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت إن علموا

بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك.

فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله: «**أي رجل فيكم عبد الله ابن سلام؟**».

قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا وأخبرنا وابن أخبرنا.

فقال رسول الله ﷺ: «**أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟**».

قالوا: أعاذه الله من ذلك؛ فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه»(١).

٢- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

«حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ يومًا فقالوا: يا أبا القاسم، حدِّثْنا عن خِلَالٍ نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي.

قال: «**سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب عليه السلام علىٰ بنيه لئن حدثتكم شيئًا فعرفتموه لتتابِعُنّي علىٰ الإسلام. قالوا: فذلك لك**».

قال: فسلوني عما شئتم.

قالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل علىٰ نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟

وأخبرنا كيف ماء المرأة وكيف ماء الرجل كيف يكون الذكر منه؟

وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي بالنوم ومن وليه من الملائكة؟

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب أحاديث الأنبياء، باب: خلق آدم وذريته برقم (٣٣٢٩).

قال: «فعليكم عهد الله وميثاقه لئن أخبرتكم لتتابعني؟».

قال: فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق.

قال: «فأنشدكم بالذي أنزل التوراة علىٰ موسىٰ هل تعلمون أن إسرائيل -يعقوب- مرض مرضًا، وطال سقمه فنذر لله نذرًا لئن شفاه الله تعالىٰ من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه، وأحب الطعام إليه، وكان أحب الطعام إليه لُحمان الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها؟».

قالوا: نعم.

قال: «اللهم اشهد عليهم!

فأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة علىٰ موسىٰ عليه السلام هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ وأن ماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، إن علا ماء الرجل علىٰ ماء المرأة كان ذكرًا بإذن الله، وإن علا ماء المرأة علىٰ ماء الرجل كان أنثىٰ بإذن الله».

قالوا: نعم.

قال: «اللهم اشهد عليهم.

فأنشدكم بالذي أنزل التوراة علىٰ موسىٰ هل تعلمون أن هذا النبي تنام عيناه ولا ينام قلبه؟».

قالوا: نعم.

قال: «اللهم اشهد».

قالوا: وأنت الآن فحدِّثنا عن وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك.

قال: «**فإن وليي من الملائكة جبريل ولم يبعث الله نبيًّا قط إلا وهو وليه**».

قالوا: فعندها نفارقك لو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك»[(١)].

٣- عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مولى رسول الله ﷺ قال:

«كنت قائمًا عند رسول الله ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليكم يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها! فقال: لِمَ تدفعني؟!

فقلت: ألا تقول يا رسول الله، فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله.

فقال رسول الله ﷺ: «**إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي**».

فقال اليهودي: جئت أسألك.

فقال له رسول الله ﷺ: «**أينفعك شيء إن حدثتك؟**».

قال: أسمع بأذني.

فنكت رسول الله بعود معه فقال: «**سل**».

فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟

فقال رسول الله ﷺ: «**هم في الظلمة دون الجسر**».

قال: فمن أول الناس إجازة؟

قال: «**فقراء المهاجرين**».

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٧٨) وابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٧٤-١٧٦)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٢٦٦-٢٦٧).

قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟

قال رسول الله: «**زيادة كبد النون**».

قال اليهودي: فما غذاؤهم علىٰ إثرها؟

قال رسول الله ﷺ: «**يُنحر لهم ثور الجنة الذي يأكل من أطرافها**».

قال اليهودي: فما شرابهم عليه؟

قال رسول الله ﷺ: «**من عين تسمىٰ سلسبيلًا**».

قال اليهودي: صدقت.

وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان.

قال رسول الله ﷺ: «**وينفعك إن حدثتك؟**».

قال اليهودي: أسمع بأذني، ثم قال: جئت أسألك عن الولد؟

قال رسول الله ﷺ: «**ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة ذَكَّرَا، وإذا علا مني المرأة مني الرجل آنَثَا بإذن الله**».

قال اليهودي: لقد صدقت وإنك لنبي ثم انصرف فذهب»(١).

والدروس المستفادة من هذه الحوارات كثيرة منها:

أولًا: ما كان عليه نبينا ﷺ من مكارم الأخلاق التي ينبغي علىٰ أتباعه الاقتداء

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الحيض، باب: صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما برقم (٣١٥).

به في ذلك ومنها:

أ- حسن معاملته مع أعدائه، حيث لم يحمله جحدهم لنبوته، وعدم إيمانهم به أن يعرض عنهم ولا يجيب علىٰ أسألتهم.

ب- صبر النبي ﷺ علىٰ تنعت اليهود وإساءتهم الأدب معه.

ج- جلوسه ﷺ معهم، وحواره لهم وسماعه منهم.

ثانيًا: في إجابة النبي ﷺ علىٰ هذه الأسئلة دلالة واضحة علىٰ أنه مرسل من عند الله، وصادق فيما جاء به، ويتمثل ذلك في:

أ- إيمان عبد الله بن سلام به بعد أن أجابه علىٰ أسئلته التي قال عند أن سأله عنها: «لا يعلمها إلا نبي»، فلما بان له أنه نبي آمن به، وقد كان من أحبار اليهود وخيارهم كما شهد له اليهود بذلك.

ب- قول الحبر في حديث ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعد أن أجابه النبي ﷺ: «لقد صدقت وإنك لنبي».

ج- في حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالت اليهود لنبينا ﷺ: «حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي».

ثالثًا: مشروعية حوار أهل الكتاب إذا حاورهم من كان أهلًا لذلك في حدود الشرع، وهذا يدل علىٰ سماحة الإسلام.

رابعًا: أن اليهود قوم بهت كما شهد بذلك عليهم حبر من أحبارهم وهو عبد الله ابن سلام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأثبتوا هم صدق مقالته فيهم، والواجب هو الصدق والعدل مع العدو والصديق في حال الرضا والغضب كما هي تعاليم الإسلام وآدابه.

خامسًا: أن المحاور يجب أن يتحلىٰ بالصبر، وألا يشتغل بالمسائل الجانبية التي قد تعكر جو الحوار، وتقطع الطريق دون الوصول إلىٰ الهدف المنشود، فقد صبر النبي ﷺ علىٰ تعنت اليهود، وعلىٰ إساءتهم الأدب معه، ولما قال اليهودي الحبر: «إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله»، لم يغضب النبي ﷺ لذلك، ولم يمتنع من سماع ما عند ذلك الحبر والدخول في حوار معه.

سادسًا: أن داعية الحق والهدىٰ إن لمس تعنتًا من المحاور، وظهر منه عدم رغبة في الانقياد للحق إن بان له، ينبغي ألا ييأس ويغلق باب الحوار لأجل ذلك، فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، ولعله إن لم ينتفع المحاور انتفع غيره من الحاضرين، أو السامعين للحوار.

سابعًا: أنه يجوز إجراء حوار مع المتعنت في أسئلته التي يريد بها اختبار من حاوره.

ثامنًا: أن الشخص قد يجحد الحق بعد معرفته، ويُحرم الهداية بعد الوقوف علىٰ طريقها، وصدق الله إذ يقول ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾.

ويقول: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾.

تاسعًا: أن اليهود أهل كتمان للحق وتحريف له، وإن كانوا من أعرف الناس به، فهم يعلمون أن جبريل ولي جميع الأنبياء، ومع ذلك جحدوا.

وقد حكىٰ ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره الإجماع علىٰ أن سبب نزول قول الله تعالىٰ: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٩٧ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ

وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٩٧- ٩٨] ما قاله اليهود للنبي ﷺ لما قال لهم: إن وليه جبريل.

وقد أخبر الله في عدة آيات من كتابه الكريم أن من صفات اليهود كتمان الحق وهم يعلمون، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران: ٧١].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٤٠ - ٤٢].

ومما يشهد لهذا ويبينه ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «أُتي رسول الله ﷺ بيهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله حتىٰ جاء اليهود فقال: «**ما تجدون في التوراة علىٰ من زنىٰ؟**».

قالوا: نسود وجههما ونحملهما، ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما.

قال: «**فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين**».

فجاءوا بها فقرءوها حتىٰ إذا مروا بآية الرجم وضع الفتىٰ الذي يقرأ يده علىٰ آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله: مُره فليرفع يده، فرفعها فإذا آية الرجم. فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب المناقب، باب: قول الله تعالىٰ «يعرفونه كما يعرفون أبناءهم» برقم (٣٦٣٥)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الحدود، باب: رجم اليهود،أهل الذمة في الزنا برقم (١٦٩٩) واللفظ له.

٤- عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«مُرَّ علىٰ النبي ﷺ بيهودي محممًا مجلودًا، فدعاهم فقال: «**هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟**».

قالوا: نعم.

فدعا رجلًا من علمائهم فقال: «**أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة علىٰ موسىٰ أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟**».

قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع علىٰ شيء نقيمه علىٰ الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم.

فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه، فأمر به فرجم، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ ﴾ [المائدة: ٤١].

يقول: ائتوا محمدًا فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤﴾ [المائدة: ٤٤]،﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٥﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤٧﴾ [المائدة: ٤٧]»(١).

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الحدود، باب: رجم اليهود، أهل الذمة في الزنا برقم (١٧٠٠).

قلت: وفي هذا الاستطراد حوار فحصل المقصود ووافق الموضوع والحمد لله.

ثانيًا:حوار النبي ﷺ مع بعض النصارى -حواره مع هرقل ملك النصارى وعالمهم-:

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجارًا بالشام في المدة التي كان النبي ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيليا فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمان فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟

فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسبًا.

فقال: أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه؛ فوالله لولا الحياء أن يأثروا عليَّ كذبًا لكذبت عنه.

ثم كان أول ما سألني عنه أنه قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قبله قط؟ قلت: لا.

قال: فهل كان من أهله ملك؟ قلت: لا.

قال: فهل أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟ فقلت: لا، ونحن منه في مدَّة لا ندري ما هو فاعل فيها.

قال: ولم تمكنني كلمة أدخل فيه شيئًا غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟

قلت: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه.

قال: ماذا يأمركم؟ قلت: اعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والصلة.

فقال لترجمانه: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتَسِي بقولٍ قيل قبله.

وسألتك: هل كان من آبائه ملك فذكرت أن لا. قلت: لو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا. فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب علىٰ الناس ويكذب علىٰ الله.

وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أنَّ ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل.

وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتىٰ يتم.

وسألتك: أيرتد أحدٌ سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشته القلوب.

وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك: بم يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف؛ فإن كان كما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلىٰ عظيم بصرىٰ فدفعه إلىٰ هرقل فقرأه فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلىٰ هرقل عظيم الروم سلام علىٰ من اتبع الهدىٰ، أمَّا بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأُخرجنا.

فقلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أَمِرَ أَمرُ ابن أبي كَبْشة إنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقنًا أنه سيظهر حتىٰ أدخل الله عليَّ الإسلام.

وكان ابن الناطور - صاحب إيليا وهرقل - سُقفًا علىٰ نصارىٰ الشام يحدث أن هرقل حين قدم إيليا أصبح خبيث النفس فقال بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك.

قال ابن الناطور: وكان هرقل حزَّاءً ينظر في النجوم فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر فمن يختتن من هذه الأمة؟

قالوا: ليس يختتن إلا اليهود فلا يهمنك واكتب إلىٰ مدائن ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود.

فبينما هم علىٰ أمرهم أتي هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله فلما استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا؟

فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن. وسأله عن العرب فقال: هم يختتنون.

فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر، ثم كتب هرقل إلىٰ صاحبٍ له برومِيَّة وكان نظيره في العلم.

وسار هرقل إلىٰ حمص فلم يَرُمْ حمص حتىٰ أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل علىٰ خروج النبي ﷺ، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم اطلع فقال:

يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟

فحاصوا حيصة حمر الوحش إلىٰ الأبواب فوجدوها قد أغلقت، فلما رأىٰ هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردُّوهم علي.

وقال: إني قلت مقالتي آنفًا أختبر بها شدَّتكم علىٰ دينكم فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه فكان ذلك آخر شأن هرقل»(١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«لما أراد رسول الله ﷺ أن يكتب إلىٰ الروم قالوا: إنهم لا يقرءون كتابًا إلا

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب بدء الوحي برقم٧، ومسلم في «صحيحه» كتاب الجهاد والسير، باب: كتاب النبي ﷺ إلىٰ هرقل يدعوه إلىٰ الإسلام برقم (١٧٧٣)، واللفظ للبخاري.

مختومًا، فاتخذ رسول الله خاتمًا من فضة كأني أنظر إلىٰ بياضه في يد رسول الله ﷺ نقشه: محمد رسول الله»(١).

وفي رواية لمسلم:

«أن النبي ﷺ أراد أن يكتب إلىٰ كسرىٰ وقيصر والنجاشي فقيل: إنهم لا يقبلون كتابًا إلا بخاتم، فصاغ رسول الله خاتمًا حَلْقَةً فضة ونقش فيه: محمد رسول الله».

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار التاريخي العظيم الذي كان بالمكاتبة، وما يتصل به من حوار هرقل مع أبي سفيان رضي الله عنه ما يلي:

أولًا: مشروعية موافقة الأعداء في وسائل الحوار وشروطه ما لم تكن مصادمة لديننا، فقد كان من عادة العرب في مكاتبة بعضهم لبعض ألا يختم الكتاب، فأراد النبي ﷺ أن يكتب إلىٰ ملك الروم والفرس والحبشة دون أن يختم الكتاب علىٰ وفق عادة العرب، فلما قيل له إن عادة هؤلاء الملوك وعُرْفهم يخالف عادة العرب وعرفهم فلا يقرءون كتابًا إلا أن يكون مختومًا؛ اتخذ ﷺ خاتمًا وجعل نقشه: محمد رسول الله.

ثانيًا: أنه متىٰ أمكن أن نجعل تلك العادات وسيلة للتعبير عن عقيدتنا وشريعتنا تعيَّن ذلك؛ لأن المقصود من أخذ تلك العادات التي لا تصادم عقيدتنا إيصال دعوة الحق إليهم، ودعوتهم إلىٰ هذا الدين العظيم الذي لا نجاة للبشرية إلا باعتناقه،

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب العلم، باب: ما يذكر في المناولة وكتاب أهل العلم بالعلم إلىٰ البلدان برقم (٦٥) ومسلم في «صحيحه» كتاب اللباس والزينة، باب: في اتخاذ النبي ﷺ خاتمًا لما أراد أن يكتب إلىٰ العجم برقم (٢٠٩٢).

ويدخل في تلك العادات الأختام وطوابع البريد والشعارات والرموز ونحو ذلك.

ثالثًا: مرونة هذا النبي الكريم ودينه القويم، وبُعد نظره وسعة أفقه.

رابعًا: أن نبينا ﷺ بعث إلىٰ الناس كافة، عربهم وعجمهم، إلىٰ الأميين وأهل الكتاب وغيرهم، ومكاتبته ﷺ لملوك الأرض بما فيهم النصارىٰ خير شاهد علىٰ ذلك، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سبأ: ٢٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾.

وقال ﷺ: «**وكان النبي يُبعث إلىٰ قومه خاصة وبعثت إلىٰ الناس عامة**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (١/ ١٦٢-١٦٣): «من المعلوم بالضرورة لكل من علم أحواله ﷺ بالنقل المتواتر الذي هو أعظم تواترًا مما ينقل عن موسىٰ وعيسىٰ وغيرهما، وبالقرآن المتواتر عنه، وسنته المتواترة عنه وسنة خلفائه الراشدين من بعده: أنه ﷺ ذكر أنه أرسل إلىٰ أهل الكتاب اليهود والنصارىٰ، كما ذكر أنه أرسل إلىٰ الأميين، بل ذكر أنه أرسل إلىٰ جميع بني آدم عربهم وعجمهم من الروم والفرس والترك والهند والبربر والحبشة وسائر الأمم، بل إنه أرسل إلىٰ الثقلين: الجن والإنس جميعًا.

وهذا كلّه من الأمور الظاهرة المتواترة عنه التي اتفق علىٰ نقلها عنه أصحابه مع كثرتهم وتفرق ديارهم وأحوالهم، وقد صحبه عشرات ألوف لا يحصي عددهم

علىٰ الحقيقة إلا الله تعالىٰ، ونقل ذلك عنه التابعون وهم أضعاف الصحابة عددًا، ثم ذلك منقولٌ قرنًا بعد قرن إلىٰ زماننا مع كثرة المسلمين وانتشارهم في مشارق الأرض ومغاربها». اهـ.

فإن قال قائل من أهل الكتاب أو غيرهم: أليس في القرآن الذي جاء به رسولكم عن الله كما تقولون: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]. وهذه الآية تدل علىٰ أن غير العرب غير مخاطب به؟

وكذلك الآية الأخرىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤].

والآية الثالثة: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: ٦]. فهاتان الآيتان تدلان علىٰ أن بعثة هذا النبي خاصة بالعرب.

فجوابنا علىٰ ذلك:

فقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ لا تدل علىٰ أن غير العرب غير مخاطب به، وذلك لوجوه:

١- ما سبق ذكره من الأدلة علىٰ عموم بعثته إلىٰ العرب والعجم.

٢- أن الحكمة من إنزال القرآن باللغة العربية: «أن الناس متفقون علىٰ أن لغة العرب من أفصح لغات الآدميين وأوضحها، ومتفقون علىٰ أن القرآن في أعلىٰ درجات البيان والبلاغة والفصاحة.

وفي القرآن من الدلالات الكثيرة علىٰ مقصود الرسول التي يذكر فيه أن الله تعالىٰ أرسله إلىٰ أهل الكتاب وغيرهم ما لا يحصىٰ إلا بكلفة، ثم مع ذلك من النُّقول المتواترة عن سيرته ﷺ في دعائه لأهل الكتاب وأمره لهم بالإيمان به وجهاده لهم إذ كفروا به، ما لا يخفىٰ علىٰ من له أدنىٰ خبرة بسيرته ﷺ، وهذا أمر قد امتلأ العالم به وسمعه القاصي والداني.

فإذا كان الناس المؤمن به وغير المؤمن به يعلمون أنه كان يقول: إنه رسول الله إلىٰ أهل الكتاب وغيرهم، وأن ظهور مقصوده بذلك مما يعلمه بالاضطرار الخاصة والعامة، ثم شرعوا يظنون أنه كان يقول: إني لم أبعث إلا إلىٰ العرب واستمر علىٰ ذلك حتىٰ مات، دل علىٰ فساد نظرهم وعقلهم أو علىٰ عنادهم ومكابرتهم»(١).

«فنزول القرآن باللسان العربي لأنه أكمل الألسنة وأحسنها بيانًا للمعاني، فنزوله به أعظم نعمة علىٰ الخلق من نزوله بغيره، وهو إنما خوطب به العرب أولًا ليفهموه، ثم من يعلم لغتهم يفهمه كما فهموه، ومن لم يعلم لغتهم ترجمه له من عرف لغتهم، وكان إقامة الحجة به علىٰ العرب أولًا والإنعام به عليهم أولًا لمعرفتهم بمعانيه قبل أن يعرفه غيرهم»(٢).

٣- أن التوراة إنما أنزلت باللسان العبري وحده وموسىٰ عليه السلام لم يكن يتكلم إلا بالعبرية، وكذلك المسيح لم يكن يتكلم بالتوراة والإنجيل وغيرهما إلا بالعبرية.

وكذلك سائر الكتب لا ينزلها الله إلا بلسان واحد بلسان الذي أنزلت عليه ولسان قومه الذين يخاطبهم أولًا ثم بعد ذلك تبلَّغ الكتب، وكلام الأنبياء لسائر الأمم إما بأن يترجم لمن لا يعرف لسان ذلك الكتاب، وإما أن يتعلم الناس لسان ذلك الكتاب فيعرفون معانيه.

وإما بأن يبين للمرسل إليه معاني ما أرسل به الرسول إليه بلسانه، وإن لم يعرف سائر ما أرسل به.

وقد أخبر الله في القرآن ما قالته الرسل لقومهم وما قالوا لهم وأكثرهم لم

(١) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (١/ ٣٧١ – ٣٧٢).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٦).

يكونوا عربًا، وأنزله الله باللسان العربي، وحينئذٍ شرط التكليف تَمَكُّن العباد من فهم ما أرسل به الرسول إليهم، وذلك يحصل بأن يرسل بلسان يعرف به مراده.

ثم جميع الناس متمكنون من معرفة مراده بأن يعرفوا ذلك اللسان أو يعرفوا معنىٰ الكتاب بترجمة من يترجم معناه وهذا مقدور للعباد.

ومن لم يمكنه فهم كلام الرسول إلا بتعلم اللغة التي أرسل بها وجب عليه ذلك»[١].

٤- أن المسيح عليه السلام كان لسانه عبريًا، وكذلك ألسنة الحواريين الذين اتبعوه أولًا ، ثم إنه أرسلهم إلىٰ الأمم يخاطبونهم ويترجمون لهم ما قاله المسيح عليه السلام.

فإن قالوا: إن رسل المسيح حولت ألسنتهم إلىٰ ألسنة من أرسل إليهم.

قيل: هذا منقول في رسل المسيح وفي رسل محمد صلى الله عليه وسلم الذين أرسلهم إلىٰ الأمم، ولا ريب أن رُسِلَ رُسِلِ الله كرسل محمد صلى الله عليه وسلم والمسيح عليه السلام إلىٰ الأمم لابد أن يعرفوا لسان من أرسله الرسول إليهم، أو أن يكون عند أولئك من يفهم لسانهم ولسان الرسول ليترجم لهم، فإذا لم يكن عند من أرسل المسيح إليهم من يعرف بالعربية فلابد أن يكون رسولهم ينطق بلسانهم.

وكذلك رسل النبي صلى الله عليه وسلم الذين أرسلهم إلىٰ الأمم؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية أرسل رسله إلىٰ أهل الأرض، فبعث إلىٰ ملوك العرب باليمن والحجاز والشام والعراق، وأرسل إلىٰ ملوك النصارىٰ بالشام ومصر قبطهم وررومهم وعربهم وغيرهم، وأرسل إلىٰ الفرس المجوس ملوك العراق وخراسان[٢].

(١) المصدر السابق (٢/ ٥٢ – ٥٣).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٥٩ – ٦٠).

٥- أن النصارىٰ فيهم عرب كثير من زمن النبي ﷺ، وكل من يفهم اللسان العربي فإنه يمكن فهمه للقرآن وإن كان أصل لسانه فارسيًّا أو روميًّا أو تركيًّا أو هنديًّا أو قبطيًّا(١).

٦- أنه ليس فهم كل آية من القرآن فرضًا علىٰ كل مسلم، وإنما يجب علىٰ المسلم أن يعلم ما أمره الله به وما نهاه عنه بأي عبارة كانت، وهذا أمكن لجميع الأمم؛ ولهذا دخل في الإسلام جميع أصناف العجم من الفرس والترك والهند والصقالبة والبربر، ومن هؤلاء من يعلم اللسان العربي، ومنهم من يعلم ما فرضه الله عليه بالترجمة، وترجمة تفسير القرآن جائزة باتفاق المسلمين(٢).

وأما استدلالهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ علىٰ أن بعثته ﷺ خاصة إلىٰ العرب فلا يسلَّم لهم بذلك، فإن هذه النذارة الخاصة لا تنافي النذارة العامة.

«فإن الله تعالىٰ بعث محمدًا ﷺ كما بعث المسيح عليه السلام، وإن كانت رسالته أكمل وأشمل فأمر بتبليغ الأقرب منه مكانًا ونسبًا ثم بتبليغ طائفة بعد طائفة حتىٰ تبلغ النذارة إلىٰ جميع أهل الأرض كما قال تعالىٰ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩](٣).

فقد جاء في «صحيح مسلم» أن أبا هريرة رضي الله عنه قال:

«لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا فعمَّ وخصَّ فقال: يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، يا

(١) المصدر السابق (٢/ ٦٦).
(٢) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٢/ ٦٧).
(٣) المصدر السابق (١/ ٣٨٢ – ٣٨٣).

بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد، أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئًا غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها.

ثم أمره الله أن يدعو سائر العرب قبيلةَ قبيلةً، وكانت العرب لم تزل تحج البيت من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام فكان ﷺ يأتيهم في منازلهم بمنىٰ وعكاظ ومِجَنَّة وذي المجاز فلا يجد أحدًا إلا دعاه إلىٰ الله ويقول: «**يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعًا، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن تخلعوا ما يُعبد من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني حتىٰ أبين عن الله ما بعثني به.**

يا أيها الناس، إن قريشًا منعوني أن أبلغ كلام ربي، فمن يمنعني أن أبلغ كلام ربي، ألا رجل يحملني إلىٰ قومه، فإن قريشًا منعوني أن أبلغ كلام ربي.

يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتذل لكم بها العجم»(١).

ثم لما استقر ﷺ في المدينة وتمكن فيها وأمن؛ كاتب ملوك أهل الأرض يدعوهم إلىٰ الدخول في دينه امتثالًا لأمر الله له بذلك.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله(٢): «وقد جرت لي مناظرة بمصر مع أكبر من يشير إليه اليهود بالعلم والرياسة فقلت في أثناء الكلام:

أنتم بتكذيبكم لمحمد ﷺ قد شتمتم الله أعظم شتيمة.

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣٨٨ – ٣٨٩).

(٢) «هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ» (ص٨٣ – ٨٤).

فعجب من ذلك وقال: مثلك يقول هذا الكلام؟

فقلت له: اسمع الآن تقريره.

إذا قلتم إنَّ محمدًا ملك ظالم قهر الناس بالسيف وليس برسول من عند الله وقد أقام ثلاثًا وعشرين سنة يدَّعي أنه رسول الله أرسله للخلق كافة، ويقول: إنَّه أمرني بكذا ونهاني عن كذا، وأوحىٰ لي بكذا ولم يكن من ذلك شيء، ويقول: إنَّه أباح لي سبي ذراري من كذبني وخالفني ونساءهم، وغنيمة أموالهم وقتل رجالهم، ولم يكن من ذلك شي وهو يدأب في تغيير دين الأنبياء ومعاداة أممهم، ونسخ شرائعهم.

فلا يخلو أن تقول: إن الله كان يطلع علىٰ ذلك ويشاهده ويعلمه، أو تقول: إنه خفي عنه ولم يعلم به.

فإن قلتم: لم يعلم به نسبتموه إلىٰ أقبح الجهل وكان من علم ذلك أعلم منه.

وإن قلتم: بل كان ذلك كله بعلمه ومشاهدته وإطلاعه عليه، فلا يخلو إمَّا أن يكون قادرًا علىٰ تغييره والأخذ علىٰ يديه ومنعه من ذلك أو لا.

فإن لم يكن قادرًا فقد نسبتموه إلىٰ أقبح العجز المنافي للربوبية.

وإن كان قادرًا وهو مع ذلك يُعِزُّه وينصره ويؤيده ويعليه ويعلي كلمته ويجيب دعاءه ويمكِّنه من أعدائه ويظهر علىٰ يديه من أنواع المعجزات والكرامات ما يزيد علىٰ الألف ولا يقصده أحدًا بسوء إلا أظفره به ولا يدعو بدعوة إلا استجابها له، فهذا من أعظم الظلم والسفه الذي لا يليق نسبته إلىٰ آحاد العقلاء فضلًا عن رب الأرض والسماء، فكيف وهو يشهد له بإقراره علىٰ دعوته وبتأييده وبكلامه وهذا عندكم شهادة زور وكذب.

فلما سمع ذلك قال: معاذ الله أن يفعل الله هذا بكاذب مفترٍ، بل هو نبي صادق

من اتبعه أفلح وسعد.

قلت: فما لك لا تدخل في دينه؟

قال: إنما بعث إلىٰ الأميين الذين لا كتاب لهم، وأما نحن فعندنا كتاب نتبعه.

قلت له: غُلِبتَ كل الغَلَب فإنه قد علم الخاص والعام أنه أخبر أنه رسول الله إلىٰ جميع الخلق وأن من لم يتبعه فهو كافر من أهل الجحيم، وقاتل اليهود والنصارىٰ وهم أهل كتاب وإذا صحت رسالته وجب تصديقه في كل ما أخبر به.

فأمسك ولم يُحِرْ جوابًا». اهـ.

خامسًا: من الدروس المستفادة من هذا الحوار العظيم:

أنه ينبغي لداعية الحق والهدىٰ أثناء حواره لغيره أن ينزل الناس منازلهم، وأن يخاطبهم بحسب واقعهم ومكانتهم، وأن يتجنب احتقارهم وازدراءهم، أو مخاطبتهم بما ينفرهم، فهذا نبينا الكريم ﷺ يخاطب هرقل بقوله: «**إلىٰ هرقل عظيم الروم**».

سادسًا: أنه ينبغي للمحاوِر أن يقرن حواره بالترغيب والترهيب مع الحكمة في ذلك، ومراعاة اختلاف منازل وأحوال المخاطبين؛ فقد يصلح لأناس من الترهيب والترغيب ما لا يصلح لغيرهم، فقد قال ﷺ لهرقل في كتابه إليه: «**أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإلا فإن عليك إثم الأريسيين**».

سابعًا: أنه ينبغي للمحاور أن يعرِّف نفسه لمن يحاوره بما يتميز به عن غيره، لاسيما إذا كان ذلك عن طريق المكاتبة؛ ففي كتاب النبي ﷺ إلىٰ هرقل: «**من محمد رسول الله إلىٰ هرقل عظيم الروم**».

ثامنًا: أن الله بعث محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، ومقصود بعثته تعبيد الناس لربهم، فلم يبعثه ليأخذ أموالهم، ولا ليسفك دماءهم، ولا ليهتك أعراضهم، ولا لينازعهم ملكهم

ومكانتهم في قومهم، وهذا واضح في رسالة نبينا ﷺ لهرقل، وفي سيرته العطرة، فقد خاطب هرقل بقوله: عظيم الروم، ثم بين له أنه إن أسلم سلم في دينه ودنياه، حيث قال له: «**أسلم تسلم**»، ثم بين له ما له من الأجر والثواب إن هو أسلم وأن الله سيؤتيه الأجر مرتين.

ثم في سيرته ﷺ مع من أسلم من عظماء العرب والعجم ما يدل علىٰ هذا، فالنجاشي ملك الحبشة لما أسلم لم يسلبه النبي ﷺ ملكه، ولا طلب منه التخلي عنه، ولما أسلم أهل المدينة بقي زعماء الأوس والخزرج في مكانهم، وزادهم الله عزًّا إلىٰ عزهم، وكان الوفد يأتي وعليهم عريفهم، ومعهم خطيبهم وشاعرهم، ولا يغير النبي ﷺ من ذلك شيئًا، إلا أن يرىٰ مخالفة للشرع، أو ضررًا علىٰ الخلق، وكان الأغنياء يسلمون ولم يسلبهم أموالهم، ويشترط عليهم التخلي عنها، وهذه سيرة النبي ﷺ وسيرة خلفائه الراشدين والتابعين لهم بإحسان، قد سارت في الأرض سير الليل والنهار، وامتلأت الأرض قسطًا وعدلًا بعدما امتلأت ظلمًا وجورًا، وسعد بها العرب والعجم.

تاسعًا: التركيز في حوار غير المسلمين من أهل الكتاب وغيرهم علىٰ قضية التوحيد، وأن العبادة حقٌّ محضٌ لله، لا يجوز صرفها لنبي مرسل أو ملك مقرب، فضلًا عن غيرهم، وأن الجميع عبيد لله الداعي والمدعو، وهذا هو دين الأنبياء جميعًا.

وذلك واضح في كتاب النبي ﷺ إلىٰ هرقل، حيث كتب إليه قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره (١/ ٤٩٤): «هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ والكلمة تطلق على الجملة المفيدة، كما قال تعالى هنا، ثم وصفها بقوله: ﴿سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: عدل ونَصَف، نستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسرها بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ لا وثنًا ولا صليبًا ولا صنمًا ولا طاغوتًا ولا نارًا ولا شيئًا، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له وهذه دعوة جميع الرسل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾». اهـ.

وقال الإمام القرطبي في «تفسيره» (٤/ ١٠٦) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: «أي: لا نتبعه في تحليل شيء أو تحريمه إلا فيما حلله الله تعالى، وهو نظير قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ معناه: أنهم أنزلوه منزلة ربهم في قبول تحريمهم وتحليلهم لما لم يحرمه الله ولم يحله الله». اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: أعرضوا عما دعوا إليه ﴿فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: متصفون بدين الإسلام، منقادون لأحكامه معترفون بما لله علينا في ذلك من المنن والإنعام، غير متخذين أحدًا ربًّا لا عيسى ولا عزيرًا ولا الملائكة، لأنهم بشر مثلنا مُحْدث كحدوثنا، ولا نقبل من الرهبان شيئًا بتحريمهم علينا ما لم يحرمه الله علينا، فنكون قد اتخذناهم أربابًا». اهـ.

عاشرًا: أن محمدًا ﷺ هو النبي الذي بشّر به عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحفظ

علماء النصارىٰ من علاماته؛ حيث كانت أوصافه وأوصاف أمته ومخرجه موافقة لما في أيديهم، وفي حديث هرقل السابق أدلة كثيرة علىٰ هذا.

ومنها: أنه قال لأبي سفيان بعد ما سأله عن بعض أوصاف نبينا ﷺ: «إن كان كما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه».

ثم لما جمع عظماء الروم قال لهم: «هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي».

وقد كان كل ما أخبر به أبو سفيان هرقل جزءًا من الحقيقة، وبعض أوصاف هذا النبي الكريم، وقد ملك بلاد كسرىٰ وقيصر وملك موضع قدمي هرقل، فصلوات الله عليه وسلامه عدد قطر الأمطار وحبات الرمال وورق الأشجار ما بقي الليل والنهار.

حادي عشر: أن نبينا ﷺ جمع في بعثته بين الدعاء إلىٰ القيام بحق الله الذي هو إفراده بالعبادة دون ما سواه، وبين القيام بحقوق الخلق من البر والصلة، ومعاملتهم بمكارم الأخلاق من صدق وغيره.

فدين الإسلام الذي بعث به محمد ﷺ يحرم الإشراك بالله بصرف شيء من العبادة لغيره، أو أن يجعل لله صاحبة أو ولدًا أو ندًّا، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١-٤].

كما أن الدين الذي بُعث به محمد ﷺ يحرم الظلم والبغي علىٰ الدماء أو الأموال أو الأعراض، ويحرم عقوق الوالدين، وقطيعة الرحم، والكذب والغدر

والخيانة، وسوء الجوار، والزنا والسرقة والخمر، وما أشبه ذلك حفاظًا علىٰ الكليات الخمس التي جاءت كل الشرائع بالحفاظ عليها، وهي: الدين والنفس والمال والعرض والعقل.

ثالثًا:حوار النبي ﷺ مع كفار قريش وإبرامه معهم صلح الحديبية الشهير:

عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: «خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية، حتىٰ إذا كان ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «**إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين**»، فوالله ما شعر بهم خالد، حتىٰ إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيرًا لقريش، وسار النبي ﷺ حتىٰ إذا كان بالثنيَّة التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حَلْ حَلْ(١)، فألحَّت فقالوا: خلأت القصواء(٢).

فقال النبي ﷺ: «**ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل**»(٣).

ثم قال: «**والذي نفسي بيده لا يسألوني خطَّة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**».

ثم زجرها فوثبت فعدل عنهم حتىٰ نزل بأقصىٰ الحديبية علىٰ ثمدٍ قليل الماء يتربَّضه الناس تربُّضًا(٤)، فلم يلبثه الناس حتىٰ نزحوه، وشُكِي إلىٰ رسول الله ﷺ العطش فانتزع سهمًا من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرِّي حتىٰ صدروا عنه.

---

(١) كلمة تقال للناقة إذا تركت السير.
(٢) خلأت؛ أي: بركت من غير علة، والقصواء: اسم ناقة النبي ﷺ.
(٣) أي: حبسها الله عن دخول مكة كما حبس الفيل عن دخولها.
(٤) أي: يأخذه الناس قليلًا قليلًا.

فبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيل بن ورقاء الخزاعي في نفرٍ من قومه خزاعة، وكانوا عَيْبَةَ نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال للنبي ﷺ: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية ومعهم العُوذ المطافيل(١)، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت.

فقال رسول الله ﷺ: «**إنا لم نجئ لقتال أحدٍ ولكنا جئنا معتمرين، وإنَّ قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرَّت بهم، فإن شاءوا مادَدْتهم مدَّة ويخلُّوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل الناس فعلوا، وإلا فقد جمُّوا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم عن أمري هذا حتىٰ تنفرد سالفتي، ولينفذنَّ الله أمره**».

فقال بُديل: سأبلغهم ما تقول.

فانطلق حتىٰ أتىٰ قريشًا قال: إنَّا جئنا من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولًا، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا.

فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء.

وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول.

قال سمعته يقول: كذا وكذا؛ فحدثهم بما قال النبي ﷺ.

فقام عروة بن مسعود فقال: أيْ قومُ ألستم بالوالد؟ قالوا: بلىٰ. قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلىٰ. قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أنِّي استنفرت أهل عكاظ فلمَّا بلَّحوا عليَّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلىٰ.

---

(١) العوذ: هي الناقة ذات اللبن، والمطافيل الأمهات اللاتي معها أطفالها، يريد: أنهم خرجوا معهم بذوات الألبان من الإبل ليتزودوا بألبانها ولا يرجعوا حتىٰ يمنعوه قاله. «الحافظ في الفتح» (٥/ ٣٩٨).

قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطَّة رشدٍ فاقبلوها ودعوني آته. قالوا: ائته.

فأتاه فجعل يكلِّم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ نحوًا من قوله لبديل.

فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرأيت إن استأصلت أمر قومك هل سمعت بأحدٍ من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرىٰ فإني لا أرىٰ وجوهًا، وإنّي لأرىٰ أشوابًا من الناس خليقًا أن يفرُّوا ويدعوك.

فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات(١) أنحن نفرُّ عنه وندعه؟

فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر.

قال: أما والذي نفسي بيده لولا يدٌ كانت لك عندي لم أَجْزِك بها لأجبتك.

وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما تكلم كلمة أخذ عروة بلحية النبي ﷺ، والمغيرة بن شعبة قائم علىٰ رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوىٰ عروة بيده إلىٰ لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال له: أخِّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟

قال: «**المغيرة بن شعبة**». فقال: أي غُدَرُ، ألست أسعىٰ في غدرتك؟!

وكان المغيرة صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبي ﷺ: «**أمَّا الإسلام، فأقبل وأما المال فلست منه في شيء**».

---

(١) البظر: قطعة تبقىٰ بعد الختان في فرج المرأة، واللات: اسم أحد الأصنام التي كانت قريش وثقيف يعبدونها، وكانت عادة العرب الشتم بذلك لكن بلفظ الأم فأراد أبو بكر المبالغة في سب عروة بإقامة مَن كان يعبده مقام أمه، وحمله علىٰ ذلك ما أغضبه به من نسبة المسلمين إلىٰ الفرار. قاله الحافظ في «الفتح» (٥/ ٤٠١).

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه، قال: فوالله ما تنخَّم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون علىٰ وَضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده وما يحدُّون إليه النظر تعظيمًا له.

فرجع عروة إلىٰ أصحابه فقال: أي قوم، والله لقد وفدت علىٰ الملوك ووفدت علىٰ قيصر وكسرىٰ والنجاشي، والله إنْ رأيتُ مليكًا قطُّ يعظِّمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ محمدًا، والله إنْ يتنخمْ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له، وإنه قد عرض عليكم خطَّة رشد فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتيه. فقالوا: ائته.

فلما أشرف علىٰ النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ: «**هذا فلان وهو من قومٍ يعظمون البُدْن فابعثوها له**»، فبعثت له فاستقبله الناس يلبون، فلما رأىٰ ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت، فلما رجع إلىٰ أصحابه قال: رأيت البدن قد قلِّدت وأُشعرت فما أرىٰ أن يُصَدُّوا عن البيت.

فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص فقال: دعوني آته.فقالوا: ائته.

فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «**هذا مكرز، وهو رجل فاجر**»، فجعل يكلِّم النبي ﷺ فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو فلما جاء قال النبي ﷺ: «**قد سهل من أمركم**».

فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات أكتب بيننا وبينكم كتابًا فدعا النبي ﷺ الكاتب فقال النبي ﷺ: «**بسم الله الرحمن الرحيم**».

فقال: سهيل: أمَّا الرحمن فوالله ما أدري ما هي، ولكن اكتب: باسمك اللهم كما كنت تكتب؛ فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي ﷺ: «**اكتب باسمك اللهم**».

ثم قال: «**هذا ما قاضىٰ عليه محمد رسول الله**».

فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال النبي ﷺ: «**والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله**».

فقال له النبي ﷺ: «**علىٰ أن تخلُّوا بيننا وبين البيت فنطوف به**».

فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أننا أخذنا ضُغطة، ولكن ذلك من العام المقبل فكتب، فقال سهيل: وعلىٰ ألا يأتيك منا رجل وإن كان علىٰ دينك إلا رددته إلينا.

قال المسلمون: سبحان الله! كيف يردُّ إلىٰ المشركين وقد جاء مسلمًا؟!

فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل ابنُ سهيل بن عمرو يرسف في القيود وقد خرج من أسفل مكة حتىٰ رمىٰ بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليَّ.

فقال النبي ﷺ: «**إنا لم نقض الكتاب بعد**».

قال: فوالله إذن لم أصالحك علىٰ شيء أبدًا.

قال النبي ﷺ: «**فأجزه لي**».

قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: «**بلىٰ فافعل**».

قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بل قد أجزناه لك.

قال أبو جندل: أي معشر المسلمين أُرَدُّ إلىٰ المشركين وقد جئت مسلمًا؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذِّب عذابًا شديدًا في الله.

قال: فقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألست بنبي الله حقًّا؟

قال: «**بلىٰ**».

قلت: ألسنا علىٰ الحق وعدونا علىٰ الباطل؟

قال: «**بلىٰ**».

قلت: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذًا؟

قال: «**إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري**».

قلت: أوليس كنت تحدثنا أنَّا سنأتي البيت فنطوف به؟

قال: «**بلىٰ**».

قال: «**فأخبرتك أنَّك تأتيه العام؟**».

قال: قلت: لا.

قال: «**فإنك آتيه ومطوِّف به**».

قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقًّا؟

قال: «**بلىٰ**».

قلت: ألسنا علىٰ الحق وعدونا علىٰ الباطل؟

قال: «**بلىٰ**».

قلت: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذن؟

قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه وهو ناصره؛ فاستمسك بغرزه فوالله إنه علىٰ الحق.

قلت: أليس كان يحدثنا أنَّا سنأتي البيت ونطوف به؟

قال: «**بلىٰ**».

أفأخبرك أنك تأتيه العام؟

قلت: لا.

قال: فإنك آتيه ومطوِّف به.

قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**قوموا فانحروا ثم احلقوا**».

قال: فوالله ما قام منهم رجل واحد حتىٰ قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل علىٰ أم سلمة زوج النبي ﷺ فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتىٰ تنحر بُدنك وتدعو حالقك فيحلقك.

فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتىٰ فعل ذلك: فنحر بدنه ودعا حالقه فحلقه.

فلما رأوا ذلك قاموا وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتىٰ كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا.

ثم جاء نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ

مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٍ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠﴾ [الممتحنة: ١٠].

فطلَّق عمر يومئذٍ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرىٰ صفوان بن أمية.

ثم رجع النبي ﷺ إلىٰ المدينة، فجاء أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهدَ الذي جعلت لنا! فدفعه إلىٰ الرجلين فخرجا به حتىٰ بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرىٰ سيفك يا فلان جيدًا؛ فاستله الآخر فقال: أجل إنه لجيد لقد جربت به ثم جربت به ثم جربت به.

فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه.

فأمكنه منه فضربه حتىٰ برد، وفرَّ الآخر حتىٰ أتىٰ المدينة فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله حين رآه يعدو: «**لقد رأىٰ هذا ذعرًا!**».

فلما انتهىٰ إلىٰ النبي ﷺ قال: قتل صاحبي وإني لمقتول.

فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله، قد والله وفَّىٰ الله ذمتك قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم.

قال النبي ﷺ: «**ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحدٌ!**»، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتىٰ أتىٰ سيف البحر.

قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من

قريش رجل أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتىٰ اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بِعيرٍ خرجت لقريش إلىٰ الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم.

فأرسلت قريش إلىٰ النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح: ٢٤-٢٦].

وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله، ولم يقروا بـ: بسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت»(١).

ومن أبرز الدروس المستفادة من هذا الحدث التاريخي الشهير ما يلي:

أولًا: جواز إبرام الصلح والعهد مع الأعداء، سواء كان الطالب له ابتداءً المسلمون أو أعداؤهم، فقد عرض النبي ﷺ الصلح علىٰ المشركين بواسطة بديل بن ورقاء، ولما جاء في آخر المطاف سهيل بن عمرو ليعقد الصلح مع المسلمين، أجابه النبي ﷺ إلىٰ ذلك، مع ما كان من المشركين من تعنت في بنود الصلح.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب برقم (٢٧٣١).

ثانيًا: وجوب الوفاء بالعهد مع الأعداء، وحرمة الغدر، كيف لا ونبينا ﷺ هو القائل: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتىٰ يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر**»(١).

وقال صلوات الله وسلامه عليه: «**إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال: هذه غدرة فلان**»(٢).

وقال أيضًا: «**من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا**»(٣).

ويتجلىٰ في قصة صلح الحديبية: وفاؤه ﷺ بالعهد في أحلك الظروف وأصعبها، فأبو بصير جاء إلىٰ المدينة مسلمًا فارًّا بدينه من أذىٰ قريش، وما إن وصل إلىٰ دار هجرته إلىٰ الله ورسوله إلا ويصل علىٰ إثره رجلان أرسلتهما قريش في طلبه، فقالوا لرسول الله ﷺ: العهدَ الذي جعلت لنا، فدفعه إلىٰ الرجلين المشركَين وفاءً بالعهد، مع أنه إذا رجع إليهم سيكون مصيره إما القتل أو التعذيب، فخرجا به حتىٰ بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون التمر، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرىٰ سيفك يا فلان جيدًا، فاستله الآخر فقال: أجل إنه لجيد لقد جربت به ثم جربت به.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الجزية والموادعة، باب: إثم من عاهد ثم غدر برقم (٣١٧٨) وغيره.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الأدب، باب: ما يدعىٰ الناس بآبائهم برقم (٦١٧٨) وغيره.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الجزية والموادعة، باب: إثم من قتل معاهدًا بغير جرم برقم (٣١٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو.

فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتىٰ برد، وفر الآخر حتىٰ أتىٰ المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه يعدو: «لقد رأىٰ هذا ذعرًا».

فلما انتهىٰ إلىٰ النبي ﷺ قال: قتل صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله قد وفَّىٰ الله ذمتك، فقد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم.

قال النبي ﷺ: «**ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد!**»، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتىٰ أتىٰ سيف البحر.

وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتىٰ اجتمع منهم عصابة فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلىٰ الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم.

فأرسلت قريش إلىٰ النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم.

الله أكبر الله أكبر ما أروع هذا وأعظمه، إنها أخلاق النبوة ومبادئ الإسلام، عهد بلا غدر، ووفاء بلا خيانة، وصدق بلا كذب، الظاهر والباطن سواء، والسر والعلن سواء، وكيف كانت عاقبة ذلك للمؤمنين، لا مكر ولا حيلة، ولا سير وراء العاطفة ولا التواء ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف: ٩٠].

أيتها الدنيا، أيها العالَم هذه أخلاق نبينا وشمائله!

وقد سأل هرقل أبا سفيان عند أن كان مشركًا عن النبي ﷺ هل يغدر؟ فقال أبو

سفيان: لا. فقال هرقل: وكذلك الرسل لا تغدر(١).

وعن أبي رافع رضي الله عنه قال:

«بعثتني قريش إلىٰ رسول الله ﷺ، فلما رأيت رسول الله أُلقي في قلبي الإسلام فقلت: يا رسول الله، والله لا أرجع إليهم أبدًا.

فقال رسول الله ﷺ: «**إني لا أخيس بالعهد** -أي: لا أنقضه- **ولا أحبس البُرُد** - أي الرسل- **ولكن ارجع إليهم فإن كان في نفسك الذي بنفسك الآن فارجع**».

قال: فذهبت ثم أتيت النبي ﷺ فأسلمت»(٢).

وإليك أيها القارئ الكريم دليلًا آخر فيه دلالة وحوار يسطر بماء الذهب علىٰ جبين الدهر، شاهدًا أمينًا علىٰ سماحة الإسلام، ومكارم أخلاق نبينا الكريم الذي أرسله الله رحمة للعالمين، وحجة علىٰ الخلق أجمعين.

فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال:

«ما منعني أن أشهد بدرًا إلا أني خرجت أنا وأبي حسيل، فأخذنا كفار قريش قالوا: إنكم تريدون محمدًا، فقلنا: ما نريده ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلىٰ المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله فأخبرناه.

فقال: «**انصرفا نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم**»(٣).

هذا؛ ولم يؤثر عن رسول الله ﷺ غدر ولا خيانة ولا كذب، لا قبل البعثة ولا بعدها،

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب بدء الوحي برقم (٧).
(٢) أخرجه أبو داود في «سننه» برقم (٢٧٥٨)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله.
(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الجهاد والسير، باب: الوفاء بالعهد برقم (١٧٨٧).

شهد بذلك أعداؤه وأولياؤه.

وقد عاهد النبي ﷺ يهودُ المدينة حين هاجر إليها ووفَّىٰ لهم وكانوا هم الذين نقضوا العهد وغدروا.

وعاهد كفار قريش ووفَّىٰ لهم، حتىٰ كانوا هم الذين نقضوا العهد وغدروا.

وفي قصة صلح الحديبية دليل واضح علىٰ وفاء النبي ﷺ بالعهد كما سبق بيانه.

كما أن فيها أن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء إلىٰ النبي ﷺ فأسلم، وأعطىٰ النبي ﷺ المال، فقال له رسول الله ﷺ: «**أما الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شيء**»، وإنما رده النبي ﷺ لأنه أخذ غدرًا.

ثالثًا: في القصة دلالة من دلائل النبوة، حيث نزل النبي ﷺ وأصحابه في أقصىٰ الحديبية في مكان قليل الماء، فلم يلبث الناس أن نزحوه، وشُكي إلىٰ رسول الله العطش، فانتزع سهمًا من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، قال الراوي: «فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتىٰ صدروا عنه».

رابعًا: عظيم حرص النبي ﷺ علىٰ عدم خوض حرب مع أعدائه، لاسيما في البلد الحرام، فقد قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**».

فالمقصود في حرب النبي ﷺ وسلمه وصلحه مع أعدائه تعظيمُ حرمات الله، لا الرغبة في عرض الدنيا الفاني.

خامسًا: عظيم شجاعة النبي ﷺ وثقته بربه سبحانه وتعالى؛ حيث قال لبديل بن ورقاء: «**إنا لم نجئ لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا مادَدْتهم مدة ويخلُّوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاءوا أن**

يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جمُّوا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم عن أمري هذا حتىٰ تنفرد سالفتي ولينفذن الله أمره!».

سادسًا: في القصة دليل لقاعدة المصالح والمفاسد، وهذه القاعدة الأصلية يراعىٰ فيها الضوابط الشرعية، وأن يكون ذلك بفتوىٰ العلماء المجتهدين، فإنه قد ولج هذا الباب مَن ليس من أهله، فارتُكبت محرمات وتُركت واجبات بحجج واهية تحت ستار ارتكاب أخف الضررين، وتفويت أدنىٰ المصلحتين، وارتكاب مفسدة صغرىٰ لتحقيق مصلحة عظمىٰ، حتىٰ خرج أناس علىٰ ولاة أمورهم، وتزعزع الأمن وسفكت الدماء وهتكت الأعراض، وتسلط أهل الشر علىٰ أهل الخير، وتذرع بذلك أعداء الإسلام للتدخل في بلاد المسلمين.

فإلىٰ الله المشتكىٰ من أناس أغفلوا هذا الأصل العظيم ـ قاعدة المصالح والمفاسد ـ ومن أناس فتحوا الباب علىٰ مصراعيه لكل من دبَّ ودرج وبدون قيد أو شرط.

رابعًا: حوار النبي ﷺ مع جبريل عليه السلام، وسؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان.

عن عمر رضي الله تعالىٰ عنه قال:

«بينما نحن جلوس عند رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ذات يوم؛ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتىٰ جلس إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم؛ فأسند ركبتيه إلىٰ ركبتيه ووضع كفيه علىٰ فخذيه وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام.

فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله**

وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا».

قال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه!

قال: فأخبرني عن الإيمان.

قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره».

قال: صدقت.

قال: فأخبرني عن الإحسان.

قال: «أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

قال: فأخبرني عن الساعة؟

قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل».

قال: فأخبرني عن أماراتها؟

قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان».

ثم انطلق فلبثت مليًّا، ثم قال: «يا عمر أتدري من السائل؟».

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان برقم (٨).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «شرح النووي لمسلم» (١/ ١٣٢): «هذا الحديث قد اشتمل علىٰ شرح جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة، من عقود الإيمان وأعمال الجوارح وإخلاص السرائر، والتحفظ من آفات الأعمال، حتىٰ أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه.

وعلىٰ هذا الحديث وأقسامه الثلاثة ألفنا كتابنا الذي سميناه بـ: «المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان»، إذ لا يشذ شيء من الواجبات والسنن والرغائب والمحظورات والمكروهات عن أقسامه الثلاثة والله أعلم». اهـ.

والدروس المستفادة من هذا الحديث العظيم ما يلي:

أولًا: أن الدين الإسلامي دين متكامل يُعنىٰ بإصلاح الظاهر والباطن، والسر والعلن، وهذا يتضح من خلال معرفة أركان الإسلام والإيمان والإحسان.

ثانيًا: أنه ينبغي للشخص أن يكون مفتاح خير لنفسه ولغيره، وأنه لا يمنعه علمه بالحق أن يسأل عنه ليتعلم غيره، فيكون بذلك معلمًا، فقد سمىٰ النبي ﷺ جبريل معلمًا.

ثالثًا: أن مدار الدين الذي بعث به محمد ﷺ علىٰ الإسلام والإيمان والإحسان.

رابعًا: أن وظائف الدين الإسلامي موزعة علىٰ القلب واللسان والجوارح.

خامسًا: يسر وسماحة الدين الإسلامي فهذه مبانيه العظام التي عليها يدور، ليس فيها آصار ولا أغلال ولا تكلف ولا عسر، بل هي في غاية السهولة واليسر.

سادسًا: تضمن هذا الحديث العظيم أنواعًا من أدب الحوار منها:

أ- أنه ينبغي للمحاور إذا كان متعلمًا أن يتأدب مع معلمه في خطابه ومجلسه،

بحيث يشعره ومن حوله أنه حريص علىٰ الاستفادة.

ب- أن المحاور إذا سئل عما لا يعلم أن يكل العلم إلىٰ عالمه، أو يقول لا أدري كما في جواب النبي ﷺ علىٰ سؤال جبريل عن الساعة، وكما في جواب عمر لرسول الله ﷺ حين سأله عن السائل.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح مسلم (١/ ١٣٢): قوله ﷺ: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**» فيه: أنه ينبغي للعالم والمفتي وغيرهما إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم، وأن ذلك لا يُنقصه بل يُستدل به علىٰ ورعه وتقواه ووفور علمه». اهـ.

ج- «أنه ينبغي لمن حضر مجلس العالم إذا علم بأهل المجلس حاجة إلىٰ مسألة لا يسألون عنها أن يسأل هو عنها ليحصل الجواب للجميع». قاله النووي في «شرح مسلم» (١/ ١٣٣).

د- «أنه ينبغي للعالم أن يرفق بالسائل ويدنيه منه ليتمكن من سؤاله غير هائب ولا منقبض.

هـ- أنه ينبغي للسائل أن يرفق في سؤاله». قاله النووي في «شرح مسلم» (١/ ١٣٣).

و- أنه ينبغي للمحاور أن يأتي بالكلام الموجز المفيد، دون تكلف أو تطويل بلا فائدة بحيث يضيع الوقت ويحصل الملل دون تحقق الغرض، فهذا نبينا ﷺ يجيب بكلمات جامعات نافعات تأخذ بالعقول والألباب.

وخذ من الحديث مثلًا جوابه عن سؤال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الإحسان حيث قال ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ **في** «**شرح مسلم**» (١/ ١٣١): «هذا من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ، لأنا لو قدَّرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يترك شيئا مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها، إلا أتى به.

فقال ﷺ: اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان، فإن التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليه، فلا يقدم العبد على تقصير في هذا الحال للإطلاع عليه، وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد فينبغي أن يعمل بمقتضاه.

فمقصود الكلام: الحث على الإخلاص في العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك.

وقد ندب أهل الحقائق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعًا من تلبسه بشيء من النقائص احترامًا لهم واستحياءً منهم، فكيف بمن لا يزال الله تعالى مطلعًا عليه في سره وعلانيته». اهـ.

خامسًا:حوار النبي ﷺ مع وفد عبد القيس:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال:**

«إن وفد عبد القيس لما أتوا النبي ﷺ قال: «**من القوم؛ أو من الوفد؟**».

قالوا: ربيعة. قال: «**مرحبًا بالقوم، أو الوفد غير خزايا ولا ندامى**».

فقالوا: يا رسول الله، إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، فَمُرْنا بأمرٍ فصل نخبر به من وراءنا وندخل الجنة، وسألوه عن الأشربة، فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع. أمرهم بالإيمان بالله وحده، «**أتدرون**

ما الإيمان بالله وحده؟».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «**شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس**».

ونهاهم عن أربع: عن الحنتم والدباء والنقير والمزفَّت وربما قال: المقيَّر. وقال: «**احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم**»(١).

هؤلاء القوم جاءوا النبيَّ ﷺ وهم مسلمون يسألون النبي ﷺ لهم ولمن وراءهم من قومهم وأهلهم عما يُدخلهم الجنة.

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار مايلي:

أولًا: أنه ينبغي لمن قدم عليه من لا يعرفه أن يسأله من هو، لينزله منزلته ويخاطبه بما يناسبه، كما سأل النبي ﷺ الوفد.

ثانيًا: أن من أدب الحوار مع القادم والضيف الترحيب به والبشر في وجهه؛ لأن ذلك يؤنسه، وهو من مكارم الأخلاق.

ورحم الله القحطاني إذ يقول في «نونيته»:

واضحك لضيفك حين ينزل رحله　　　إن الكـــــريم يُـــــسَرُّ بالــــــضِّيفان

وقد قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في «الفتح» (١/ ١٥٩) في الكلام علىٰ ترحيب النبي ﷺ بالوفد: «وفيه دليل علىٰ استحباب تأنيس القادم، وقد تكرر ذلك من النبي

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب: أداء الخمس من الإيمان برقم (٥٣)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب: الأمر بالإيمان بالله تعالىٰ ورسوله ﷺ برقم (١٧).

ﷺ، ففي حديث أم هانئ: «**مرحبًا بأم هانئ**»، وفي قصة عكرمة بن أبي جهل: «**مرحبًا بالراكب المهاجر**»، وفي قصة فاطمة: «**مرحبا بابنتي**»، وكلها صحيحة.

وأخرج النسائي من حديث عاصم بن بشير الحارثي عن أبيه أن النبي ﷺ قال له لما دخل فسلم عليه: «**مرحبًا وعليك السلام**»...». اهـ.

ثالثًا: أنه ينبغي للمحاور إبداء العذر بين يدي كلامه إذا كان هناك ما يدعو لذلك؛ فقد قال هذا الوفد العاقل لرسول الله ﷺ: «**إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة**».

وهذا من أدب الحوار ومكارم الأخلاق.

رابعًا: أنه ينبغي في الكلام والحوار البُداءة بالأهم، فلا يشتغل بالمسائل الجانبية عن المسائل الأصلية الأساسية، لاسيما مع ضيق الوقت وخشية عدم تكرر اللقاء.

خامسًا: حسن تعليم النبي ﷺ ويظهر ذلك فيما يلي:

أ- ملاطفته لهم وحسن استقبالهم مما يؤنسهم.

ب- الحصر والتقسيم حيث أمرهم بأربع ونهاهم عن أربع، وهذا أدعىٰ لحفظها وفهمها.

ج- التفصيل بعد الإجمال، أو ما يسمىٰ بالنشر بعد اللف، وفي هذا تشويق لهم وتنبيه علىٰ مهمات الأمور وإيضاح لها.

د ـ التعليم عن طريق طرح السؤال ثم ذكر الإجابة، وفي هذا لفت للانتباه وتوطئة لإلقاء الأمور المهمة لترسخ في الأذهان.

هـ- أمره لهم بحفظ ما أمرهم به ونهاهم عنه.

و- أمره لهم بأن يخبروا من وراءهم من قومهم وأهليهم بما أمرهم به ونهاهم عنه، ليعملوا به ويعم الخير الجميع، وليكونوا مفاتيح خير لأنفسهم ومن وراءهم.

* * *

الفصل الثالث
حوارات عقدية

١ـ عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«كنت ردف النبي ﷺ علىٰ حمار يقال له عفير فقال: «**يا معاذ، أتدري ما حق الله علىٰ العباد وما حق العباد علىٰ الله؟**».

قال: قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «**فإن حق الله علىٰ العباد أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا**».

قال: قلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟

قال: «**لا تبشرهم فيتكلوا**»(١).

والدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: حسن تعليم النبي ﷺ وحكمته، ويتضح ذلك بما يلي:

أ ـ حيث ألقىٰ علىٰ معاذ هذه المسألة العظيمة التي لأجلها خلق الله العباد، وهي إفراده بالعبادة دون ما سواه بصورة السؤال والاستفهام.

قال الشيخ سليمان في «تيسير العزيز الحميد» «ص٤٤»: «ليكون أوقع في النفس

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الجهاد والسير، باب: اسم الفرس والحمار برقم (٢٨٥٦)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب: الدليل علىٰ أن من مات علىٰ التوحيد دخل الجنة قطعًا برقم (٣٠)، واللفظ له.

وأبلغ في فهم المتعلم؛ فإن الإنسان إذا سئل عن مسألة لا يعلمها ثم أُخبر بها بعد الامتحان بالسؤال عنها؛ فإن ذلك أوعىٰ لفهمها وحفظها». اهـ.

وقال العلامة الفوزان حفظه الله في «إعانة المستفيد» (ص٤٢-٤٣):

أراد النبي ﷺ أن يعلمه هذا الحكم العظيم، ولكنه ﷺ أراد أن يلقيه إليه بطريقة السؤال والجواب ليكون ذلك أدعىٰ إلىٰ الانتباه والإهتمام؛ فإن التعليم عن طريق السؤال والجواب من أعظم الطرق الناجحة في تعليم العلم؛ لأنك لما تسأل الطالب عن شيء يجهله ثم يتطلع إلىٰ الجواب أحسن من أن تلقي إليه المسألة ابتداءً وهو علىٰ غير انتباه واستعداد لقبولها، وهذه طريقة من طرق التعليم وهي طريقة نبوية استعملها النبي ﷺ في كثير من الأحوال». اهـ.

ب ـ حيث خص معاذًا بهذه البشارة، ونهاه عن بثها في الناس، وذلك من حكمته ﷺ، وحسن تعليمه، حيث وضع العلم في موضعه، وحدَّث كل قوم بما يناسبهم.

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٣٤٨):

وقال ابن رجب في «شرحه لأوائل البخاري»: «**قال العلماء:**

«يؤخذ من منع معاذ تبشير الناس لئلا يتكلوا: أن أحاديث الرخص لا تشاع في عموم الناس لئلا يقصر فهمهم عن المراد بها، وقد سمعها معاذ فلم يزدد إلا اجتهادًا في العمل وخشيةً لله عَزَّوَجَلَّ، فأما من لم يبلغ منزلته فلا يُؤمَن أن يقصر اتكالًا علىٰ ظاهر هذا الخبر». اهـ.

وقال العلامة الفوزان في «إعانة المستفيد» (ص٥٠): «وهذا من الحكمة أن العلم لا يوضع إلا في مواضعه، فإذا خيف من إلقاء المسائل علىٰ بعض الناس محذورًا أكبر فإنهم تُكتم عنهم بعض المسائل من أجل الشفقة بهم، ورحمتهم من الوقوع في

المحذور؛ فإن النبي ﷺ أمر بكتمان هذا النوع من العلم عن عامة الناس، وأخبر به معاذًا لأن معاذًا من الجهابذة ومن خواص العلماء، فدل علىٰ أنه يجوز كتمان العلم للمصلحة إذا كان يترتب علىٰ إيضاح بعض المسائل للناس محذور بأن يفهموا خطأً، أو يتكلوا علىٰ ما سمعوا؛ فإنهم لا يخبرون بذلك، وإنما تلقىٰ هذه المسائل علىٰ خواص العلماء الذين لا يُخشىٰ منهم الوقوع في المحذور.

وإنما أخبر معاذ بهذا الحديث عند وفاته خشية أن يموت وعنده شيء من الأحاديث لم يبلغه للناس». اهـ.

ثانيًا: عظيم عناية النبي ﷺ بأمر التوحيد الذي هو إفراد الله بالعبادة دون ما سواه.

وسيرته ﷺ منذ بعثه الله إلىٰ أن توفاه الله خير شاهد علىٰ هذا في سفره وحضره وصحته ومرضه؛ لأن هذا هو مقصود بعثة الرسل وإنزال الكتب عليهم، فكما أنه سبحانه المنفرد بالخلق والرَّزق، المالك لكل شيء، المتفضل بالنعم الظاهرة والباطنة، المتصف بالكمال المطلق، المنزه عن كل نقص؛ فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فمن جعل لله صاحبة أو ولدًا أو ندًّا، أو صرف العبادة لغيره من الرسل أو الملائكة أو الصالحين الأحياء أو الأموات، أو اعتقد أن أحدًا من الخلق له تصرف في هذا الكون مع الله أو من دون الله؛ فهو مشرك كافر مخلد يوم القيامة في النار عياذًا بالله.

فالواجب علىٰ أتباع هذا النبي الكريم العناية بأمر التوحيد تقريرًا وتعليمًا وتصنيفًا، والتحذير من الشرك وبيان أنواعه للناس عبر كل الوسائل المباحة، تحذيرًا للناس من خطره وشره، مع بيان فضائل التوحيد وآثاره الحميدة علىٰ الأفراد والمجتمعات، ومفاسد الشرك وعواقبه الوخيمة علىٰ الأفراد والمجتمعات في الدنيا والآخرة.

لأن بعض الدعاة بدءوا من حيث انتهىٰ الرسل ظانين أن ذلك أقصر الطرق وأقربها لتحقيق المقصود، فلا للإسلام نصروا ولا لأعدائه كسروا، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها.

ثالثًا: يتجلىٰ في هذا الحوار تواضع النبي ﷺ وحسن خلقه من وجوه:

أ ـ كونه ركب الحمار.

ب ـ كونه أردف معاذًا عليه.

ج ـ محادثته ﷺ لرديفه معاذ، بخلاف أهل الكبر الذين لا يكادون يتحدثون مع رفقتهم في المركب إلا إذا احتاجوا إلىٰ ذلك لتحقيق مصالحهم.

٢- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

«نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع.

فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد، أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك؟

قال: «**صدق**».

قال: فمن خلق السماء؟

قال: «**الله**».

قال: فمن خلق الأرض؟

قال: «**الله**».

قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟

قال: «الله».

قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك؟

قال: «نعم».

قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا.

قال: «صدق».

قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟

قال: «نعم».

قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة أموالنا.

قال: «صدق».

قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟

قال: «نعم».

قال: وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا.

قال: «صدق».

قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟

قال: «نعم».

قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلًا.

قال: «صدق».

قال: ثم ولىٰ. قال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن.

فقال النبي ﷺ: «**لئن صدق ليدخلن الجنة**»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: حسن خلق النبي ﷺ وبراعته في فن الحوار ويتضح ذلك فيما يلي:

أ- حسن إصغائه لمحاوره؛ فلم يقاطع هذا الرجل السائل في شيء من كلامه.

ب- صبره ﷺ علىٰ جفاء الأعراب وأهل البوادي.

ج- حلمه ﷺ حيث لم يعاقب هذا الأعرابي أو يعنفه وقد ناداه باسمه، وقال له: أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك. بل قد قال ﷺ في آخر الحوار: «**لئن صدق ليدخلن الجنة**».

د- تواضعه ﷺ حيث كان يجلس بين أصحابه ويجيب علىٰ سؤال الغريب.

هـ- سعة صدره ﷺ حيث لم يضق ذرعًا بتعنت هذا الأعرابي وكثرة أسئلته.

ثانيًا: استخدام مبدأ الترغيب والترهيب فقد قال ﷺ بعد أن أبدىٰ الأعرابي التزامه بما دُعي إليه من شرائع الإسلام: «**لئن صدق ليدخلن الجنة**»، وهذا ترغيب بمنطوق الخبر، وترهيب بمفهومه؛ إذ إنه إن كان كاذبًا فلن يكون من أهل الجنة.

ثالثًا: أنه ينبغي للمحاور أن يأتي بالكلام المختصر المفيد سؤالًا وجوابًا وخبرًا؛ فقد كان النبي ﷺ يكتفي بالإجابة علىٰ أسئلته بكلام مختصر مفيد فتارة يقول له: نعم، وتارة يقول: صدق.

فكثرة الكلام بلا فائدة مضيعة للوقت والجهد بما لا يحقق المطلوب، بل قد يحصل عكس المطلوب.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب: السؤال عن أركان الإسلام برقم (١٢).

رابعًا: قيام النبي ﷺ بما أمره به ربه من البلاغ المبين؛ فقد كان يرسل الرسل إلىٰ البوادي وغيرها يدعون الناس إلىٰ الله، ويبينون لهم ما أوجبه الله عليهم.

خامسًا: أن المنفرد بالخلق والتدبير هو المستحق للعبادة دون ما سواه وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

٣- عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال:

«كنت خلف النبي ﷺ فقال: **يا غلام، إني أعلمك كلمات:**

احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا علىٰ أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»(١).

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في «**جامع العلوم والحكم**» (١/ ٤٦٢): «وهذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهم أمور الدين، حتىٰ قال بعض العلماء: تدبرت هذا الحديث فأدهشني وكدت أطيش فوا أسفا من الجهل بهذا الحديث وقلة التفهم لمعناه». اهـ.

قلت: في هذا الحوار العظيم عدة دروس منها:

أولًا: عناية النبي ﷺ بالصغار، وغرس العقيدة الصحيحة في قلوبهم، لينشئوا نشأة صالحة، فصغار اليوم كبار الغد.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ برقم (٢٥١٦). وقال: «حديث حسن صحيح».

ثانيًا: حسن تعليم النبي ﷺ حيث ابتدأ تعليمه بندائه ليلفت انتباهه لما سيلقيه عليه.

ثالثًا: عظيم عناية النبي ﷺ بأمر التوحيد، وغرسه في قلوب الصغار والكبار، ليعلموا أن مقاليد الأمور بيد الله، فيورثهم ذلك محبة الله وتعظيمه والثقة به، ولتطمئن قلوبهم وتنشرح صدورهم، وتندحر عنهم الشكوك والأوهام، ويولي عنهم القلق المفضي إلىٰ الاكتئاب والبطالة وربما الانتحار.

فإن استقر ذلك في قلوبهم حصل لهم الثبات والإقدام وراحة البال.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في «**جامع العلوم والحكم**» (١/ ٤٨٤): «واعلم أن مدار جميع هذه الوصية علىٰ هذا الأصل، وما ذكر قبله وبعده فهو متفرع عليه وراجع إليه، فإن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ونفع وضر، وأن اجتهاد الخلق كلهم علىٰ خلاف المقدور غير مفيد ألبتة، علم حينئذ أن الله وحده هو الضار النافع المعطي المانع، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عَزَّوَجَلَّ وإفراده بالطاعة، وحفظ حدوده، فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار، ولهذا ذم الله من يعبد من لا ينفع ولا يضر ولا يغني عن عباده شيئًا.

فمن علم أنه لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع غير الله أوجب له ذلك إفراده بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرع، وتقديم طاعته علىٰ طاعة الخلق جميعًا، وأن يتقي سخطه ولو كان فيه سخط الخلق جميعًا، وإفراده بالاستعانة به والسؤال له، وإخلاص الدعاء له في حال الشدة وحال الرخاء، بخلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له عند الشدائد ونسيانه في الرخاء، ودعاء من يرجون نفعه من دون الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ

هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الزمر: ٣٨]». اهـ.

رابعًا: أن الجزاء من جنس العمل.

قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٦٥): «قوله ﷺ: «**احفظ الله يحفظك**» يعني: أن من حفظ حدود الله وراعىٰ حقوقه حفظه الله، فإن الجزاء من جنس العمل كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

وقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وحفظ الله لعبده يدخل فيه نوعان:

أحدهما: حفظه في مصالح دنياه كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله، فمن حفظ الله حفظه من كل أذىً.

قال بعض السلف: من اتقىٰ فقد حفظ نفسه، ومن ضيع تقواه فقد ضيع نفسه والله غني عنه.

النوع الثاني من الحفظ وهو أشرف النوعين: حفظ الله للعبد في دينه وإيمانه، فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة، ومن الشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته فيتوفاه علىٰ الإيمان.

وفي الجملة: فالله عَزَّوَجَلَّ يحفظ علىٰ المؤمن الحافظ لحدود دينه ويحول بينه وبين ما يفسد عليه دينه بأنواع من الحفظ، وقد لا يشعر العبد ببعضها، وقد يكون كارهًا له كما قال في حق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف: ٢٤]». اهـ باختصار.

٤ـ عن معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«بينا أنا أصلي مع رسول الله إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله فرماني الناس بأبصارهم فقلت: وا ثكل أُمِّياه ما شأنكم تنظرون إلي؟

فجعلوا يضربون بأيديهم علىٰ أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتوني سكت، فلما صلىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني.

قال: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**»، أو كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بجاهلية وقد جاء الله بالإسلام وإن منا رجالًا يأتون الكهان.

قال: «**فلا تأتهم**».

قلت: ومنا رجال يتطيرون.

قال: «**ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم**».

ومنا رجال يخطون.

قال: «**كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك**».

قال: وكانت لي جارية ترعىٰ غنمًا لي قبل أُحد والجوانية، فاطلعت ذات يوم فإذا بالذئب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم آسَفُ كما يأسفون، لكني صككتها صكة، فأتيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعظم ذلك علي.

قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟

قال: «**ائتني بها**».

فأتيته بها فقال لها: «**أين الله؟**» .

الت: في السماء.

قال: «**من أنا؟**».

قالت: أنت رسول الله.

قال: «**أعتقها فإنها مؤمنة**»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق الذي شهد الله تعالىٰ له به ورفقه بالجاهل ورأفته بأمته وشفقته عليهم، وفيه التخلق بخلقه ﷺ في الرفق بالجاهل وحسن تعليمه واللطف به وتقريب الصواب إلىٰ فهمه. قاله النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح مسلم» (١/ ١٩٠).

ثانيًا: أن الآمر بشيء والناهي عنه ينبغي أن يقرن الحكم بعلته إن وجدت، كما فعل النبي ﷺ حيث قال للرجل: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس**»، ثم علل بقوله: «**إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**».

وفائدة قرن الحكم بالعلة: أن المخاطب يطمئن أكثر.

وفيها فائدة أخرىٰ: وهي بيان سمو هذه الشريعة إذ إنها تربط الأحكام بعللها والأسباب بمسبباتها.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب المساجد والصلاة، باب: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة برقم (٥٣٧).

ثالثًا: أنه ينبغي إبداء العذر بين يدي الكلام إذا كان هناك ما يدعو لذلك لقول معاوية بن الحكم ﵁: «يا رسول الله، إني حديث عهد بجاهلية وقد جاء الله بالإسلام وإن منا رجالًا يأتون الكهان...» إلخ.

رابعًا: أن بعثة محمد ﷺ من أعظم نعم الله علىٰ الخلق، لما أجرىٰ الله علىٰ يديه من خير عاجل وآجل، ولما دفع به عن الناس من شر عاجل وآجل، فقد كانت العقائد الفاسدة والخرافات مستولية عليهم ومسيطرة علىٰ عقولهم، وللكهان والمنجمين والسحرة صولة وجولة في ذلك العصر، فكشف الله ببعثة هذا النبي الكريم الغمة وأزال المحنة، فله الحمد والمنة.

خامسًا: تحريم إتيان الكهان الذين يدَّعون علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه، ويفسدون عقائد الناس ويعبثون بعقولهم وأموالهم.

قال الإمام النووي ﵀ **في «شرح مسلم»** (١/ ١٩١): «قال العلماء: إنما نهي عن إتيان الكهان لأنهم يتكلمون في مغيبات قد يصادف بعضها الإصابة فيخاف الفتنة علىٰ الإنسان بسبب ذلك، لأنهم يلبسون علىٰ الناس كثيرًا من أمر الشرائع، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة بالنهي عن إتيان الكهان وتصديقهم فيما يقولون وتحريم ما يعطون من الحُلْوان، وهو حرام بإجماع المسلمين، وقد نقل الإجماع في تحريمه جماعة منهم أبو محمد البغوي رحمهم الله تعالىٰ.

قال البغوي: اتفق أهل العلم علىٰ تحريم حلوان الكاهن، وهو ما أخذه المتكهن علىٰ كهانته لأن فعل الكهانة باطل لا يجوز أخذ الأجرة عليه.

وقال الماوردي رحمه الله تعالىٰ في «الأحكام السلطانية»: ويمنع المحتسب الناس من التكسب بالكهانة واللهو ويؤدب عليه الآخذ والمعطي». اهـ.

سادسًا: إبطال النبي ﷺ للتطير وهو التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم، وأن ذلك لا أثر له في الواقع، وإن وجد الشخص في نفسه شيئًا من ذلك فلا يجوز العمل بمقتضىٰ ذلك إقدامًا أو إحجامًا وما أشبه ذلك.

سابعًا: أن الشخص متىٰ لمس فيمن يحاوره ويخاطبه لين الجانب وسعة الصدر والرحمة؛ فإنه ينطلق معه في الحديث وينتفع بذلك انتفاعا عظيمًا، فمعاوية بن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما لمس ذلك من النبي ﷺ أبدىٰ عذره، وسأل عن أشياء كثيرة انتفع بها، وانتفع الناس بها.

ثامنًا: أن سؤال الشخص عن عقيدته وامتحانه في ذلك متىٰ دعت الحاجة أمر مشروع، حيث سأل النبي ﷺ تلك الجارية: «**أين الله**»، «**ومن أنا**».

تاسعًا: أن السؤال بـ: «أين الله» سؤال مشروع، أسوة السائل في ذلك رسول الله ﷺ.

عاشرًا: أن الإقرار بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في السماء كما دل عليه الشرع والعقل والإجماع؛ دلت عليه أيضًا الفطرة السليمة، فهذه الجارية التي كانت ترعىٰ الغنم أجابت بمقتضىٰ فطرتها السليمة بأن الله في السماء، وأقرها رسول الله ﷺ.

حادي عشر: مشروعية الثناء علىٰ المحسن في قوله أو عمله تشجيعًا له وتثبيتًا، فقد أثنىٰ النبي ﷺ علىٰ تلك الجارية بالإيمان وحث سيدها علىٰ عتقها.

ثاني عشر: عناية النبي ﷺ بالمرأة بتعليمها والحرص علىٰ سلامة عقيدتها، وتشجيعها والثناء عليها بما تستحق.

ثالث عشر: تشوُّف الشرع إلىٰ تحرير الأرقاء، والرفق بهم والحث علىٰ معاملتهم معاملة حسنة، وسيأتي مزيد بسط في هذا الموضوع إن شاء الله.

٥- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه:

«أن ناسًا في زمن رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، هل نرىٰ ربنا يوم القيامة؟

قال رسول الله ﷺ: «**نعم، هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحوًا ليس معها سحاب؟ هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحوًا ليس فيها سحاب؟**»".

قالوا: لا يا رسول الله.

قال: «**ما تضارون في رؤية الله تبارك وتعالىٰ يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما.**

إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن ليتبع كل أمة ما كانت تعبد. فلا يبقىٰ أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار.

حتىٰ إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغُبَّر أهل الكتاب.

فيدعىٰ اليهود فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله. فيقال: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد. فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا يا ربنا فاسقنا، فيشار إليهم: ألا تردون؟ فيحشرون إلىٰ النار كأنها سراب يحطم. بعضها بعضًا فيتساقطون في النار. ثم يدعىٰ النصارىٰ فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح بن الله. فيقال لهم: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد. فيقال لهم: ماذا تبغون؟ فيقولون: عطشنا يا ربنا فاسقنا. قال: فيشار إليهم: ألا تردون؟ فيحشرون إلىٰ جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا فيتساقطون في النار.

حتىٰ إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالىٰ من بر وفاجر أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنىٰ صورة من التي رأوه فيها قال: فما تنتظرون؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد. قالوا: يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم. فيقول: أنا ربكم.

فيقولون نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئا -مرتين أو ثلاثا- حتىٰ إن بعضهم ليكاد أن ينقلب. فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم. فيكشف عن ساق؛ فلا يبقىٰ من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود.

ولا يبقىٰ من كان يسجد اتقاءً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر علىٰ قفاه.

ثم يرفعون رءوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة فقال: أنا ربكم. فيقولون: أنت ربنا.

ثم يضرب الجسر علىٰ جهنم وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهم سلم سلم».

قيل: يا رسول الله، وما الجسر؟

قال: «دحض مزلة، فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون بنجد فيها شويكة يقال لها: السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق وكالريح وكالطير، وكأجاود الخيل والركاب، فناجٍ مسلم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم.

حتىٰ إذا خلص المؤمنين من النار فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد منا شدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم.

فتحرم صورهم علىٰ النار، فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أخذت النار إلىٰ نصف ساقيه وإلىٰ ركبتيه.

ثم يقولون: ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به. فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا.

ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحدًا ممن أمرتنا. ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقًا كثيرًا.

ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدًا. ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا.

ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيرًا».

وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرءوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤].

«فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط قد عادوا حممًا، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحِبَّة في حميل السيل ألا ترونها تكون إلىٰ الحجر أو إلىٰ الشجر ما يكون إلىٰ الشمس أصيفر وأخيضر وما يكون منها إلىٰ الظل يكون أبيض؟».

فقالوا: يا رسول الله، كأنك كنت ترعىٰ بالبادية!

قال: «فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه.

ثم يقول: ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم. فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من العالمين فيقول: لكم عندي أفضل من هذا، فيقولون: يا ربنا أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، برقم (٧٤٣٩)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية واللفظ له برقم (١٨٣).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحديث مايلي:

أولًا: تواضع النبي ﷺ حيث كان يجالس أصحابه عامتهم وخاصتهم، ويحدثهم ويجيب عن أسئلتهم.

ثانيًا: حرص النبي ﷺ علىٰ أن يحدث أصحابه بما ينفعهم ويزيد إيمانهم، ويقوي صلتهم بربهم، ويحملهم علىٰ الاستعداد للقائه يوم القيامة.

ثالثًا: حسن تعليم النبي ﷺ حيث يضرب الأمثال التي توضح المراد، وتساعد علىٰ فهمه، ويستعمل طريقة السؤال والجواب في تقرير المراد بما يلفت الانتباه، ويرسخ المقصود في الأذهان.

رابعًا: السهولة واليسر في حديثه وحواره ﷺ، فهو من بعثه الله بالحنيفية السمحة، فهو يحدث أصحابه بألفاظ واضحة المعاني سهلة المباني، بأسلوب مشوق بعيدًا عن الرتابة المملة.

خامسًا: استخدام القصص في الحديث لما فيها من إثارة وسرعة الوصول إلىٰ الأذهان، حيث قص عليهم بعض ما يكون في عرصات القيامة مما أوحاه الله إليه.

سادسًا: إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، رؤية بصرية حقيقية من فوقهم، كما هو مقتضىٰ ضرب المثل برؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب، فشبه ﷺ رؤية المؤمنين لربهم برؤيتهم للشمس والقمر ليس دونهما سحاب، وهذا تشبيه للرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي.

ووجه التشبيه:

١ـ أن الشمس والقمر تُريان إذا لم يكن سحاب بوضوح، وكذلك سيُرىٰ الله.

٢ـ كما أنه لا يتضرر من رأىٰ الشمس والقمر؛ فكذلك لا يتضرر من يرىٰ الله.

٣ـ كما أن رؤية الشمس والقمر تكون بالأبصار فرؤية الله تكون بالأبصار كذلك.

٤ـ كما أن الشمس والقمر تريان من فوق فكذلك يرىٰ المؤمنون ربهم من فوقهم؛ لأنه سبحانه له العلو المطلق والفوقية المطلقة علىٰ جميع الخلق في الدنيا والآخرة.

وهذه المسألة -أعني رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة- من أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، التي دل عليها القرآن والسنة المتواترة والإجماع والعقل، وبسط أدلة ذلك في كتب العقائد.

سابعًا: أن من الأساليب التي كان يستخدمها النبي ﷺ في أحاديثه وحواراته أسلوب التشويق، كما في جوابه ﷺ علىٰ السؤال عن إمكان رؤية الله يوم القيامة.

ثامنًا: أن الشرك بالله بعبادة الأصنام والأنصاب موجب لعذاب النار.

تاسعًا: أن من أعظم الشرك بالله وأقبح الكذب عبادة عزير، وادعاء أنه ابن الله، تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ﴿٥﴾﴾ [الكهف: ١-٥].

وقال ﷻ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ

وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ
ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].

عاشرًا: وأن من أعظم الشرك وأقبح الكذب عبادة المسيح ﷺ، ودعوىٰ أنه ابن الله وأن ذلك موجب لعذاب النار عياذًا بالله، فإنه يقول لهم يوم القيامة حين يقولون كنا نعبد المسيح ابن الله: «**كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد**».

قال الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ
لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ
فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [مريم: ٣٤-٣٧].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن
فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ
فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل
لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ
سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن
دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٩-٦٤].

ورحم الله ابن القيم إذ قال في «إغاثة اللهفان» (٦٤٢-٦٤٤): «والمقصود: أن دين الأمة الصليبية بعد أن بعث الله ﷻ محمدًا ﷺ، بل قبله بنحو ثلاثمائة سنة مبني علىٰ معاندة العقول والشرائع، وتنقص إله العالمين ورميه بالعظائم، فكل نصراني لا يأخذ بحظه من هذه البلية فليس بنصراني علىٰ الحقيقة.

أفليس هو الدين الذي أسسه أصحاب المجامع المتلاعنين علىٰ أن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد؟

فيا عجبًا كيف رضي العاقل أن يكون هذا مبلغ عقله ومنتهىٰ علمه؟

أفترىٰ لم يكن في هذه الأمة من يرجع إلىٰ عقله وفطرته، ويعلم أن هذا عين المحال وإن ضربوا له الأمثال واستخرجوا له الأشباه، فلا يذكرون مثالًا ولا شبهًا إلا وفيه بيان خطئهم وضلالهم.

كتشبيه بعضهم اتحاد اللاهوت بالناسوت، وامتزاجه به باتحاد النار والحديد.

وتمثيل غيرهم ذلك باختلاط الماء باللبن، وتشبيه آخرين ذلك بامتزاج الغذاء واختلاطه بأعضاء البدن، إلىٰ غير ذلك من الأمثال والمقاييس التي تتضمن امتزاج حقيقتين واختلاطهما حتىٰ صارا حقيقة أخرىٰ تعالىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عن إفكهم وكذبهم.

ولم يقنعهم هذا القول في رب السموات والأرض، حتىٰ اتفقوا بأسرهم علىٰ أن اليهود أخذوه وساقوه بينهم ذليلًا مقهورًا وهو يحمل خشبته التي صلبوه عليها، واليهود يبصقون في وجهه ويضربونه، ثم صلبوه وطعنوه بالحربة حتىٰ مات، وتركوه مصلوبًا حتىٰ التصق شعره بجلده لما يبس دمه بحرارة الشمس، ثم دفن وأقام تحت التراب ثلاثة أيام ثم قام بلاهوتيته من قبره.

وهذا قول جميعهم ليس فيهم من ينكر منه شيئًا.

فيا للعقول! كيف كان حال هذا العالم الأعلىٰ والأسفل في هذه الأيام الثلاثة؟ ومن كان يدبر أمر السموات والأرض؟ ومن الذي خلف الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه المدة؟ ومن الذي كان يمسك السماء أن تقع علىٰ الأرض وهو مدفون في قبره؟

ويا عجبًا! هل دفنت الكلمة معه بعد أن قتلت وصلبت؟

أم فارقته وخذلته أحوج ما كان إلىٰ نصرها له كما خذله أبوه وقومه؟!

فإن كانت قد فارقته وتجرد منها فليس هو حينئذ المسيح، وإنما هو كغيره من آحاد الناس.

وكيف يصح مفارقتها له بعد أن اتحدت به ومازجت لحمه ودمه؟!

وأين ذهب الاتحاد والامتزاج؟!

وإن كانت لم تفارقه وقتلت وصلبت ودفنت معه فكيف وصل المخلوق إلىٰ قتل الإله وصلبه ودفنه؟

ويا عجبًا! أي قبر يسع إله السموات والأرض؟!

هذا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون.

الحمد لله ثم الحمد لله تعالىٰ الذي هدانا للإسلام وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

يا ذا الجلال والإكرام كما هديتنا للإسلام أسألك ألا تنزعه عنا حتىٰ تتوفانا علىٰ الإسلام.

أَعُبَّادَ المسيح لنا سؤال ... نريد جوابه ممن وعاهُ
إذا مات الإله بصنع قوم ... أماتوه فما هذا الإلهُ
وهل أرضاه ما نالوه منه ... فبشراهم إذا نالوا رضاهُ
وإن سخط الذي فعلوه فيه ... فقوتهم إذًا أوهت قواهُ
وهل بقي الوجود بلا إله ... سميع يستجيب لمن دعاهُ

وهل خلت الطباق السبع لما / ثوىٰ تحت التراب وقد علاهُ
وهل خلت العوالم من إله / يدبرها وقد سمرت يداهُ
وكيف تخلت الأملاك عنه / بنصرهم وقد سمعوا بكاهُ
وكيف أطاقت الخشبات حمل الْـ / ـإله الحق شد علىٰ قفاهُ
وكيف دنا الحديد إليه حتىٰ / يخالطه ويلحقه أذاهُ
وكيف تمكنت أيدي عداه / وطالت حيث قد صفعوا قفاهُ
وهل عاد المسيح إلىٰ حياة / أم المحيي له رب سواهُ
ويا عجبًا لقبر ضم ربًّا / وأعجب منه بطن قد حواهُ
أقام هناك تسعًا من شهور / لدىٰ الظلمات من حيض غذاهُ
وشق الفرج مولودًا صغيرًا / ضعيفًا فاتحًا للثدي فاهُ
ويأكل ثم يشرب ثم يأتي / بلازم ذاك هل هذا إلهُ
تعالىٰ الله عن إفك النصارىٰ / سيسأل كلهم عما افتراهُ
أَعُبَّادَ الصليب لأي معنًىٰ / يعظم أو يقبح من رماهُ
وهل تقضي العقول بغير كسر / وإحراق له ولمن بغاهُ
إذا ركب الإله عليه كرهًا / وقد شدت لتسميرٍ يداهُ
فذاك المركب الملعون حقًّا / فَدُسْه ولا تَبُسْه إذ تراهُ
يهان عليه رب الخلق طرًّا / وتعبده فإنك من عِداهُ
فإن عظمته من أجل أن قد / حوىٰ رب العباد وقد علاهُ

وقـد فقـد الـصليب فـإن رأينـا ... لـــه شـــكلًا تـــذكرنا ســـناهُ

فهـــلا للقبـــور ســـجدت طـــرًّا ... لـــضم القبـــر ربـــك في حـــشاهُ

فيـــا عبـــد المـــسيح أفـــق فهـــذا ... بدايتـــــه وهـــــذا منتهـــــاهُ

اهـ.

قلت: وهذا السؤال العظيم في هذه الأبيات جوابه دين في ذمة جميع النصارىٰ إلىٰ أن ينزل عيسىٰ بن مريم عليه السلام حكمًا عدلًا مقسطًا، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية ولا يقبل من أحد إلا الإسلام.

حادي عشر: أن توحيد الله وإخلاص العمل له سبب للنجاة في الدنيا والآخرة، والشرك والنفاق علىٰ العكس من ذلك عياذًا بالله.

ففي الحديث بيان مآل المشركين والمنافقين، وحسن منقلب المؤمنين الموحدين: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾ [مريم: ٧٥].

ثاني عشر: إثبات شفاعة الأنبياء والملائكة والمؤمنين لأهل الكبائر يوم القيامة.

ثالث عشر: سعة رحمة الله بعباده وعظيم فضله عليهم في الدنيا والآخرة.

رابع عشر: إثبات الصراط وأنه يضرب علىٰ متن جهنم ويمر عليه من يمر علىٰ قدر أعمالهم.

خامس عشر: إثبات صفة الكلام لله تعالىٰ حقيقة وهو دليل علىٰ كماله سبحانه وتعالى.

سادس عشر: إثبات الصفات الفعلية الاختيارية لله عز وجل، ومنها الرضا

والسخط علىٰ الوجه اللائق بجلال الله وكماله كما يدل عليه آخر الحديث.

سابع عشر: أن من فنون الحوار وآدابه تركَ فرصة للمخاطب للسؤال عما يشكل، وإجابته عن ذلك، وهذا كثير في حوارات النبي ﷺ.

٦- عن أبي واقد الليثي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال:

«خرجنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ حنين، وكان للكفار سدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط.

فقال رسول الله ﷺ: «**سبحان الله قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨]، إنها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم سُنة سُنة**»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: ما كان عليه أهل الجاهلية من السفه والضلال، فقد مر بهم النبي ﷺ وأصحابه وهم عاكفون علىٰ شجرة يعظمونها، ويعلقون أسلحتهم بها رجاء بركتها، مع أنه لا يجلب الخير ولا يدفع الضر إلا الله تعالىٰ خالق هذه الشجرة، وخالق كل شيء قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ [يونس: ١٠٧].

ثانيًا: أن الله رحم العباد ببعثة هذا النبي الكريم الذي خلصهم الله به من العقائد الفاسدة، والخرافات المضلة، والتعلق بالأشجار والأحجار وربطهم بالله الواحد

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٢١٨)، والترمذي في «سننه» برقم (٢١٨٠) وغيرهما، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ.

القهار الحي القيوم الذي إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: (كن) فيكون.

ثالثًا: أن علىٰ المحاور الداعي إلىٰ الهدىٰ إذا رأىٰ ما يحتاج إلىٰ شيء من الشدة في الخطاب لينفر عما رآه منكرًا أن يستعمل ذلك، فكل شيء في موضعه حسن، والحكيم من يضع الأمور في مواضعها.

وقديمًا قيل:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازمًا   فَلْيَقْسُ أحيانًا علىٰ من يرحمُ

فالنبي ﷺ سبح الله مستنكرًا طلبهم، ومستعظمًا له، ثم أخبرهم أنهم قالوا كما قال قوم موسىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

رابعًا: أن المحاور إذا احتاج إلىٰ تأكيد كلامه بيمين ونحوها فليفعل، وإن كان المخاطب لا يكذبه في ذلك ليكون ذلك أوقع في النفوس، وهذا من بلاغته وفصاحته ﷺ؛ حيث تحدث في كل مقام بما يناسبه من توكيد وعدمه، فلما كان المقام هنا مقام حماية لجناب التوحيد غضب النبي ﷺ وسبح الله، ثم أقسم علىٰ ما قال، ثم قال: إنها السنن... إلخ، ولكل مقام مقال.

خامسًا: أن ضرب الأمثال وربط الأمور بمثيلاتها من أهم أسباب نجاح المحاور في تحقيق مقصوده والوصول إلىٰ مطلوبه؛ حيث تُخاطب العقول والقلوب معًا، ويُقاس الشاهد علىٰ الغائب، فالنبي ﷺ لما قيل له: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط قال: «**إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسىٰ:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨].

سادسًا: في هذا الحوار دليل من دلائل صدق نبوة هذا النبي الكريم حيث قال: «**لتركبن سنن من كان قبلكم سُنة سُنة**». وقد حصل ما أخبر به النبي ﷺ في أبواب

العقائد والعبادات والمعاملات، فحصل من بعض هذه الأمة تشبُّه بالأمم السابقة في أمور كثيرة نهىٰ عنها الشرع.

سابعًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بأمته وشفقته عليهم، وإخبارهم ببعض ما سيكون تحذيرًا لهم من موارد السوء والهلكة، فقد أنكر علىٰ من قال تلك المقالة، وحذر من سيأتي من أمته مما سيكون قبل أن يكون.

ثامنًا: أن حسن القصد والنية وحده لا يكفي، كما أنه لا يمنع من الإنكار والزجر، فهؤلاء الذين قالوا من الصحابة اجعل لنا ذات أنواط لا شك أنهم ما أرادوا إلا خيرًا، وظنوا جواز ذلك.

ولهذا لم يُقْدموا علىٰ شيء من ذات أنفسهم، ولكنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يجعل لهم ذلك، فبادرهم بالزجر والإنكار المقرون بالحكمة البالغة دون التفات إلىٰ مقصدهم.

٧ـ عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

قال: «صلىٰ بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل علىٰ الناس فقال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟**»».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «**قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»[١].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الأذان، باب: يستقبل الإمام الناس إذا سلم برقم (٨٤٦)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب: بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء برقم (٧١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: شدة حرص النبي ﷺ علىٰ إبطال ما كان يعتقده أهل الجاهلية من أن للنجوم والكواكب تأثيرًا في نزول المطر.

فإن من أعظم مقاصد بعثته ﷺ تخليص الناس من هذه العقائد الفاسدة، وبيان أنه لا يأتي بالخير إلا الله وحده لا شريك له، ولا يصرفه ويمنعه سواه ﷻ بمقتضىٰ علمه وحكمته وقدرته ورحمته.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح مسلم (١/ ٢٤٥): «وأما معنىٰ الحديث: فاختلف العلماء في كفر من قال مطرنا بنوء كذا علىٰ قولين:

أحدهما: هو كفر بالله ﷻ سالب لأصل الإيمان مخرج من ملة الإسلام.

قالوا: وهذا فيمن قال ذلك معتقدًا أن الكوكب فاعل مدبر منشئ للمطر، كما كان بعض أهل الجاهلية يزعم.

ومن اعتقد هذا فلا شك في كفره، وهذا القول هو الذي ذهب إليه جماهير العلماء والشافعي منهم وهو ظاهر الحديث.

قالوا: وعلىٰ هذا لو قال: مطرنا بنوء كذا معتقدًا أنه من الله تعالىٰ وبرحمته، وأن النوء ميقات له وعلامة اعتبارًا بالعادة فكأنه قال: مطرنا في وقت كذا فهذا لا يكفر، واختلفوا في كراهته، والأظهر كراهته لكنها كراهة تنزيه لا إثم فيها، وسبب الكراهة أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره، فيساء الظن بصاحبها، ولأنها شعار الجاهلية ومن سلك مسلكهم». اهـ.

ثانيًا: أن من مكارم أخلاق النبي ﷺ عند خطابه لغيره أنه كان يقبل عليه بوجهه، لا كحال بعض المتكبرين.

ولا شك أن هذا من آداب الحوار وفنونه؛ فإن ذلك يكون أوقع في نفس المخاطب.

ثالثًا: أن من فنون الحوار التي كان يستعملها النبي ﷺ المحادثةَ والتعليمَ بطريقة السؤال والجواب؛ لأن ذلك أبلغ في التفهيم وأدعىٰ لشد الانتباه، وقد كان النبي ﷺ يفعل هذا مرارًا.

رابعًا: أن من فنون الحوار التي كانت من سجايا رسول الله ﷺ ومكارم أخلاقه أنه يتحين الأوقات المناسبة لطرح ما يريد ولا يُفوت الفرص التي يكون للكلام فيها وَقْعٌ أكبر.

خامسًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بأمته، وحرصه علىٰ دلالتهم علىٰ ما ينفعهم وتحذيرهم مما يضرهم؛ حيث لفت انتباههم إلىٰ شكر الله عند حدوث النعم؛ لأن هذا مما يحبه الله ويرضاه، وهو سبب لدوام النعم والزيادة منها.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم:٧].

سادسًا: أن حدوث النعم ابتلاء من الله للعباد لينظر من يشكر نعمه ويكفرها. قال تعالىٰ عن نبيه سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ [النمل: ٤٠].

* * *

الفصل الرابع
حوارات تتجلى فيها مكارم أخلاق نبينا الكريم ﷺ

لقد كان نبينا محمد ﷺ أحسن الناس خلقًا، شهد له بذلك ربه الذي أرسله، وشهد له بذلك أولياؤه وأعداؤه وخدمه ونساؤه.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤].

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ **في تفسيره (١٨ / ٢٢٧)**: «لم يُذكَر خُلُقٌ محمودٌ إلا وكان للنبي ﷺ الحظ الأوفر منه.

وقال الجنيد: سُمِّي خلقه عظيمًا لأنه لم تكن له همة سوىٰ الله تعالىٰ.

وقيل: سُمِّي خلقه عظيمًا لاجتماع مكارم الأخلاق فيه يدل عليه قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق**»...». اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **في «مدارج السالكين» (٢/ ٨٩، ٩٠)**: «وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال جعفر بن محمد رَحِمَهُ اللَّهُ: أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية». اهـ.

وقد استدلت أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بمكارم أخلاقه التي كان عليها قبل بعثته علىٰ حسن عاقبته لمَّا جاء من غار حراء بعد أن لقيه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وغطَّه فجاء خديجة يرجف فؤاده فقالت له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مسلِّية له ﷺ: «كلا والله لا يخزيك أبدًا؛ إنك

لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ[(١)]، وتكسب المعدوم[(٢)]، وتقري الضيف[(٣)]، وتعين علىٰ نوائب الحق[(٤)]»[(٥)].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالىٰ في «الفتح» (١ / ٣٣): «استدلت -خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- علىٰ ما أقسمت عليه من نفي ذلك أبدًا بأمرٍ استقرائي وصفته بأصول مكارم الأخلاق؛ لأن الإحسان إما إلىٰ الأقارب أو إلىٰ الأجانب، وإمَّا بالبدن أو بالمال، وإمَّا علىٰ من يستقل بأمره أو من لا يستقل، وذلك كله مجموع فيما وصفته به». اهـ.

وهذه أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زوج النبي ﷺ يسألها سعد بن هشام بن عامر عن خلق النبي ﷺ فقالت: «ألست تقرأ القرآن؟

قال: بلىٰ.

قالت: فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن.

قال: فهممت أن أقوم ولا أسأل أحدًا عن شيء حتىٰ أموت»[(٦)].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره (٤ / ٥١٧): «ومعنىٰ هذا: أنه ﷺ صار امتثال القرآن أمرًا ونهيًا سجية له وخلقًا تطبَّعه وترك طبعه الجلي، فمهما أمره القرآن

---

(١) الكلَّ: هو من لا يستقل بأمره.
(٢) تكسب المعدوم؛ أي: تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك.
(٣) تطعمه وتكرمه.
(٤) هذه كلمة جامعة لأفراد ما تقدَّم.
(٥) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب بدء الوحي برقم (٣).
(٦) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض برقم (٧٤٦).

فعله ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة، والصفح والحلم، وكل خلق جميل». اهـ.

وهذا خادمه أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي خدمه عشر سنين يقول: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا»(١).

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خدمت النبي ﷺ عشر سنين والله ما قال لي: أُفٍّ قط، ولا قال لي لشيء لم فعلت كذا وهلا فعلت كذا»(٢).

وسأل هرقل أبا سفيان زعيم قريش وكان آنذاك مشركًا: «هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال أبو سفيان: لا.

فقال هرقل: قد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب علىٰ الناس ويكذب علىٰ الله. ثم سأله: هل يغدر؟ فقال أبو سفيان: لا. فقال هرقل: وهكذا الأنبياء لا تغدر»(٣).

بل وصف نبينا ﷺ بمكارم الأخلاق حتىٰ في التوراة.

فعن عطاء بن يسار قال: «لقيت عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة.

قال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحرزًا للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل، باب: كان رسول الله أحسن الناس خلقًا برقم (٢٣١٠).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الأدب، باب: حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل برقم (٦٠٣٨)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل، باب: كان رسول الله أحسن الناس خلقًا برقم (٢٣٠٩).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب بدء الوحي برقم (٧).

المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ، ولا سَخَّابٍ في الأسواق، ولا يدفع بالسيئةِ السيئةَ ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتىٰ يقيم به الملَّة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا»(١).

وإليك أخي القارئ الكريم حوارات تتجلى فيها مكارم أخلاق نبينا ﷺ:

١ ـ صدقه:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]. صعد النبي ﷺ الصفا فجعل ينادي: «**يا بني فهر، يا بني عدي**»، لبطون قريش حتىٰ اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش؛ فقال: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟!**».

قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا!

قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**».

فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟!

فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ [المسد: ١ ـ ٢]»(٢).

وفي هذا الحوار دلالة عظيمة علىٰ ما كان يتصف به نبينا الكريم من الصدق،

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب البيوع، باب: كراهية السخب في الأسواق برقم (٢١٢٥).
(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب التفسير باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، برقم (٤٧٧٠).

وما كان ليترك الكذب علىٰ الناس ويكذب علىٰ رب الناس ﷻ ـ حاشىٰ وكلا ـ وقد شهد له هنا أعداؤه الذين عاب آلهتهم، ودعاهم لترك دينهم الذي هو عبادة الأوثان، وعبادة الله وحده لا شريك له، وكان أحرص ما يكون علىٰ عيبه وتنقصه ورد ما جاء به، ومع ذلك يقولون له: «ما جربنا عليك إلا صدقًا». والحق ما شهدت به الأعداء.

حقًّا إنه رسول الله الصادق الأمين الذي جاء بالصدق قولًا وعملًا، ظاهرًا وباطنًا في أحسن أحواله وأشدها كربًا، فهو القائل ﷺ: «**إن الصدق يهدي إلىٰ البر وإن البر يهدي إلىٰ الجنة، وإن الكذب يهدي إلىٰ الفجور وإن الفجور يهدي إلىٰ النار**».

فالنبي ﷺ دعا إلىٰ الصدق ورغب فيه لما فيه من صلاح العباد والبلاد.

الصدق في كل نواحي الحياة في العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملة والسياسة مع الأولياء ومع الأعداء، وبذلك ينعم الناس بالثقة والطمأنينة، وبهذا تعرف زيف وقبح إطلاق المقولة المشهورة: إن السياسة مبنية علىٰ الكذب.

فنقول: نعم إن السياسة الشيطانية سياسة شريعة الغاب مبنية علىٰ الكذب، أما السياسية الشرعية التي جاء بها من أراد صلاح الراعي والرعية فمبنية علىٰ الصدق والعدل.

٢ ـ وفاؤه ﷺ ومجانبته للغدر:

١- عن أبي رافع رضي الله عنه قال:

«بعثتني قريش إلىٰ رسول الله ﷺ، فلما رأيت رسول الله أُلْقِي في قلبي الإسلام فقلت: يا رسول الله، والله لا أرجع إليهم أبدًا.

فقال رسول الله ﷺ: «**إني لا أخيس**[١] **بالعهد، ولا أحبس البُرُد**[٢] **ولكن ارجع إليهم فإن كان في نفسك الذي بنفسك الآن فارجع**».

قال: فذهبت ثم أتيت النبي ﷺ فأسلمت»[٣].

ومما يستفاد من هذا الحوار العظيم:

أولًا: عظيم وفاء النبي ﷺ بالعهد، فهذا رسول كفار قريش إليه في زمن العهد الذي أبرمه معهم يعرض عليه الإسلام وألا يرجع إلىٰ من أرسله، فيأبىٰ ذلك النبي ﷺ، وكان يقدر علىٰ قبول إسلامه وأمره بالرجوع إليهم ليكون عينًا للنبي ﷺ بينهم، وعميلًا له في أوساطهم، كما يفعله كثير من الناس اليوم.

ولكن أخلاق النبوة تأبىٰ هذا الغدر وهذه الخيانة ولو كانت مع الأعداء، ومع شدة الحاجة إلىٰ معرفة أسرارهم وأحوالهم عن قرب.

ثانيًا: حسن تعليم النبي ﷺ وكريم خلقه حيث بين لرسول قريش السبب في عدم قبول إقامته في المدينة قائلًا: «**إني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد**». لئلا يقع في نفس الرجل شيء، وهذا من فنون الحوار وآدابه.

ثالثًا: أن من أغلق علىٰ الناس بابًا ممنوعًا ينبغي أن يفتح لهم بابًا مشروعًا إن أمكن، ليكون بديلًا مناسبًا، فإن النبي ﷺ قال لرسول قريش: «**ارجع إليهم فإن كان في نفسك الذي بنفسك الآن فارجع**». وهذا أيضًا من آداب الحوار النبوي.

---

(١) أي: لا أنقضه. «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٩٢).

(٢) في «النهاية» لابن الأثير: «أي: لا أحبس الرسل الواردين علي». اهـ.

(٣) أخرجه أبو داود في «سننه» كتاب الجهاد، باب: في الإمام يستجن به في العهود برقم (٢٧٥٨)، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٢- عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«ما منعني أن أشهد بدرًا إلا أني خرجت أنا وأبي حسيل، قال: فأخذنا كفار قريش قالوا: إنكم تريدون محمدًا! فقلنا: ما نريده ما نريد إلا المدينة.

فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلىٰ المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر.

فقال: «**انصرفا نفي بعهدهم ونستعين الله عليهم**»(١).

ويستفاد من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عظيم وفاء النبي ﷺ بالعهد لأعدائه الذين تجمعوا لقتاله، وعددهم وعدتهم أضعاف عدده وعدته، مع كفرهم بالله وإخراجهم له من مكة وأذيته وأذية أصحابه، فصلوات الله وسلامه عليه ما أوفاه بالعهد، وأبعدَه عن الغدر!

فليستفد العالم كله من هذه الأخلاق الكريمة، والمواقف النبيلة، فقد امتلأت الأرض بالخيانة والغدر في السلم والحرب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثانيًا: عظيم ثقة النبي ﷺ بربه واستعانته به، وقد نصره الله علىٰ أعدائه ومكنه منهم، فقد قال ﷺ لحذيفة وأبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**انصرفا نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم**».

٣- شجاعته ﷺ:

١- عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال:

«غزونا مع رسول الله ﷺ قِبَل نجدٍ فأدركنا رسول الله ﷺ في وادٍ كثير العِضَاهِ،

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الجهاد والسير، باب: الوفاء بالعهد برقم (١٧٨٧).

فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة، فعلق سيفه بغصن من أغصانها.

قال: وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر.

فقال رسول الله: «**إن رجلًا أتاني وأنا نائم فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم علىٰ رأسي، فلم أشعر إلا والسيف صلتًا في يده، فقال لي: من يمنعك مني؟ قال: قلت: الله. ثم قال في الثانية: من يمنعك مني؟**

قال: قلت: الله. فشام السيف – أي: أدخله في غمده – **فها هو جالس ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ**»(١).

ومما يستفاد من هذا الحوار مايلي:

أولًا: عظيم شجاعة النبي ﷺ وثقته بالله، حيث لم يفزع ولم يستغث بأحد من أصحابه في هذا الموقف العصيب.

ثانيًا: عظيم حلم النبي ﷺ وعفوه حيث إنه لم يعاقب هذا الرجل الذي أراد قتله.

ثالثًا: حفظ الله ﷻ لنبيه ﷺ.

هذا؛ وقد قاد النبي ﷺ بنفسه تسع عشرة غزوة، وواجه كفار قريش بالدعوة قبل هجرته إلىٰ المدينة مع قلة من آمن به، وكاتب ملوك الأرض بعد الهجرة يدعوهم إلىٰ الإسلام مع قوة سلطانهم وكثرة عددهم ونفوذهم في الأرض، وكل ذلك يدل علىٰ بطولته وعظيم بسالته ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب المغازي، باب: غزوة بني المصطلق برقم (٤١٣٩)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل، باب: توكله علىٰ الله وعصمته من الناس برقم (٨٤٣).

٤- عدله وحزمه ﷺ:

عن عائشة رضي الله عنها: «أن قريشًا أهمَّهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلِّم فيها رسول الله ﷺ؟

فقالوا: من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ.

فأتىٰ بها رسول الله فكلمه فيها أسامة بن زيد.

فتلوَّن وجه رسول الله ﷺ فقال: «**أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟!**».

فقال أسامة بن زيد: استغفر لي يا رسول الله.

فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاختطب فأثنىٰ علىٰ الله بما هو أهله ثم قال: «**أما بعد: فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها، ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقُطِعَتْ يدها**»(١).

وفي هذا الحوار العظيم تتضح جوانب عدالة النبي ﷺ؛ حيث لم يحابِ أسامة بن زيد حين شفع لتلك المرأة، مع أنه من أحب الناس إليه، ولم يحاب قريشًا حين أهمهم شأن تلك المرأة التي كانت من أشرافهم، بل أمر بقطع يدها وقال: والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.

نعم؛ إن عدالة هذا الدين العظيم الذي بعث به نبينا ﷺ كفيلة بحل مشاكل العالم، ورفع الظلم والمعاناة عنه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب أحاديث الأنبياء برقم (٣٤٧٥)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الحدود، باب: قطع يد السارق الشريف وغيره برقم (١٦٨٨).

وسيأتي بقية الدروس المستفادة من هذا الحوار العظيم في الحدود.

٥- عفوه ﷺ عن أعدائه الذين ظلموه ورحمته بهم وصبره وحلمه عليهم:

١- عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت:

«قلت: يا رسول الله، هل أتىٰ عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟

قال: «**لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي علىٰ ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلىٰ ما أردت.**

فانطلقت وأنا مهموم علىٰ وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم.

فناداني ملك الجبال فسلَّم عليَّ ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين -جَبَلَا مكة-.

فقال ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا»(١).

٢- عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«لما توفي عبد الله بن أُبيٍّ جاء ابنه عبد الله إلىٰ رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يُكفِّنُ فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم آمين برقم (٣٢٣١)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الجهاد، باب: ما لقي ﷺ من أذىٰ المشركين والمنافقين برقم (١٧٩٥).

عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله فقال: يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟

فقال رسول الله ﷺ: إنما خيَّرني الله فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠]، وسأزيد علىٰ السبعين. قال عمر بن الخطاب: إنه منافق؟

قال: فصلىٰ عليه النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة: ٨٤]»(١).

أيها القارئ الكريم: لعله ترسخ في عقلك وقلبك أكثر وأكثر أن هذا النبي الكريم بعثه الله رحمة للعالمين، وأنه كان رحمة علىٰ أوليائه وأعدائه، ولم يكن يومًا من الدهر نقمة، وأنه سبىٰ القلوب والعقول بعطفه وعفوه وصفحه؛ لأن همه الأكبر تعبيد الناس لرب الناس.

إن هذه الأخلاق الطاهرة كفيلة بتهذيب النفوس، وإزالة الشرور وسلامة الصدور، وتقوية الروابط الاجتماعية وهضم النفس لأجل الله تبارك وتعالى.

أيها القارئ الكريم: ماظنك لو كانت هذه الأخلاق الكريمة جزءًا من تعامل الناس في حياتهم اليومية أي مجتمع سنعيش فيه؟!

إن هذا جزء مما جاء به نبينا الرحيم وأمرنا ربنا أن نكون عليه، وإنه ليسير علىٰ من يسره الله عليه.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب التفسير، باب: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ برقم (٤٦٧١).

٣- عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

قال رسول الله ﷺ: «**لما كان ليلة أسري بي وأصبحت بمكة، فظعت بأمري وعرفت أن الناس مكذبي، فقعدت معتزلًا حزينًا**».

قال: فمر عدو الله أبو جهل فجاء حتىٰ جلس إليه فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟

فقال رسول الله ﷺ: «نعم».

قال: ما هو؟

قال: «**إنه أسري بي الليلة**».

قال: إلىٰ أين؟

قال: «**إلىٰ بيت المقدس**».

قال: وأصبحت بين ظهرانينا؟

قال: «**نعم**».

فلم ير أنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إذا دعا قومه إليه.

قال: أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني.

فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**».

فقال: هيا معشر بني كعب بن لؤي. قال: فانتفضت إليه المجالس وجاءوا حتىٰ جلسوا إليهما.

قال: حدث قومك بما حدثتني.

فقال رسول الله ﷺ: «**إنه أسري بي الليلة**».

قالوا: إلىٰ أين؟

قال: «**إلىٰ بيت المقدس**».

قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟

قال: «**نعم**».

قال: فمن بين مصفق ومن بين واضع يده علىٰ رأسه متعجبًا للكذب زعم.

قالوا: وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد، وفي المسجد من قد سافر إلىٰ ذلك البلد ورأىٰ المسجد؟

فقال رسول الله ﷺ: «**فذهبت أنعت فما زلت أنعت حتىٰ التبس علي بعض النعت، قال: فجيء بالمسجد وأنا أنظر حتىٰ وضع دون دار عقال، أو عقيل، فنعته وأنا أنظر إليه، قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه**».

فقال القوم: أما النعت فوالله قد أصاب[(١)].

مما يستفاد من هذا الحوار:

أولًا: شدة أذىٰ قريش للنبي ﷺ وسخريتهم واستهزائهم به وتمالُئِهم علىٰ ذلك، وعظيم حلم النبي ﷺ وصبره عليهم.

ثانيًا: عظيم عناية الله سبحانه وتعالى بنبيه ﷺ؛ فقد كان في قصة الإسراء والمعراج أعظم تسلية للنبي ﷺ في تلكم الظروف العصيبة.

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (١/ ٣٠٩) وقال الشيخ مقبل الوادعي رحمه الله في «الصحيح المسند» (١/ ٤٨٤): «هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين».

ثالثًا: عظيم صلف كفار قريش وعنادهم، فقد نعت لهم النبي ﷺ بيت المقدس لما سألوه عنه مع علمهم أنه لم يره من قبل أو يذهب إليه، ومع ذلك لم يؤمنوا به مع تصديقهم له في نعت بيت المقدس.

٤- عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت:

«استأذن رهط من اليهود علىٰ رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم. فقالت عائشة: بل عليكم السام واللعنة!

فقال رسول الله ﷺ: «**يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله**».

قالت: ألم تسمع ما قالوا؟

قال: «**قد قلت وعليكم!**»[(١)].

وفي رواية لمسلم: «أن رسول الله قال لعائشة: «**يا عائشة لا تكوني فاحشة**». فقالت: أَمَا سمعت ما قالوا؟

فقال: «**أوليس قد رددت عليهم الذي قالوا؟ قلت: وعليكم**».

ومما يستفاد من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: رفق النبي ﷺ وحثه علىٰ ذلك وإخباره أن الله يحب الرفق في الأمر كله.

ثانيًا: عدله ﷺ مع أوليائه وأعدائه فقد أجاب اليهود الذين دعوا عليه بالموت بقوله: «**وعليكم**» وزجر أحب الناس إليه وهي زوجته عائشة لما أخذتها الحمية علىٰ

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الاستئذان، باب: كيف الرد علىٰ أهل الذمة بالسلام برقم (٦٢٥٦)، ومسلم في «صحيحه» كتاب السلام، باب: النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف الرد عليهم برقم (٢١٦٥).

زوجها رسول الله ولعنت من دعا عليه بالموت وقال لها: «**لا تكوني فاحشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله**».

ثالثًا: تواضع النبي ﷺ حيث كان يأذن لأعدائه بالدخول عليه والحديث إليه.

رابعًا: عفوه ﷺ حيث لم يعاقب هؤلاء اليهود الذين دعوا عليه بالموت في وجهه بل زجر عائشة لما لعنتهم.

خامسًا: حسن تعليم النبي ﷺ حيث كان يقرن الحكم بعلته، فقد زجر عائشة علىٰ لعنها لليهود، وعلل ذلك بأن الله يحب الرفق في الأمر كله.

وفي هذا مخاطبة للعقل والقلب معًا، وذلك مدعاة لقبول الحكم والطمأنينة إليه.

٦ ـ عفوه ﷺ وصفحه وإعراضه عن الجاهلين.

قال تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وكانت سيرته ﷺ واقعًا عمليًّا لما أمره الله به.

١- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

«كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه بردٌ نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبةً شديدةً حتىٰ نظرت إلىٰ صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثَّرت به حاشية الرداء من شدَّة جذبته، ثم قال: مُرْ لي من مال الله الذي عندك. فالتفت النبي ﷺ إليه فضحك ثم أمر له بعطاءٍ»(١).

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب فرض الخمس، باب: ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم برقم (٣١٤٩)، ومسلم في صحيحه كتاب الزكاة، باب: إعطاء من سأل بفحش وغلظة برقم (١٠٥٧).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عظيم حلم النبي ﷺ وعفوه حيث قابل إساءة الأعرابي الفعلية بالضحك، وإساءته القولية بالعطاء.

ولا حلم فوق هذا مع شرف القدر وعلو المكانة، وعظم إساءة الأعرابي إليه قولًا وعملًا.

ثانيًا: الدفع بالتي هي أحسن، ومقابلة الإساءة بالإحسان لاسيما مع الجاهل الذي يرجىٰ تأليفه.

٢- عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت:

«ابتاع رسول الله ﷺ من رجلٍ من الأعراب جزورًا أو جزائر بوسق من تمر الذخرة -وتمر الذخرة هو العجوة- فرجع به رسول الله ﷺ إلىٰ بيته فالتمس له التمر فلم يجده، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال له: «**يا عبد الله، إنَّا قد ابتعنا منك جزورًا أو جزائر بوسق من تمر الذخرة فالتمسناه فلم نجده**».

فقال الأعرابي: وا غُدَرَاه!

فنهمه الناس وقالوا: قاتلك الله أيغدر رسول الله ﷺ؟!

فقال رسول الله ﷺ: «**دعوه فإن لصاحب الحق مقالًا!**».

ثم عاد له رسول الله فقال: «**يا عبد الله، إنا ابتعنا منك جزائرك ونحن نظن أن عندنا ما سمَّيناه لك فالتمسناه فلم نجده**».

فقال الأعرابي: وا غدراه.

فنهمه الناس وقالوا: قاتلك الله أيغدر رسول الله ﷺ؟!

فقال رسول الله ﷺ: «**دعوه فإن لصاحب الحق مقالًا!**».

فردَّد رسول الله ﷺ مرتين أو ثلاثًا، فلما رآه لا يفقه عنه قال لرجلٍ من أصحابه: «**اذهب إلىٰ خويلة بنت حكيم بن أمية فقل لها رسول الله يقول لك: إن كان عندكِ وسقٌ من تمر الذخرة فأسلفيناه حتىٰ نؤديه إليك إن شاء الله**».

فذهب إليها الرجل ثم رجع فقال: قالت نعم هو عندي يا رسول الله فابعث من يقبضه، فقال الرسول ﷺ للرجل: «**اذهب به فأوفه الذي له**».

فذهب به فأوفاه الذي له، فمر الأعرابي برسول الله ﷺ وهو جالس في أصحابه فقال: جزاك الله خيرًا قد أوفيت وأطيبت.

فقال رسول الله ﷺ: «**أولئك خيار عباد الله يوم القيامة المُوَفُّون المطيبون**»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار مايلي:

أولًا: عظيم حلم النبي ﷺ وصفحه وإعراضه عن الجاهلين، مع شرف مرتبته وعلو مقامه، وقدرته علىٰ معاقبة هذا الأعرابي، بل تركه قال ما قال مرتين أو ثلاثًا وهو يقول لمن انتهره: «**دعوه فإن لصاحب الحق مقالًا**».

ثانيًا: أن من آداب الحوار وفنونه سعة الصدر للمحاور، واحتمال ما قد يصدر منه من قول خشن، لاسيما إذا كان جاهلًا أو متأولًا.

ثالثًا: أن من آداب الحوار إبداء العذر بلطف إن صدر من الأقوال أو الأعمال ما قد يظن بسببه، ظنًّا سيئًا، فإن النبي ﷺ قال للأعرابي: «**يا عبد الله، إنا قد ابتعنا منك**

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٢٦٩)، والحاكم في «مستدركه» (٢/ ٣٢) والبيهقي في «الكبرىٰ» (٦/ ٢٠) وغيرهم وسنده حسن.

جزورًا أو جزائر بوسق من تمر الذخرة فالتمسناه فلم نجده».

رابعًا: أن من آداب الحوار وفنونه تكرار الكلام؛ إذ ظن المتكلم أن المخاطب لم يعِ مقالته ولم يفهمها، فقد كرر النبي ﷺ الكلام علىٰ الأعرابي مرارًا.

خامسًا: تواضع النبي ﷺ وذلك من جلوسه في أصحابه، ومباشرته شراء الجزور بنفسه واقتراضه من امرأة من نساء أصحابه.

٧ ـ تواضعه ﷺ وبغضه للإطراء:

١- عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال:

«إنَّا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة فجاءوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق.

فقال: «أنا نازل».

ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب في الكدية فعاد كثيبًا أَهْيَلَ(١). فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلىٰ البيت.

فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئًا ما كان في ذلك صبر فعندك شيء؟

فقالت: عندي شعير وعناق، فذبحت العناق وطحنت الشعير حتىٰ جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر واللحم بين الأثافي قد كادت أن تنضج.

فقلت: طُعَيِّمٌ لي فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان.

---

(١) أي: صار رملًا يسيل ولا يتماسك. قاله الحافظ.

قال: «**كم هو؟**» فذكرت له.

فقال: «**كثير طيب**». قال: «**قل لها: لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتىٰ آتي**».

فقال: «**قوموا**». فقام المهاجرون والأنصار.

فلما دخل علىٰ امرأته قال: ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم.

قالت: هل سألك؟

قلت: نعم.

فقال ﷺ: «**ادخلوا ولا تضاغطوا**».

فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمِّر البرمة والتنور إذا أخذ منه ويقرِّب إلىٰ أصحابه ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتىٰ شبعوا وبقي بقية فقال: «**كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابهم مجاعة**»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

عظيم تواضع النبي ﷺ وذلك يتمثل في أمور:

أ ـ مشاركته لأصحابه في حفر الخندق.

ب ـ إجابته دعوة أصحابه.

ج ـ تهيئته ﷺ الطعام لأصحابه.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب المغازي، باب: غزوة الخندق برقم (٤١٠١).

د ـ تقريبه ﷺ الطعام إليهم وحرصه علىٰ ألا يزدحموا عليه.

٢- عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أنَّ ناسًا قالوا: يا رسول الله ويا سيدنا وابن سيدنا.

فقال: «**يا أيها الناس، قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عَزَّ وَجَلَّ**»(١).

ومما يستفاد من هذا الحوار:

أولًا: تواضع النبي ﷺ حيث لم يرض بإطراء من أطراه بل أنكره وقال: «**أنا محمد عبد الله ورسوله**»، فبدأ بالعبودية قبل الرسالة.

ثانيًا: أن الغلو في المدح من مزالق الشيطان وكيده التي يجب الحذر منها والبعد عنها.

ثالثًا: أنه ينبغي لمن سمع من يطريه أن ينكر ذلك ولا يقبله، وأن يبين له المحاذير المترتبة علىٰ ذلك إن أمكن.

٣- عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه، وإن الجمل استصعب عليه فمنعهم ظهره، وإن الأنصار جاءوا إلىٰ رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نسني عليه، وإنه استصعب علينا ظهره وقد عطش الزرع والنخل.

فقال رسول الله لأصحابه: «**قوموا**».

---

(١) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٢٤٨) وسنده حسن.

فقاموا فدخل الحائط والجمل في ناحية فمشىٰ النبي ﷺ نحوه.

فقالت الأنصار: يا نبي الله، إنه قد صار مثل الكَلْب الكَلِب وإنا نخاف عليك صولته.

فقال: «**ليس عليَّ منه بأس**» فلما نظر الجمل إلىٰ رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتىٰ خرَّ ساجدًا بين يديه.

فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذل ما كانت قط حتىٰ أدخله في العمل.

فقال أصحابه: يا رسول الله هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك ونحن نعقل فنحن أحق أن نسجد لك.

فقال: «**لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عِظَم حقِّه عليها، والذي نفسي بيده لو كان من قدمه إلىٰ مفرق رأسه قرحة تنبجس بالقيح والصديد ثم استقبَلَتْه فلحسته ما أدَّت حقه**»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: تواضع النبي ﷺ، ويتضح ذلك مما يلي:

أ- مخالطته ﷺ لأصحابه وقضاء حوائجهم الخاصة، وسماع شكواهم، ومشيه معهم.

ب- أخذه ﷺ بناصية الجمل حتىٰ رده في عمله.

ج- نهيه ﷺ لأصحابه عن السجود له.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٣/ ١٥٨) والضياء في «المختارة» (١٨٩٥) والبزار (٢٤٥٤)، وجوَّد إسناده ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في «البداية والنهاية» (٦ / ١٥٥).

ثانيًا: حسن تعليمه ﷺ حيث كان يقرن الحكم بعلته، وفي ذلك إعمال للعقل كما أنه أدعىٰ لقبول الحكم، فإن أصحابه لما رأوا البعير سجد له قالوا: «يا رسول الله، هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك ونحن نعقل فنحن أحق أن نسجد لك!».

فأجابهم ﷺ بجواب مقرون بالعلة قائلًا: «**لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عِظَم حقِّه عليها**».

خامسًا: مشروعية الحلف لتأكيد الكلام وإن لم يستحلف؛ حيث قال ﷺ: «**ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عِظَم حقَّه عليها، والذي نفسي بيده لو كان من قدمه إلىٰ مفرق رأسه قرحة تنبجس بالقيح والصديد ثم استقبلَتْه فلحسته ما أدَّت حقه**».

سادسًا: في الحوار السابق علم من أعلام نبوة نبينا ﷺ حيث سجد له البعير لما رآه.

سابعًا: فضل الزوج علىٰ زوجته وعظيم حقه عليها، وفي هذا رد علىٰ دعاة التسوية بين الرجال والنساء.

٨ ـ زهده ﷺ في الدنيا وعظيم رغبته في الآخرة:

١- عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:

«دخلت علىٰ رسول الله ﷺ وهو مضطجع علىٰ حصير فجلست، فأدنىٰ عليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ﷺ فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ومثلها قرظًا في ناحية الغرفة وإذا أفيق معلق، قال: فابتدرت عيناي.

فقال رسول الله ﷺ: «**ما يبكيك يا بن الخطاب؟**».

قلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرىٰ فيها إلا ما أرىٰ، وذاك قيصر وكسرىٰ في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله وصفوته وهذه خزانتك؟!

فقال: «**يا بن الخطاب، ألا ترضىٰ أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟!**». قلت: بلىٰ»[(١)].

ومما يستفاد من هذا الحوار العظيم:

أولًا: زهد نبينا ﷺ في الدنيا وعظيم رغبته في الآخرة، مع أنه لو شاء لسأل الله أن يجعل له الجبال ذهبًا وفضة، ولكنه آثر الباقي علىٰ الفاني، آثر الآخرة علىٰ الدنيا.

ثانيًا: أنه ينبغي للشخص قبل أن ينكر الشيء أن يسأل عن سببه، فالنبي ﷺ سأل عمر عن سبب بكائه قبل بيان الأمر له.

ثالثًا: أنه ينبغي للكبير والمطاع والمتبوع أن يعلق الناس لاسيما الأتباع بالدار الآخرة ويحببها إلىٰ قلوبهم.

رابعًا: أنه ينبغي لمن أنكر قولًا أو فعلًا أن يبين وجه خطأ ذلك القول أو الفعل، ليكون ذلك أدعىٰ للقبول، وهذا من فنون الحوار وعلامات نجاح المحاور.

خامسًا: أن من فنون الحوار ومقومات نجاحه استخدام السؤال لتقرير المطلوب؛ فالنبي ﷺ قال لعمر بعد أن قال ما قال: «**ألا ترضىٰ أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟!**».

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب التفسير، باب: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ برقم (٤٩١٣)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الطلاق، باب: بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا برقم (١٤٧٩).

٢- عن عبد الله الهوزني قال:

«لقيت بلالًا مؤذن رسول الله ﷺ بحلب فقلت: يا بلال حدثني كيف كانت نفقة رسول الله ﷺ.

قال: ما كان له شيء، كنت أنا الذي ألي ذلك منه منذ بعثه الله حتىٰ توفي رسول الله ﷺ، وكان إذا أتاه الإنسان مسلمًا فرآه عاريًا يأمرني فأنطلق فأستقرض فأشتري له البردة فأكسوه وأطعمه، حتىٰ استعرضني رجل من المشركين فقال: يا بلال، إن عندي سعة فلا تستقرض من أحد إلا مني ففعلت.

فلما أن كان ذات يوم توضأت ثم قمت لأؤذن بالصلاة، فإذا المشرك قد أقبل في عصابة من التجار، فلما أن رآني قال: يا حبشي؟ قلت: يا لباه. فتجهمني وقال لي قولًا غليظًا، وقال لي: أتدري كم بينك وبين الشهر؟

قال: قلت: قريب. قال: إنما بينك وبينه أربع فآخذك بالذي عليك فأردك ترعىٰ الغنم كما كنت قبل ذلك.

فأخذ في نفسي ما يأخذ في أنفس الناس. حتىٰ إذا صليت العتمة رجع رسول الله ﷺ إلىٰ أهله فاستأذنت عليه فأذن لي.

قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي إن المشرك الذي كنت أتدين منه قال لي كذا وكذا، وليس عندك ما تقضي عني ولا عندي وهو فاضحي.

فأذن لي أن آبق إلىٰ بعض هؤلاء الأحياء الذين قد أسلموا حتىٰ يرزق الله تعالىٰ رسوله ﷺ ما يقضي عني.

فخرجت حتىٰ إذا أتيت منزلي فجعلت سيفي وجرابي ونعلي ومجني عند رأسي، حتىٰ إذا انشق عمود الصبح الأول أردت أن أنطلق فإذا إنسان يدعو: يا بلال أجب رسول الله ﷺ.

فانطلقت حتىٰ أتيته فإذا أربع ركائب مناخات عليهن أحمالهن.

فاستأذنت فقال لي رسول الله ﷺ: «**أبشر فقد جاء الله بقضائك**».

ثم قال: «**ألم تر الركائب المناخات الأربع؟**».

فقال: بلىٰ.

فقال: «**إن لك رقابهن وما عليهن؛ فإن عليهن كسوةً وطعامًا أهداهن إلي عظيم فدك، فاقبضهن واقض دينك**». ففعلت.

ثم انطلقت إلىٰ المسجد فإذا رسول الله ﷺ قاعد في المسجد فسلمت عليه فقال: ما فعل ما قِبَلَك؟

قلت: قد قضىٰ الله تعالىٰ كل شيء كان علىٰ رسول الله ﷺ، فلم يبق منه شيء. قال: «**أفَضَلَ شيء؟**» قلت: نعم.

قال: «**انظر أن تريحني منه، فإني لست بداخل علىٰ أحد من أهلي حتىٰ تريحني منه**».

فلما صلىٰ رسول الله ﷺ العتمة دعاني فقال: «**ما فعل الذي قِبَلَك؟**».

قال: قلت: هو معي لم يأتنا أحد فبات رسول الله ﷺ في المسجد.

وقص الحديث، حتىٰ إذا صلىٰ العتمة يعني من الغد دعاني.

قال: «**ما فعل الذي قِبَلَك؟**».

قال: قلت: قد أراحك الله منه يا رسول الله؛ فكبر وحمد الله شفقًا من أن يدركه الموت وعنده ذلك، ثم اتبعته حتىٰ إذا جاء أزواجه فسلم علىٰ امرأةٍ امرأةٍ، حتىٰ أتىٰ مبيته فهذا الذي سألتني عنه»(١).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٨/ ٣٠٦) وقال الشيخ مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيح المسند» (١/ ١٣٦): «هذا حديث حسن».

ومما يستفاد من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: زهد النبي ﷺ في الدنيا وتقلله منها، كما شهد بذلك خادمه بلال الذي كان يتولىٰ أمور النفقة للنبي ﷺ.

ثانيًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بأصحابه وعنايته بهم، فقد كان يقترض ليطعم جائعهم ويكسو عاريهم.

ثالثًا: حسن عشرة النبي ﷺ لخدمه وأعوانه، وشفقته عليهم، فبلال لما أصابه ما أصابه بسبب عجزه عن قضاء دين رسول الله، وهمَّ بالارتحال من المدينة أرسل إليه رسول الله لما جاء الفرج من الله قبل الصبح يبشره بأن الله قد يسر بقضاء الدين، ولما تأخر بلال في إنفاق ذلك المال لم يعاقبه رسول الله ﷺ ولا عاتبه علىٰ ذلك.

رابعًا: حسن سياسة النبي ﷺ الخارجية؛ فقد كان يقبل هدايا عظماء الكفار تأليفًا لهم واتقاءً لشرهم؛ فالركائب التي قضىٰ دينه منها كانت هدية من عظيم فدك.

خامسًا: شدة حرص النبي ﷺ علىٰ رد الحقوق إلىٰ أهلها، وقضاء الديون حتىٰ إنه امتنع من الدخول علىٰ أهله وبات في المسجد حتىٰ أنفق بلال كل ما عنده، حتىٰ إن مما قال رسول الله ﷺ لبلال لما أخبره أنه قد بقي من المال بقية: «**انظر أن تريحني منه؛ فإني لست بداخل علىٰ أحد من أهلي حتىٰ تريحني منه**». ثم لما قال له بلال بعد فراغه من ذلك المال: قد أراحك الله منه يا رسول الله. كبر رسول الله وحمد الله شفقًا من أن يدركه الموت وعنده شيء من ذلك.

وهذا يدل علىٰ عظيم تعلق النبي ﷺ بالله والدار الآخرة، وزهده بالدنيا وإعراضه عنها، فبلال يأتيه ويقول له: «قد أراحك الله منه المال ورسول الله ﷺ يعبر عن شدة فرحه وسروره بذلك فيكبر الله ويحمده علىٰ ذلك خوفًا من أن يدركه

الموت وعنده بقية من ذلك.

وقد مات رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بأوسق من شعير، وقال لأمته: «**إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة**».

٩ ـ رحمته ﷺ:

١- عن أسامه بن زيد رضي الله عنه قال:

«أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه أن ابنًا لي قُبِضَ فأتنا فأرسل يقرئ السلام ويقول: «**إن لله ما أخذ وله ما أعطىٰ، وكلٌّ شيء عنده بأجل مُسَمًّى، فلتصبر ولتحتسبْ**».

فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينَّها، فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فَرُفِعَ إلىٰ رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع ففاضت عيناه ﷺ.

فقال سعد: ما هذا؟

فقال: رسول الله ﷺ: «**هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»(١).

ومما يستفاد من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عظيم رحمة النبي ﷺ حيث أجاب دعوة ابنته في هذا الظرف، وحمل الصبي وهو يحتضر ففاضت عيناه ثم قال: «**هذه رحمة**».

ثانيًا: تواضع النبي ﷺ لما سبق ولمماشاته لأصحابه.

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الجنائز، باب: قول النبي ﷺ: «**يعذب الميت ببكاء أهله عليه**» برقم (١٢٨٤).

ثالثًا: أنه ينبغي للمفضول والتابع أن يسأل الفاضل والمتبوع عما يراه مشكلًا من قوله أو فعله.

وينبغي للمتبوع أن يزيل الإشكال برفق وحكمة كما فعل النبي ﷺ.

٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«قبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدًا.

فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «**من لا يَرحم لا يُرحم**»(١).

٣- عن شداد بن الهاد رضي الله عنه قال:

«خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدىٰ صلاتي العشاء وهو حامل حسنًا أو حسينًا، فتقدَّم رسول الله ﷺ فوضعه ثم كبَّر للصلاة، فسجد بين ظهراني صلاته سجدةً أطالها، فرفعت رأسي وإذا الصبي علىٰ ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد فرجعت إلىٰ سجودي.

فلما قضىٰ رسول الله ﷺ الصلاة قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت بين ظهراني صلاتك سجدةً أطلتها، حتىٰ ظننا أنه قد حدث أمرٌ أو أنه يوحىٰ إليك.

قال: «**كل ذلك لم يكن ولكن، ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتىٰ يقضي حاجته**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الأدب، باب: رحمة الولد وتقبيله برقم (٥٩٩٧)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل، باب: رحمة الصبيان والعيال برقم (٢٣١٨).

(٢) أخرجه النسائي في «سننه» كتاب التطبيق، باب: هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة؟ برقم (١١٤١)، وصححه العلامة الألباني.

ومما يستفاد من هذين الحديثين ما يلي:

أولًا: عظيم رحمة النبي ﷺ وتواضعه حيث قبَّل الصبيان، وترك الحسن أو الحسين علىٰ ظهره وهو ساجد يصلي بالناس حتىٰ قضىٰ حاجته من الركوب.

ثانيًا: أن المحاور إذا سمع ما ينكر فينبغي المبادرة إلىٰ إنكاره، وإيراد الدليل أو التعليل علىٰ ذلك، فالنبي ﷺ أنكر علىٰ الأقرع بن حابس قوله: إن لي عشرة من الولد ما قبلت أحدًا منهم. وقال له: «**من لا يَرحم لا يُرحم**». مع أنه سيدٌ مطاعٌ في قومه.

رابعًا: أن الجزاء من جنس العمل لقول النبي ﷺ: «**من لا يَرحم لا يُرحم**».

١٠ ـ رفقه ﷺ بالجاهل وحسن تعليمه له:

١- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

«بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد دخل رجل علىٰ جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال لهم: أيكم محمد؟

والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم.

فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ.

فقال له الرجل: ابنَ عبد المطلب!

فقال له النبي ﷺ: «**قد أجبتك**».

فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تَجِدْ علي في نفسك. فقال: «**سل عما بدا لك**».

فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلىٰ الناس كلهم؟

فقال: «**اللهم نعم**».

قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟

قال: «**اللهم نعم**».

قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟

قال: «**اللهم نعم**».

قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها علىٰ فقرائنا؟

فقال النبي ﷺ: «**اللهم نعم**».

فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام ابن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر»(١).

ومما يستفاد من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: تواضع النبي ﷺ حيث كان يجلس بين أصحابه في المسجد بحيث يأتي الغريب فلا يميزه من غيره.

ثانيًا: كريم خلق النبي ﷺ حيث صبر علىٰ فضاضة خطاب الأعرابي وتشديده فقد قال: «**أيكم محمد**»، وقال: «**إني سائلك ومشدد عليك في المسألة فلا تجد علي في نفسك**»، وكرر سؤاله بالله، وقد كانت عاقبة صبر النبي ﷺ ورفقه به أن آمن.

وهكذا ينبغي لمن تصدر للحوار ومخاطبة الناس أن يتسع صدره لهم قدر

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب العلم، باب: ما جاء في العلم، وقوله تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ برقم (٦٣).

الإمكان، وأن يصبر على أذاهم، وألا يقابل إساءتهم بالمثل فذلك أدعى لاستجابتهم.

ثالثًا: أن من فنون الحوار وآدابه عدم التكلف في الكلام، وعدم البسط في موضع الإعجاز، لأن ذلك مدعاة للسآمة ويضيع به الوقت بلا فائدة.

وقد أجاب النبي ﷺ على أسئلة هذا الأعرابي بأجوبة مختصرة مفيدة أكثرها: «**اللهم نعم**».

٢- عن معاوية بن الحكم السلمي قال:

«بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم فقلت: وا ثكل أمِّياه ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يصمتوني سكت.

فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، وإنما قال: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**»، أو كما قال رسول الله ﷺ.

قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بجاهلية وقد جاء الله بالإسلام وإن منا رجالًا يأتون الكهان.

قال: «**فلا تأتهم**».

قال: ومنا رجال يتطيرون.

قال: «**ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم**».

قال: قلت: ومنا رجال يخطون.

قال: «**كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك**».

قال: وكانت لي جارية ترعىٰ غنمًا لي قبل أحد والجوانية، فاطلعت ذات يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون لكني صككتها صكة، فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك علي قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟

قال: «**ائتني بها**».

فأتيته بها فقال لها: «**أين الله؟**».

قالت: في السماء. قال: «**من أنا؟**».

قالت: أنت رسول الله.

قال: «**أعتقها فإنها مؤمنة**»(١).

ومما يستفاد من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عظيم رفق النبي ﷺ بالجاهل وحسن تعليمه له حتىٰ كان لذلك الأثر البالغ عليه؛ حيث قال: «بأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني وإنما قال: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**».

ثانيًا: أن للرفق في الخطاب والتعليم والحوار الأثر البالغ علىٰ الناس؛ فإن الناس مفطورون علىٰ محبة من أحسن إليهم، وبغض من أساء إليهم.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب المساجد، ومواضع الصلاة، باب: تحريم الكلام في الصلاة برقم (٥٣٧).

ثالثًا: أن المحاور الناجح يقرن الأحكام بعللها، والأسباب بمسبباتها؛ فنبينا ﷺ أفصح من نطق بالضاد ومن أوتي جوامع الكلم يقول لهذا الصحابي بعد أن بين له أن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس: «**إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**».

٣- عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال:

«بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه مه!

فقال رسول الله ﷺ: «**لا تزرموه دعوه**» فتركوه حتىٰ بال.

ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «**إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر إنما هي لذكر الله عَزَّوَجَلَّ والصلاة وقراءة القرآن**»(١).

ومما يستفاد من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: حسن خلق النبي ﷺ؛ حيث لم يعنف هذا الأعرابي الجاهل الذي بال في المسجد، بل دعاه وعلمه حرمة المسجد.

قال الإمام النووي في «شرح مسلم» (٢/ ٥٢٥): «وفيه: الرفق بالجاهل وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف ولا إيذاء إذا لم يأت بالمخالفة استخفافًا أو عنادًا». اهـ.

ثانيًا: دفع أعظم الضررين باحتمال أخفهما لقوله ﷺ: «**دعوه**».

قال العلماء: كان قوله ﷺ: دعوه، لمصلحتين:

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الوضوء، باب: غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد برقم (٢٨٥).

إحداهما: أنه لو قطع عليه بوله تضرر وأصل التنجيس قد حصل، فكان احتمال زيادته أولىٰ من إيقاع الضرر به.

والثانية: أن التنجيس قد حصل في جزء يسير من المسجد، فلو أقاموه في أثناء بوله لتنجست ثيابه وبدنه ومواضع كثيرة من المسجد والله أعلم. قاله الإمام النووي في «شرح مسلم» (٢/ ٥٢٥).

فينبغي للمحاور إن تزاحمت عنده المصالح والمفاسد أن يحرص علىٰ الظفر بخير الخيرين ومجانبة شر الشرين.

ثالثًا: حسن تعليم النبي ﷺ حيث يقرن الحكم ببيان علته لتطمئن النفوس لذلك أكثر وأكثر، وليعلموا سماحة وسمو هذه الشريعة التي بعثه الله بها؛ فإنه قال ﷺ لهذا الأعرابي: إن المساجد بيوت الله لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر، إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن.

وهكذا ينبغي للمعلم والمحاور أن يفعل فإن ذلك من دلائل نجاحه.

٤- عن أبي أمامة رضي الله عنه قال:

«إن فتىٰ شابًا أتىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا.

فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه!

فقال النبي ﷺ: «**ادنه**». فدنا منه قريبًا فجلس.

فقال له الرسول ﷺ: «**أتحبُّه لأمك؟**».

قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: «**ولا الناس يحبُّونه لأمهاتهم**».

«**أفتحبُّه لابنتك؟**».

قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك!

قال: «**ولا الناس يحبُّونه لبناتهم**».

قال: «**أتحبُّه لأختك؟**».

قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك!

قال: «**ولا الناس يحبُّونه لأخواتهم**».

«**أفتحبُّه لعمَّتك؟**».

قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك!

قال: «**ولا الناس يحبُّونه لعمَّاتهم**».

«**أفتحبُّه لخالتك؟**».

قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك!

قال: «**ولا الناس يحبُّونه لخالاتهم**».

قال: فوضع يده عليه وقال: «**اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصِّن فرجه**».

فلم يكن الفتىٰ بعد ذلك يلتفت إلىٰ شيء»(١).

ومما يستفاد من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: رفق النبي ﷺ بالجاهل والمتعلم حيث لم يزجره ولم يضربه وقد طلب الإذن له بالزنا.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٥٦).

ثانيًا: حسن تعليم النبي ﷺ حيث لم يواجهه بالحكم مباشرة بل ضرب له الأمثلة التي يتبين له من خلالها قبح ما سأل، ثم وضع يده علىٰ صدره ودعا له.

ثالثًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بأمته فقد أبلغ في تعليم هذا الشاب، ثم أردف ذلك بأن وضع يده عليه ثم قال: «**اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه**».

رابعًا: أنه ينبغي للمعلِّم والمحاور والآمر بالمعرف والناهي عن المنكر أن ينوع الأمثلة المضروبة إذا كان المقام يستدعي ذلك ليكون أبلغ في إيضاح المراد، وأدعىٰ إلىٰ سرعة القبول، وهذا من فنون الحوار وأسباب نجاحه.

خامسًا: أنه ينبغي للمحاور والمعلم أن يستعمل طريقة التعليم بالسؤال لما في ذلك من الفائدة ولفت الانتباه وتفعيل العقل.

سادسًا: حكمة النبي ﷺ حيث خاطب هذا الشاب بما يناسبه دون جرح مشاعره أو استعمال عبارات منفرة لقلبه.

وهكذا ينبغي للمتصدر للتعليم والحوار أن يكون حكيمًا، فيضع الأمور مواضعها ويخاطب كل شخص بما يناسبه.

٥- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«دخل رسول الله ﷺ المسجد فدخل رجل فصلىٰ ثم جاء فسلم علىٰ رسول الله ﷺ فرد رسول الله ﷺ فقال: «**ارجع فصل فإنك لم تصل**».

فرجع الرجل فصلىٰ كما كان صلىٰ، ثم جاء إلىٰ النبي ﷺ فسلم عليه فقال رسول الله ﷺ: «**وعليك السلام**»، ثم قال: «**ارجع فصل فإنك لم تصل**» حتىٰ فعل ذلك ثلاث مرات.

فقال الرجل: والذي بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمني.

قال: «**إذا قمت إلىٰ الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتىٰ تطمئن راكعًا، ثم ارفع حتىٰ تعتدل قائمًا، ثم اسجد حتىٰ تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتىٰ تطمئن جالسًا، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها**»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: الرفق بالمتعلم والجاهل، وملاطفته، وإيضاح المسألة، وتلخيص المقاصد، والاقتصار في حقه علىٰ المهم دون المكملات التي لا يحتمل حاله حفظها والقيام بها. قاله النووي في «شرح مسلم» (٤/ ٨٣).

وهذا من عظيم خلقه ﷺ وحسن تعليمه.

ثانيًا: أن المفتي إذا سئل عن شيء وكان هناك شيء آخر يحتاج إليه السائل ولم يسأله يستحب له أن يذكره له، ويكون هذا من النصيحة لا من الكلام فيما لا يعني، وموضع الدلالة من الحديث أنه قال: علمني يا رسول الله. أي: علمني الصلاة، واستقبال القبلة والوضوء ليسا من الصلاة ولكنهما شرطان لها». اهـ. قاله النووي في «شرح مسلم» (٤/ ٨٣).

ثالثًا: تواضع النبي ﷺ حيث كان يجلس في المسجد ويجلس إلىٰ أصحابه.

رابعًا: التسليم للعالم والانقياد له والاعتراف بالتقصير والتصريح بحكم البشرية في جواز الخطأ. قاله الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٢/ ٣٢٨).

خامسًا: حسن خلقه ﷺ ولطف معاشرته. قاله الحافظ في المصدر السابق.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الأذان، باب: أمر النبي ﷺ الذي لا يتم ركوعه بالإعادة برقم (٧٩٣)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة برقم (٣٩٧) واللفظ له.

سادسًا: جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة في المجلس للمصلحة، وإنما لم يعلمه النبي ﷺ أولًا ليكون أبلغ في تعريفه وتعريف غيره بصفة الصلاة المجزئة.

قال ابن دقيق العيد: «ولا شك أن في زيادة قبول المتعلم لما يلقىٰ إليه بعد تكرار فعله واستجماع نفسه وتوجه سؤاله مصلحة مانعة من وجوب المبادرة إلىٰ التعليم لاسيما مع عدم خوف الفوات».

قاله الحافظ ابن حجر في الفتح المصدر السابق.

٦- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله، هلكت.

قال: ما لك. قال: «**وقعت علىٰ امرأتي وأنا صائم**».

فقال رسول الله ﷺ: «**هل تجد رقبة تعتقها؟**».

قال: لا.

قال: «**فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟**».

قال: لا.

قال: فهل تجد إطعام ستين مسكينًا؟ قال: لا.

قال: فمكث النبي ﷺ، فبينا نحن علىٰ ذلك أتي النبي ﷺ بعرق فيها تمر -والعرق المكتل- قال: «**أين السائل؟**».

فقال: أنا.

قال: «**خذ هذا فتصدق به**».

فقال الرجل: علىٰ أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها -يريد الحرتين- أهل بيت أفقر من أهل بيتي.

فضحك النبي ﷺ حتىٰ بدت أنيابه ثم قال: «**أطعمه أهلك**»(١).

مما يستفاد من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: تواضع النبي ﷺ حيث كان يجلس إلىٰ أصحابه ويستقبل الغريب ويقضي حاجته، وهذا بخلاف أهل الكبر.

ثانيًا: حسن تعليم النبي ﷺ حيث استفهم عن سبب قول الرجل: «هلكت»، ثم استفهم عن حاله وأجابه بما يناسب حاله.

ثالثًا: سماحة ويسر الدين الذي بعث به نبينا ﷺ؛ حيث لم يكلف الشخص فوق طاقته، وأن الرحمة والسماحة هي سمة هذا الدين البارزة حتىٰ في باب العقوبات والكفارات؛ فالرجل لما أخبر عن عجزه عن عتق الرقبة نقله النبي ﷺ إلىٰ الصيام، فلما أخبره عن عجزه نقله إلىٰ الإطعام، فلما أخبره عن عجزه لم يكلفه بشيء، ولما تيسر ما يتصدق به وأخبر عن شدة حاجته أعطاه إياه.

رابعًا: في الحديث دليل للقاعدة الشرعية: «أن المشقة تجلب التيسير».

خامسًا: أن من يسر الشريعة الإسلامية التي بعث بها النبي ﷺ: أن من ادعىٰ عذرًا يسقط عنه شيئًا أو يفتح له أخذ شيء يقبل قوله، ولا يكلف إقامة البينة علىٰ ذلك؛ فإن هذا الرجل ادعىٰ العجز عن الصوم والفقر ولم يطالب بالبينة.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الصوم، باب: إذا جامع في رمضان لم يكن له شيء فتصدق عليه فليكفر برقم (١٩٣٦)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الصيام، باب: تحريم الجماع في نهار رمضان علىٰ الصائم برقم (١١١١) واللفظ للبخاري.

سادسًا: رفق النبي ﷺ ولطفه وتأليفه لأصحابه مطيعهم وعاصيهم، والحديث واضح المعالم في هذا؛ فإن النبي ﷺ لم يعنفه ولم يعاقبه، وتدرج معه بحسب حاله ثم رجع بطعام له ولأهله.

سابعًا: حسن خلق النبي ﷺ؛ فقد ضحك أمام أصحابه حتىٰ بدت نواجذه، وفي هذا من المؤانسة وإزالة الوحشة ما لا يخفىٰ.

ثامنًا: مشروعية التعاون علىٰ العبادة والسعي في إخلاص المسلم، وإعطاء الواحد فوق حاجته الراهنة. قاله الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الفتح» (٤/ ٢٠٤).

تاسعًا: أن من ارتكب معصية لا حد فيها وجاء مستفتيًا أنه لا يعزر؛ لأن النبي ﷺ لم يعاقبه مع اعترافه بالمعصية، وتوجيهه أن مجيئه مستفتيًا يقتضي الندم والتوبة، والتعزير إنما جعل للاستصلاح ولا استصلاح مع الصلاح. قاله الحافظ في «الفتح» (٤/ ١٩٥).

١١- شدة حرصه ﷺ على هداية الخلق، وعظيم فرحه بمن اهتدى منهم، وعظيم حزنه وأسفه على من أعرض:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف: ٦].

وقال تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشعراء: ٣].

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [فاطر: ٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في «تفسيره» (٣/ ٤٤٢):

«﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الكهف: ٦]. أي: مهلكٌ نفسك ممَّا تحرص وتحزن عليهم ألا يكونوا مؤمنين وهذه تسلية من الله لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار». اهـ.

١- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«قيل: يا رسول الله، ادع علىٰ المشركين.

قال: «**إني لم أُبعث لعانًا وإنما بعثت رحمة**»(١).

ومما يستفاد من هذا الحوار القصير ما يلي:

أولًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بالبشرية مؤمنهم وكافرهم، فالله إنما بعثه رحمة للعالمين كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في «تفسيره» (٣/ ٢٧١): «يخبر تعالىٰ أن الله جعل محمدًا ﷺ رحمة للعالمين؛ أي: أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قَبِلَ هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردها وجحدها خسر في الدنيا والآخرة كما قال تعالىٰ: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨]». اهـ.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب البر والصلة والآداب، باب: النهي عن لعن الدواب وغيرها برقم (٢٥٩٩).

ثانيًا:أنه ليس من مقاصد بعثته ﷺ لعن المشركين، وإنما دعوتهم لعبادة الله وحده لا شريك له.

ثالثًا: أن من فنون الحوار وأسباب نجاحه قرن الحكم بعلته، وربط الأمر بسببه؛ فالنبي ﷺ لما قال: «**إني لم أبعث لعانًا**»، أردف ذلك بقوله: «**وإنما بعثت رحمة**».

٢-عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

«كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ فقعد عند رأسه فقال له: «**أسلم**».

فنظر إلىٰ أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم، فأسلم.

فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**»[(١)].

ومما يستفاد من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: تواضع النبي ﷺ حيث عاد هذا المريض الصغير مع أنه غير مسلم، وهذا من مكارم أخلاقه صلوات الله وسلامه عليه.

ثانيًا: أن من فنون الحوار أن يقدم الشخص بين يدي كلامه من قول أو فعل ما يكون سببًا لتأليف قلب المخاطب، فنبينا ﷺ قعد عند رأس هذا المريض الصغير ثم دعاه إلىٰ الإسلام فأسلم.

ثالثًا: حرص النبي ﷺ علىٰ هداية الخلق كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وأنثاهم.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلىٰ عليه وهل يعرض علىٰ الصبي الإسلام برقم (١٣٥٦).

رابعًا: عظيم فرح النبي ﷺ بهداية من اهتدىٰ ولو كان صبيًّا محتَضَرًا.

وهذا يدل دلالة واضحة علىٰ أن الله بعثه لهداية الناس إلىٰ صراط الله المستقيم، لا ليسفك دماءهم ولا ليأخذ أموالهم ولا ليهتك أعراضهم، وإلا فماذا عساه يفعل بإسلام صبي يجود بآخر أنفاسه.

خامسًا: أثر الإحسان إلىٰ الناس؛ فاليهودي الأب أشار علىٰ ولده بالإسلام ولم يسلم هو؛ تأثرًا بكريم أخلاق نبينا ﷺ حيث جاء يعود ولده وقعد عند رأسه.

سادسًا: أن الشخص قد يعرف الحق ويُدَلُّ عليه لكنه لا ينتفع به عياذًا بالله.

٣- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«قدم الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه فقالوا: يا رسول الله إن دوسًا قد كفرت وأبت، فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوس!

فقال النبي ﷺ: «**اللهم اهد دوسًا وَأْت بهم!**»(١).

ومما يستفاد من هذا الحوار القصير ما يلي:

أولًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بالناس وحرصه علىٰ هدايتهم وسلامتهم، فقد جاء الطفيل بن عمرو وأصحابه يشكون إلىٰ النبي ﷺ عصيان قومهم وامتناعهم عن الإسلام، وطلبوا منه الدعاء عليهم، إلا أن النبي ﷺ قابلهم بالدعاء لهم بالهداية والهجرة إليه، وقد استجاب الله دعوة نبيه ﷺ فيهم.

ثانيًا: التأني وعدم اليأس من هداية الخلق فالأمور بيد الله، وقلوب عباده بين

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الجهاد، باب: الدعاء للمشركين بالهدىٰ برقم (٢٩٣٧)، ومسلم في «صحيحه» كتاب فضائل الصحابة، باب: دعاء النبي ﷺ لغفار وأسلم برقم (٢٥٢٤).

أصبعين من أصابعه يقلبها كيف يشاء.

ثالثًا: أن على المحاور أن يقول ويفعل ما يراه مناسبًا، وإن كان بخلاف رغبة محاوره.

٤- عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال:

«كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يومًا فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره.

فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي قلت: يا رسول الله، إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره؛ فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة.

فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم اهد أم أبي هريرة**».

فخرجت مستبشرًا بدعوة نبي الله ﷺ.

فلما جئت فصرت إلى الباب فإذا هو مجاف، فسمعت أمي خشف قدمي فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعت خضخضة الماء، قال: فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ثم قالت: «**يا أبا هريرة، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله**».

قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح.

قال: قلت: يا رسول الله، أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال: خيرًا.

قال: قلت: يا رسول الله، ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين

ويحببهم إلينا.

قال: فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم حبب عبيدك هذا** - يعني أبا هريرة - **وأمه إلىٰ عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين**»، فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني (١).

ومما يستفاد من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بأمته، وشدة حرصه علىٰ هدايتهم حيث دعا لأم أبي هريرة مع إساءتها إلىٰ النبي ﷺ ورفضها للإسلام.

ثانيًا: تواضع النبي ﷺ حيث كان يجالس أصحابه ويستمع إلىٰ همومهم ويقضي حوائجهم.

ثالثًا: عظيم فرح النبي ﷺ بهداية من اهتدىٰ، فإن أبا هريرة لما رجع إلىٰ النبي ﷺ يبشره بإسلام أمه فرح وحمد الله وأثنىٰ عليه وقال خيرًا.

رابعًا: حسن خلق النبي ﷺ؛ حيث لم يكن ينتقم لنفسه أو يغضب لنفسه، فأم أبي هريرة مع أنها كانت تقول في رسول الله ما يكره وترفض دينه إلا أنه قابل ذلك بالدعاء لها بالهداية فاستجاب الله له.

وقد وصفت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زوج النبي ﷺ حسن خلق رسول الله ﷺ فقالت:

«ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب فضائل الصحابة، باب: فضائل أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ برقم (٢٤٩١).

إنَّمَا كان أبعد الناس منه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله عَزَّوَجَلَّ»[(١)].

خامسًا: طول الأمل وعدم اليأس من هداية الخلق وصلاح أحوالهم.

سادسًا: فضل أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعظيم بِرِّه بأمه فقد تسبب في هدايتها للإسلام.

سابعًا: قد يستفاد من الحديث كفر من أبغض أبا هريرة وكَفَّره؛ فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اللهم حبب عبيدك هذا وأمه إلىٰ عبادك المؤمنين وحبب إليهم المؤمنين**» قال أبو هريرة: فما خُلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني.

٥- عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت:

«قلت: يا رسول الله، هل أتىٰ عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟

قال: «**لقد لقيتُ من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي علىٰ ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلىٰ ما أردت.**

فانطلقت وأنا مهموم علىٰ وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم.

فناداني ملك الجبال فسلَّم عليَّ ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين -جبلا مكة-».

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب المناقب، باب: صفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برقم (٣٥٦٠)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل، باب: مباعدته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للآثام واختياره من المباح أسهله برقم (٢٣٢٧).

فقال ﷺ: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا**»(١).

ومما يستفاد من هذا الحديث:

عظيم رحمة النبي ﷺ بالناس وشدة حرصه علىٰ هدايتهم وعظيم صبره علىٰ أذاهم.

وبقية الدروس المستفادة من هذا الحوار قد سبقت في الحوارات قبل البعثة.

* * *

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم آمين برقم (٣٢٣١)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الجهاد، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذىٰ المشركين والمنافقين برقم (١٧٩٥).

الفصل الخامس
حوارات تتعلق بالأنبياء وموقف نبينا ﷺ منهم

أولًا: حوار يتعلق بنبي الله عيسى عليه السلام:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «**أنا أولىٰ الناس بعيسىٰ بن مريم في الأولىٰ والآخرة**».

قالوا: وكيف يا رسول الله؟

قال: «**الأنبياء إخوة من علات وأمهاتهم شتىٰ ودينهم واحد، فليس بيننا نبي**»(١).

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح مسلم (١٥/ ٥٠٥): «قال العلماء: أولاد العلات -بفتح العين المهملة وتشديد اللام-: هم الإخوة لأب من أمهات شتىٰ.

قال جمهور العلماء: معنىٰ الحديث: أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة، فإنهم متفقون في أصول التوحيد، وأما فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف.

وأما قوله ﷺ: «**ودينهم واحد**» فالمراد به أصول التوحيد وأصل طاعة الله تعالىٰ وإن اختلفت صفتها». اهـ.

ومما يستفاد من هذا الحوار القصير ما يلي:

أولًا: عظيم محبة النبي ﷺ لنبي الله عيسىٰ عليه السلام حيث قال: «**أنا أولىٰ الناس**

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل، باب: فضائل عيسىٰ عليه السلام برقم (٢٣٦٥).

بعيسىٰ بن مريم في الأولىٰ والآخرة».

وإخبار النبي ﷺ بهذا أحدث في قلوب أمته محبةً وتعظيمًا لعيسىٰ بن مريم كما هو لسائر الأنبياء؛ ولأن القرآن الكريم مليء بقصصهم والثناء عليهم، والأمر بالإيمان بهم كلهم، وأنهم صفوة الله من خلقه وخير عباده.

وهكذا السنة النبوية مليئة بذكر فضائلهم ومناقبهم، ومنها الأحاديث التي ستأتي إن شاء الله وفيها حوارات.

ثانيًا: حسن خلق النبي ﷺ حيث كان صدره واسعًا للسؤال والاستفسار والإجابة عن ذلك بنفس طيبة وجواب مناسب، فإن من صفات المحاور الناجح سعة صدره وألا يضيق ذرعًا بأسئلة من يخاطبه أو استفساراته، وأن يجيب علىٰ ذلك برحابة صدر وأجوبة مقنعة.

ثالثًا: أن دين جميع الأنبياء واحد، والمراد به: أصول التوحيد وأصل الطاعة، وإن اختلفت صفاتها كما سبق.

ثانيًا: حوارات تتعلق بنبي الله وكليمه موسى عليه السلام:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«بينما يهودي يعرض سلعته أعطي بها شيئًا كرهه فقال: لا والذي اصطفىٰ موسىٰ علىٰ البشر.

فسمعه رجل من الأنصار فقام فلطم وجهه، وقال: تقول والذي اصطفىٰ موسىٰ علىٰ البشر والنبي ﷺ بين أظهرنا؟

فذهب إليه فقال: أبا القاسم، إن لي ذمة وعهدًا فما بال فلان لطم وجهي.

فقال: «**لم لطمت وجهه؟**».

فذكره - أي: ذكر السبب - فغضب النبي ﷺ حتىٰ رئي في وجهه.

ثم قال: «**لا تفضلوا بين أنبياء الله؛ فإنه ينفخ في الصور فيصعق مَن في السموات ومَن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرىٰ فأكون أول من بعث فإذا موسىٰ آخذ بالعرش؛ فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أم بعث قبلي**»(١).

وفي رواية للبخاري(٢) أن رسول الله قال: «**لا تخيروني علىٰ موسىٰ؛ فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسىٰ باطش بجانب العرش؛ فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أو كان ممن استثني**».

٢- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

«لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجد اليهود صيامًا يوم عاشوراء.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ما هذا اليوم الذي تصومونه؟**».

فقالوا: هذا يوم عظيم أنجىٰ الله فيه موسىٰ وقومه وغرق فرعون وقومه، فصامه موسىٰ شكرًا فنحن نصومه.

فقال رسول الله ﷺ: «**فنحن أحق وأولىٰ بموسىٰ منكم**».

فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قوله الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ برقم (٣٤١٤).

(٢) برقم (٣٤٠٨).

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الصيام، باب: صوم يوم عاشوراء برقم (١١٣٠).

ومن الدروس المستفادة من هذين الحوارين ما يلي:

أولًا: عظيم محبة النبي ﷺ لنبي الله موسىٰ عليه السلام وتعظيمه له.

ففي الحوار الأول غضب غضبًا شديدًا مما جرىٰ بين الأنصاري واليهودي وقال: «**لا تفضلوا بين أنبياء الله**»، وفي الرواية الثانية: «**لا تخيروني علىٰ موسىٰ**».

ثانيًا: نبذ النبي ﷺ للعصبية المذمومة التي قد تسبب في انتقاص بعض أنبياء الله.

وسيأتي فصل مستقل في علاج النبي ﷺ لهذه المشكلة العالمية.

ثالثًا: أن من صفات المحاور الناجح التأني وعدم العجلة والتثبت مما يقال؛ حيث إن اليهودي لما جاء يشكو لطم الأنصاري له دون بيان السبب سأل النبي الأنصاري عن ذلك.

رابعًا: عدالة النبي ﷺ حيث غضب غضبًا شديدًا لما سمع القصة، وذكر منقبة عظيمة لنبي الله موسىٰ عليه السلام.

فمن صفات المحاور الناجح العدل والإنصاف، وهذا من أبرز أوصاف نبينا ﷺ، وسيرته العطرة في سلمه وحربه مع أوليائه وأعدائه، وفي حال رضاه وغضبه خير شاهد علىٰ هذا.

خامسًا: تواضعه ﷺ حيث قال: «**لا تخيروني علىٰ موسىٰ**» مع أنه سيد ولد آدم.

وسيأتي وجه الجمع في الكلام علىٰ الحوار المتعلق بنبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام ـ إن شاء الله ـ.

سادسًا: أن من صفات المحاور الناجح التأني وعدم العجلة في قبول الأمور

وإنكارها فنبينا ﷺ لما رأىٰ اليهود يصومون يوم عاشوراء وهم أهل كتاب سألهم أولًا عن سبب صيامه.

سابعًا: تجرد النبي ﷺ وإنصافه وحرصه علىٰ الخير ولو وجده عند عدوه، فنبينا ﷺ لما أخبره اليهودي أن ذلك اليوم صامه موسىٰ عليه السلام شكرًا لله علىٰ نجاته ومن معه وإهلاك عدوه قال: «**أنا أحق بموسىٰ منكم**»، فصامه وأمر بصيامه.

فالمحاور الناجح الموفَّق يقبل الحق ممن جاءه به، ولا يمنعه عداوة خصمه إن كان معه حق أن يقبله منه.

وهناك حوار دار بين النبي ﷺ وأبي هريرة لما كان عاملًا علىٰ صدقة الفطر بخصوص الشيطان الذي كان يسرق منها، وسأسوق الحوار بطوله حيث هو علىٰ شرط الكتاب لما فيه من حوار، مع أن المراد من إيراده أنه ينبغي للمحاور أن يقبل الحق ولو جاء علىٰ لسان خصمه الكافر، لأن الحق ضالة المؤمن حيث وجده أخذه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت: والله لأرفعنك إلىٰ رسول الله ﷺ.

قال: إني محتاج وعلي عيال ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه.

فأصبحت فقال النبي ﷺ: «**يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟**».

قال: قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالًا فرحمته فخليت سبيله.

قال: «**أما إنه قد كذبك وسيعود**».

فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ: «**إنه سيعود**».

فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلىٰ رسول الله ﷺ، قال: دعني فإني محتاج وعلي عيال لا أعود فرحمته فخليت سبيله.

فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة ما فعل أسيرك؟**».

قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالًا فرحمته فخليت سبيله.

قال: «**أما إنه كذبك وسيعود**».

فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلىٰ رسول الله، وهذا آخر ثلاث مرات تزعم لا تعود ثم تعود. قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها.

قلت: ما هن؟

قال: إذا أويت إلىٰ فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. حتىٰ تختم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان حتىٰ تصبح، فخليت سبيله.

فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «**ما فعل أسيرك البارحة؟**».

قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله.

قال: «**ما هي**».

قلت: قال لي: إذا أويت إلىٰ فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتىٰ تختم ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتىٰ تصبح.

فقال النبي ﷺ: «**أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث**

ليال يا أبا هريرة؟».

قال: لا. قال: «**ذاك شيطان**»(١).

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٤/ ٥٧١): «وفي الحديث من الفوائد: أن الشيطان قد يعلم ما ينتفع به المؤمن، وأن الحكمة قد يتلقاها الفاجر فلا ينتفع بها وتؤخذ عنه فينتفع بها، وأن الشخص قد يعلم الشيء ولا يعمل به وأن الكافر قد يصدق ببعض ما يصدق به، المؤمن ولا يكون بذلك مؤمنًا، وبأن الكذاب قد يصدق وبأن الشيطان من شأنه أن يكذب». اهـ.

ثامنًا: في الحوار السابق دليل للقاعدة الشرعية الأصيلة: «سد الذرائع» فإن المفاضلة بين الأنبياء قد تفضي إلىٰ العصبية المذمومة، وانتقاص بعض الأنبياء وانتقاص أحد الأنبياء أو الطعن فيه من أقبح أنواع الكفر عياذًا بالله من ذلك.

ثالثًا: حوار يتعلق بنبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

«جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا خير البرية.

فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك إبراهيم عليه السلام**»»(٢).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: تواضع النبي ﷺ حيث لم يرض أن يقال له: يا خير البرية، مع أنه سيد

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الوكالة، باب: إذا وكل فترك الوكيل شيئًا فأجازه الموكل فهو جائز برقم (٢٣١١).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل، باب: فضائل إبراهيم الخليل ﷺ برقم (٢٣٦٩).

ولد آدم كما قاله عن نفسه وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوىٰ.

فمن أهم صفات المحاور الناجح الموفق التواضع للحق وللخلق.

فإن قيل: فكيف نجمع بين قوله ﷺ: إن خير البرية إبراهيم وبين قوله: أنا سيد ولد آدم؟

فالجواب: قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح مسلم» (١٥/ ٥٠٧):

«إنما قال ﷺ هذا تواضعًا واحترامًا لإبراهيم ﷺ لخلته وأبوته، وإلا فنبينا ﷺ أفضل كما قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم**». ولم يقصد به الافتخار ولا التطاول علىٰ من تقدمه، بل قاله بيانًا لما أمر ببيانه وتبليغه، ولهذا قال ﷺ: «**ولا فخر**» لينفي ما قد يتطرق إلىٰ بعض الأفهام السخيفة». اهـ.

وقال (ص٤٣٨): «وأما الحديث الآخر: «**لا تفضلوا بين الأنبياء**» فجوابه من خمسة أوجه:

أحدها: أنه ﷺ قاله قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم فلما علم أخبر به.

الثاني: قاله أدبًا وتواضعًا.

الثالث: أن النهي إنما هو عن تفضيل يؤدي إلىٰ تنقيص المفضول.

الرابع: إنما نهىٰ عن تفضيل يؤدي إلىٰ الخصومة والفتنة، كما هو المشهور في سبب الحديث.

الخامس: أن النهي مختص بالتفضيل في نفس النبوة، فلا تفاضل فيها وإنما التفاضل بالخصائص وفضائل أخرىٰ، ولابد من اعتقاد التفضيل فقد قال الله تعالىٰ ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ٢٥٣]». اهـ.

ثانيًا: أنه ينبغي للمحاور إذا سمع كلامًا يعتقد خطأه أن يرده بلطف ما استطاع، ويبين الصواب دون تعرض للقائل ما لم يكن هناك ما يدعو إلىٰ ذلك، فالنبي ﷺ لما قيل له: يا خير البرية. اكتفىٰ بقوله: «ذاك إبراهيم عليه السلام».

ثالثًا: تعظيم النبي ﷺ لنبي الله إبراهيم وثنائه عليه ودعائه له، فانتقاص الأنبياء والمرسلين ليس من أخلاق النبوة، وإنما هي أخلاق أعداء الأنبياء وأعداء الفضائل والقيم.

رابعًا: حوار يتعلق بنبي الله يوسف عليه السلام:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«سئل رسول الله ﷺ من أكرم الناس؟

قال: «**أتقاهم لله**».

قالوا: ليس عن هذا نسألك.

قال: «**فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله**».

قالوا: ليس عن هذا نسألك.

قال: «**فعن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[(١)].

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: فضيلة نبي الله يوسف عليه السلام وثناء نبينا ﷺ عليه، ومحبته له؛ حيث سئل

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالىٰ: ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ ﴾ [يوسف: ٧] برقم (٣٢٨٢)، ومسلم في صحيحه كتاب الفضائل، باب: من فضائل يوسف عليه السلام برقم (٢٣٧٩).

من أكرم الناس فقال: «**يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله**».

فهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح مسلم (١٥/ ٥١٧): «وقد جمع يوسف ﷺ مكارم الأخلاق مع شرف النبوة مع شرف النسب، وكونه نبيًّا ابن ثلاثة أنبياء متناسلين، أحدهم خليل الله ﷺ، وانضم إليه شرف علم الرؤيا وتمكنه فيه، ورياسة الدنيا وملكها بالسيرة الجميلة، وحياطته للرعية، وعموم نفعه إياهم وشفقته عليهم، وإنقاذه إياهم من تلك السنين، والله أعلم». اهـ.

ثانيًا: حسن خلق النبي ﷺ حيث كان صدره واسعًا لكثرة الأسئلة والمراجعة فيها والإجابة عليها بنفس طيبة وأجوبة مفيدة نافعة.

فينبغي للمحاور الناجح أن يكون واسع الصدر هادئ البال.

ثالثًا: بلاغة نبينا ﷺ وفصاحته وهذا يظهر من إجاباته علىٰ هذه الأسئلة؛ حيث كان يجيب عن السؤال بجواب مختصر، إلا أنه جامع مانع نافع واضح الدلالة سهل العبارة.

فمن صفات المحاور الناجح البعد عن الإسهاب وغرائب الألفاظ، والجُمل المشكلة الشبيهة بالألغاز، والتقصر في الكلام الذي يورث النَّفرة والوحشة والملل وقلة الفائدة.

رابعًا: تواضع نبينا ﷺ حيث كان يجلس إلىٰ أصحابه، ويجيب عن أسئلتهم ويتحدث معهم مع علو شأنه ورفيع مقامه ومكانه، بخلاف حال المتكبرين.

خامسًا: أن الكرم كله عمومه وخصوصه ومجمله ومبينه إنما هو الدين من

التقوىٰ والنبوة والإعراق فيها، والإسلام مع الفقه. قاله القاضي عياض كما في «شرح النووي لمسلم» (١٥/ ٥١٨).

سادسًا: فضيلة التقوىٰ فصاحبها أكرم الناس؛ فمن كان متقيًا كان كثير الخير وكثير الفائدة في الدنيا وصاحب الدرجات العُلىٰ في الآخرة.

سابعًا: أن الدين الإسلامي الذي بُعث به نبينا محمد ﷺ دين يحترم جميع الأنبياء ويحفظ لهم مكانتهم، ويدافع عنهم ويدعو إلىٰ الإيمان بهم واحترامهم.

خامسًا: حوار يتعلق بنبي الله داود عليه السلام:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال:

«أخبر رسول الله ﷺ أني أقول: والله لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشت.

فقال له رسول الله ﷺ: «**أنت الذي تقول والله لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشت؟**».

قلت: قد قلته.

قال: «**إنك لا تستطيع ذلك فصم وأفطر، وقم ونم، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر**».

فقلت: إني أطيق أفضل من ذلك يا رسول الله.

قال: «**فصم يومًا وأفطر يومين**».

قال: قلت: إني أطيق أفضل من ذلك.

قال: «فصم يومًا وأفطر يومًا، وذلك صيام داود وهو عدل الصيام».

قلت: إني أطيق أفضل منه يا رسول الله.

قال: «**لا أفضل من ذلك**»(١).

وفي رواية للبخاري(٢) قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو: «**فصم صوم داود عليه السلام، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ولا يفر إذا لاقىٰ**».

وفي رواية له(٣) قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «**أحب الصيام إلىٰ الله صيام داود؛ كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأحب الصلاة إلىٰ الله صلاة داود؛ كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه**».

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار العظيم ما يلي:

أولًا: تعظيم نبي الله ﷺ لنبي الله داود عليه السلام ومحبته له وثناؤه عليه.

ثانيًا: أن من مقومات الحوار الناجح، وصفات المحاور الفذ أنه إذا أغلق بابًا قد يكون فيه ضرر أن يفتح بابًا آخر مباحًا، ويذكر له ما يرغبه في ذلك الشيء الذي يريده أن ينتقل إليه، ومن أسوته فيه إن أمكن ليكون ذلك أدعىٰ لقبوله وأطيب لخاطره، كما فعل نبينا الكريم ﷺ مع عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

ثالثًا: ما كان عليه نبي الله داود عليه السلام من العبادة العظيمة المحبوبة إلىٰ الله صلاةً وصيامًا، وما كان عليه من الشجاعة العظيمة والثبات عند اللقاء.

وعليك أيها القارئ الكريم أن تقارن بين الدين الإسلامي الذي بعث به محمد ﷺ في ثنائه علىٰ هذا النبي الكريم خاصة وسائر الأنبياء عامة وبين ما افتراه بعض

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣] برقم (٣٤١٨).

(٢) برقم (٣٤١٩).

(٣) برقم (٣٤٢٠).

المنتسبين إلىٰ الأديان السماوية في حق هذا النبي الشجاع المتعبد المتأله، وما نسبوه لغيره من الأنبياء مما لا يليق بآحاد المؤمنين فضلًا عن الرسل الذين هم خير الخلق في كل شيء وأتقاهم لله وأبعدهم عن الآثام والفواحش.

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام: ١١٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: ٣١].

وإننا نحمد الله سبحانه وتعالىٰ ونشكره عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته الذي جعلنا مسلمين من أتباع هذا النبي الكريم، ومن أهل القرآن العظيم الذي رفع الله فيه قدر أنبيائه جميعًا، وذكر أنهم خيرته من خلقه، ووصفهم بأعظم الأوصاف التي تدل علىٰ كمال عبوديتهم لله، وأنهم أبعد الخلق عن الآثام، وأكمل الخلق هداية إلىٰ صراط الله المستقيم.

قال تعالىٰ في القرآن العظيم ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا

بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٨٣-٩٠].

«ولم يسلم الإيمان بهذا الأصل العقدي، والركن الإيماني إلا أهل الإسلام، وأما أمة الغضب اليهود وأمة الضلال النصارىٰ فقد كفروا به؛ إذ لا يؤمنون بالقرآن ولا بنسخه لما قبله، وينسبون ما في أيديهم من بقايا التوراة والإنجيل مع ما أضيف إليهما من التحريف والتبديل والتغيير إلىٰ الله تعالىٰ، بل فيهما من الافتراء نسبة أشياء من القبائح إلىٰ عدد من الأنبياء -حاشاهم عن فرىٰ الأفاكين-.

وانظر الآن الإشارة إلىٰ طرف من هذه النصوص المفتراة في نواقض إيمانهم بجميع الأنبياء والرسل وما جاءوا به:

فقد نسبت اليهود الردة إلىٰ نبي الله سليمان عليه السلام وأنه عبد الأصنام، كما في سفر الملوك الأول. (الإصحاح ١١/ عدد ٥).

ونسبت اليهود إلىٰ نبي الله هارون عليه السلام صناعة العجل وعبادته له، كما في (الإصحاح ٣٢/ عدد ١) من سفر الخروج.

وإنما هو من عمل السامري وقد أنكره عليه هارون عليه السلام إنكارًا شديدًا كما في القرآن الكريم.

وقد نسبت اليهود إلىٰ خليل الله إبراهيم عليه السلام أنه قدم امرأته سارة إلىٰ فرعون لينال الخير بسببها، كما في (الإصحاح ١٢/ العدد ١٤) من سفر التكوين.

وقد نسب اليهود إلىٰ لوط عليه السلام شرب الخمر حتىٰ سكر ثم زنىٰ بابنته، كما في سفر التكوين، الإصحاح ١٩/ العدد ٣٠).

ونسبت اليهود السرقة إلىٰ نبي الله يعقوب عليه السلام كما في سفر التكوين، الإصحاح ٣١/ العدد ١٧).

ونسبت اليهود الزنا إلىٰ نبي الله داود عليه السلام؛ فوُلِد له سليمان عليه السلام، كما في سفر صموئيل الثاني. (الإصحاح ١١/ العدد ١١).

ونسبت النصارىٰ -قبحهم الله- إلىٰ جميع أنبياء بني إسرائيل أنهم سراق ولصوص كما في شهادة يسوع عليهم. إنجيل يوحنا. (الإصحاح ١٠/ العدد ٨).

ونسبت النصارىٰ -قبحهم الله- جد سليمان وداود: فارض، من نسل يهوذا بن يعقوب، من نسل الزنا. كما في إنجيل متىٰ (الإصحاح ١/ العدد ١٠).

فهذه أمة الغضب، وهذه أمة التثليث والضلال يرمون جمعًا من أنبياء الله ورسله بقبائح الأمور التي تقشعر منها الجلود، وينسبون هذا إلىٰ كتب الله المنزلة: التوراة والإنجيل ـ وحاشىٰ لله ـ.

إن هذا كفر بالله من جهتين: من جهة نسبته إلىٰ الوحي، ومن جهة الكذب علىٰ الأنبياء والرسل بذلك.

فكيف يدعىٰ إلىٰ وحدة المسلمين الموحدين المعظمين لرسل الله وأنبيائه مع هذه الأمم الكافرة الناقضة للإيمان بالكتب المنزلة والأنبياء والرسل؟

ومن هنا؛ كيف لا يستحي من المنتسبين إلىٰ الإسلام من يدعو إلىٰ طبع هذه الأسفار والإصحاحات المحرفة المفترىٰ فيها مع كتاب الله المعصوم: القرآن الكريم؟

إن هذا من أعظم المحرمات، وأنكىٰ الجنايات، ومن عمله فهو مرتد عن الإسلام»(١).

* * *

(١) «الإبطال» لفضيلة الشيخ العلامة بكر أبو زيد رحمه الله (ص٧٥ـ٧٧).

الفصل السادس
حوارات تتعلق بالجهاد في سبيل الله الذي يعتبر ذروة سنام الإسلام

١ ـ عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال: «جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرىٰ مكانه فمن في سبيل الله؟

قال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[(١)].

والدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: أن غاية الجهاد ومقصوده إعلاء كلمة الله، وأن يكون الناس عبيدًا لله الذي خلقهم ورزقهم ويدبر أمورهم، وليس المراد منه سفك الدماء ولا هتك الأعراض ولا نهب الثروات واحتلال البلدان، هذه هي تعاليم الإسلام السمحة ومقاصده النبيلة.

ثانيًا: ما كان عليه نبينا ﷺ من البلاغة والفصاحة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في «**الفتح**» (٦/ ٣٥): «وفي إجابة النبي ﷺ بما ذكر غاية البلاغة والإيجاز، وهو من جوامع كلمه ﷺ؛ لأنه لو أجابه بأن جميع ما ذكره ليس في سبيل الله احتمل أن يكون ما عدا ذلك كله في سبيل الله وليس كذلك، فعدل

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الجهاد والسير، باب: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا برقم (٢٨١٠)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الإمارة، باب: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا برقم (١٩٠٤).

إلىٰ لفظ جامع عدل به عن الجواب عن ماهية القتال إلىٰ حال المقاتل فتضمن الجواب وزيادة». اهـ.

ثالثًا: عظيم تواضع النبي ﷺ؛ حيث كان يجالس عامة أصحابه ويجيب علىٰ أسئلتهم بخلاف أحوال أهل الكبر.

رابعًا: عناية الشرع بإصلاح المقاصد؛ حيث بين النبي ﷺ أن أجر الجهاد إنما يناله من قصد بجهاده إعلاء كلمة الله لا من أراد به الدنيا.

٢-عن سهل بن سعد رضي الله عنه:

أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «**لأعطين هذه الراية رجلًا يفتح الله علىٰ يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**».

فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها.

فلما أصبح الناس غدوا علىٰ رسول الله ﷺ كلهم يرجون أن يعطاها.

فقال: «**أين علي بن أبي طالب؟**».

فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه.

قال: «**فأرسلوا إليه**».

فأتي به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرأ حتىٰ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية.

فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتىٰ يكونوا مثلنا؟

فقال: «**أنفذ علىٰ رسلك حتىٰ تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلىٰ الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأَنْ يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن**

يكون لك حمر النعم»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار العظيم:

أولًا: أن الله أرسل هذا النبي الكريم رحمة للعالمين، مؤمنهم وكافرهم فهو أحرص ما يكون علىٰ هدايتهم ونجاتهم من عذاب الله، وهذا ظاهر في قوله ﷺ لعلي بن أبي طالب: «**أنفذ علىٰ رسلك حتىٰ تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلىٰ الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**».

ثانيًا: أن هذا النبي الكريم لم يبعث لسفك الدماء وهتك الأعراض وأخذ الأموال، وإنما مقصود بعثته هداية الخلق إلىٰ صراط الله المستقيم، والأخذ بأيديهم إلىٰ ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، وهذا واضح من الجملة السابقة التي أوصىٰ بها قائد جيشه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثالثًا: أن الدعوة وإقامة الحجة تكون قبل القتال، وقد دلت النصوص الأخرىٰ وسيأتي إيرادها إن شاء الله أن المدعوين إن أبوا الدخول في الإسلام طُلب منهم دفع الجزية، ويقرون علىٰ دينهم وتحفظ دماؤهم وأعراضهم وأموالهم، فإن أبوا إلا ما هم عليه قوتلوا حماية للإسلام وأهله من شرهم وعدوانهم.

رابعًا: براعة النبي ﷺ في فن الحوار وقد كان له سجية دون تكلف، كيف لا والله تعالىٰ يقول عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الجهاد والسير، باب: دعاء النبي ﷺ الناس إلىٰ الإسلام والنبوة برقم (٢٩٤٢)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ برقم (٢٤٠٦).

فقد كان ﷺ يستخدم أسلوب التشويق في كثير من حواراته، وفي ذلك جذب للانتباه وبث لروح التنافس بين السامعين علىٰ الفعل أو الترك حيث قال ﷺ: «**لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**» حتىٰ بات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، حتىٰ جاء في رواية لمسلم: «**ما أحببت الإمارة إلا يومئذ فتساورت لها رجاء أن أدعىٰ بها**».

خامسًا: أن من فنون الحوار والبراعة فيه استخدام مبدأ الثواب والعقاب، أو الترغيب والترهيب أثناء الحوار إن دعت لذلك حاجة، ليكون ذلك حافزًا علىٰ الفعل أو الترك، فقد قال ﷺ لعلي بن أبي طالب: «**فوالله لئن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**».

سادسًا: أن من مقومات الحوار الناجح استخدام أساليب التوكيد عند الحاجة إلىٰ ذلك، ومنه القسم فقد أقسم رسول الله ﷺ وهو الصادق البار تأكيدًا لما أخبر به وبيانًا لأهميته وفائدته لئلا يُتساهل فيه.

سابعًا: أن من آداب الحوار وفنونه إتاحة الفرصة للمخاطب إذا كان لديه سؤال أو استفسار ثم إجابته بما يناسب، وقد كان هذا من خلقه ﷺ، يدل علىٰ هذا مواضع كثيرة من سيرته العطرة ﷺ.

ثامنًا: في هذا الحوار عدد من دلائل نبوته ﷺ وشواهد صدقه:

أ- قوله ﷺ: «**لأعطين الراية غدًا**». وقد كان ما أخبر به قبل وقوعه.

ب- بصقه في عين علي والدعاء له فشفي في الحال.

ج- إخباره عن وقوع الفتح علىٰ يد هذا القائد، وقد وقع الأمر كما أخبر صلوات الله وسلامه عليه.

تاسعًا: براعته ﷺ في السياسة الحربية ويتضح ذلك بأمور:

أ- رفع الروح المعنوية لدىٰ أصحابه حين قال: «**لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله علىٰ يديه**». فبقوا متشوقين لها متنافسين عليها.

ب ـ بشارتهم بالفتح.

ج ـ وصيته لقائد جيشه وإعطاؤه التعليمات المناسبة ومن ذلك قوله: «**أنفذ علىٰ رسلك حتىٰ تنزل بساحتهم**».

٣- **عن بريدة** رضي الله عنه **قال:** «كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرًا علىٰ جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوىٰ الله ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: «**اغزوا باسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا.**

وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلىٰ ثلاث خصال -أو: **خلال**- **فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلىٰ الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلىٰ التحول من دارهم إلىٰ دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما علىٰ المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري علىٰ المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.**

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل

لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله.

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم علىٰ حكم الله، فلا تنزلهم علىٰ حكم الله، ولكن أنزلهم علىٰ حكمك؛ فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار العظيم مايلي:

أولًا: كمال سياسة النبي ﷺ الحربية وإدارته للأمور ويتضح ذلك فيما يلي:

أ ـ وصية قادة جيوشه بخاصة أنفسهم ومن معهم بتقوىٰ الله، لأن القائد وكبير القوم بمنزلة القلب من الجوارح، وتصلح رعيته بصلاحه، وتفسد بفساده إلا أن يشاء الله.

ب ـ حث القائد ومن معه علىٰ إخلاص العمل لله بحيث يكون جهادهم في سبيل الله ولإعلاء كلمته.

ج ـ حث القائد ومن معه علىٰ الاستعانة بالله قبل كل شيء، وألا يعتمدوا علىٰ كثرة عددهم أو عدتهم، فإنما النصر من عند الله العزيز الحكيم، وذلك من قوله ﷺ: «**اغزوا باسم الله**».

د ـ إعداد الجيش إعدادًا معنويًّا إيمانيًّا، وهذا يتضح من خلال ما سبق، وهذا هو المفقود اليوم في كثير من الجيوش الإسلامية في قادة الجيوش وأفرادها إلا من رحم الله؛ فالنوايا مدخولة والمعاصي منتشرة من ظلم وترك للواجبات وفعل للمحرمات، والتضييق علىٰ المتدينين من القادة والأفراد.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الجهاد والسير، باب: تأمير الإمام الأمراء علىٰ البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها برقم (١٧١٣).

هـ ـ التعبئة الجهادية قبل خوض المعركة، والتهييج علىٰ القتال، ورفع الروح المعنوية لدىٰ القائد والجنود، ويتضح ذلك في قول النبي ﷺ: «**اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله**».

و- نهي القائد وجيشه عن مخالفات يحصل كثير منها في كثير من الحروب، وربما كانت سببًا للهزيمة والفشل وذلك في قول النبي ﷺ: «**لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا**».

ز- توجيه القائد إلىٰ الطريقة المثلىٰ التي يتعامل بها مع الأعداء في دعوتهم وعند حصارهم، وعند إجراء المفاوضات معهم.

وكل ما سبق يعد جزءًا من السياسة النبوية الحربية التي يجب علىٰ المسلمين الأخذ بها تأسيًا بقائدهم الأعظم وقدوتهم محمد ﷺ، كما أمرنا بذلك ربنا ﷻ حيث قال ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر:٧].

وقال تعالىٰ: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ [النور: ٥٤].

ثانيًا: أن هذا النبي الكريم لم يبعث ليُكره الناس علىٰ الدخول في الإسلام كما يقوله أعداء الإسلام، ففي هذا الحوار أن النبي ﷺ أمر قائد جيشه أن يدعو أعداءه المشركين قبل قتالهم إلىٰ ثلاث خلال، وقال له: «**أيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم**».

فأمره أن يبدأ بدعوتهم إلىٰ الإسلام؛ فإن أجابوه فليقبل منهم وليكف عن قتالهم، ثم يدعوهم إن أسلموا إلىٰ الهجرة إلىٰ دار المهاجرين دار الإسلام، وأنهم إن

فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم.

فإن أسلموا وامتنعوا من الهجرة فيقبل منهم كذلك ويكف عنهم، إلا أنه يخبرهم بأن أحكام الإسلام جارية عليهم كما جرت على إخوانهم المهاجرين، بمقتضى دخولهم في الإسلام، إلا أنه لا حظ لهم في الغنيمة والفيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين.

فإن أبوا الإسلام فيعرض عليهم دفع الجزية مقابل حماية دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ويبقون على دينهم ولا يجبرون على الدخول في الإسلام، بل يقبل منهم ذلك ويكف عنهم.

فإن أبوا هذا وذاك استعان بالله على قتالهم، لا لأنهم امتنعوا عن الدخول في الإسلام كما سبق بيانه، وكما هو نص الحديث لكن حماية للإسلام وأهله من شرهم وعدوانهم.

فكيف مع هذا يسوغ أن يقال: إن هذا النبي الكريم بعث ليكره الناس على الدخول في دينه؟

أليس هذا الحديث كافيًا في دحض هذه الفرية على الإسلام ونبيه الكريم؟

ألم يقل الله في كتابه الكريم ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة ٢٥٦].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره» (١/ ٤١٦-٤١٧): «يقول تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ أي: لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام؛ فإنه بيِّن واضح جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله

للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه علي بينة، ومن أعمىٰ الله قلبه وختم علىٰ سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهًا مقسورًا.

وقد ذكروا: أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار وإن كان حكمها عامًّا...

ثم ذكر حديث ابن عباس قال: كانت المرأة تكون مقلاة -أي: التي لا يعيش لها ولد- فتجعل علىٰ نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾». اهـ.

وقال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره» مفسرًا الآية السابقة ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾: «هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهينه واتضاح آياته، وكونه هو دين العقل والعلم والفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد فلكماله وقبول الفطرة له لا يحتاج إلىٰ الإكراه عليه؛ لأن الإكراه إنما يقع علىٰ ما تنفر عنه القلوب ويتنافىٰ مع الحقيقة والحق، أو لما تخفىٰ براهينه وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين ورده ولم يقبله فإنه لعناده». اهـ.

ثم قد بقي النبي ﷺ في المدينة وفيها طوائف كثيرة من اليهود ولم يجبرهم علىٰ الدخول في الإسلام، بل كل من عرف عدالة الإسلام وسماحته وما فيه من خير، وكان منصفًا من نفسه ناصحًا لها إلا دخل في الإسلام طواعية، وبذل دمه وماله من أجله، ويدل.

علىٰ هذا عدة أدلة:

١- الذين آمنوا بالنبي ﷺ بمكة وهو وحيد يناله من أذىٰ القريب والبعيد ما

يناله، وينال من آمن به ألوان من العذاب حتىٰ قُتل من قُتل وهاجر من هاجر إلىٰ الحبشة مرتين فرارًا بدينه.

٢- أهل المدينة الذين بايعوا النبي ﷺ في مكة وطلبوا منه الهجرة إليهم لم يجبرهم أحد علىٰ ذلك، ولا كان للنبي ﷺ قدرة لحماية المؤمنين المستضعفين، بل كان مأمورًا بالصبر.

٣- النجاشي ملك الحبشة لما بلغه ما بلغه من دين الإسلام أسلم طواعية والنبي ﷺ بمكة وأصحابه قد فر من فر بدينه منهم إلىٰ النجاشي.

٤- لما هاجر النبي ﷺ إلىٰ المدينة أسلم عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وكان حبْرًا من أحبار اليهود طواعية دون أن يجبره أحد.

٥- سلمان الفارسي وكان عنده علم بالنصرانية وصحب أكابر علمائها آمن بالنبي ﷺ طواعية لما تحقق من علامات نبوته التي حفظها من علماء النصارىٰ.

٦- أسلم أهل اليمن دون قتال بل أرسل إليهم النبي ﷺ من يدعوهم إلىٰ الإسلام، فشرح الله صدورهم لذلك فجاءوا مؤمنين، فقال فيهم النبي ﷺ: «**أتاكم أهل اليمن هم أرق قلوبًا وألين أفئدة، الإيمان يمان والحكمة يمانية**».

فأي سيف سل عليهم حتىٰ أسلموا قهرًا؟!

٧- دخلت بعض دول شرق آسيا مثل إندونيسيا وماليزيا في الإسلام بلا سيف ولا جيش، بل تأثروا بأخلاق تجار المسلمين وما بلغهم عن عدالة الإسلام وسماحته وسمو تعاليمه فأسلموا طواعية.

٨- لا يزال إلىٰ اليوم في أمريكا وأوربا وآسيا وأستراليا من يدخل في الإسلام بأعداد كبيرة أخافت أعداء الإسلام، مع ضعف المسلمين وقوة أعدائهم، ومع تشويه

أعداء الإسلام لصورة الإسلام، وتنفير شعوبهم عنه بشتىٰ الوسائل، فمن الذي أجبرهم علىٰ الدخول في الإسلام؟!

ورحم الله ابن القيم إذ يقول في كتابه «هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ» (ص١٤-١٥): «ومن تأمل سيرة النبي ﷺ تبين له أنه لم يكره أحدًا علىٰ دينه قط، وأنَّه إنما قاتل من قاتله، وأمَّا من هادنه فلم يقاتله ما دام مقيمًا علىٰ هدنته لم ينقض عهده، بل أمره الله تعالىٰ أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧].

ولمَّا قدم المدينة صالح اليهود وأقرَّهم علىٰ دينهم. فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدءوه بالقتال قاتلهم، فمنَّ علىٰ بعضهم وقتل بعضهم.

وكذلك لمَّا هادن قريشًا عشر سنين لم يبدأهم بقتال حتىٰ بدءوا هم بقتاله ونقضوا عهده فعند ذلك غزاهم في ديارهم.

وكانوا هم يغزونه قبل ذلك كما قصدوه يوم أحد ويوم الخندق، ويوم بدر أيضًا هم جاءوا لقتاله ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم.

والمقصود: أنه لم يكره أحدًا علىٰ الدخول في دينه ألبتة، وإنما دخل الناس في دينه اختيارًا وطوعًا.

فأكثر أهل الأرض دخلوا في دعوته لمَّا تبين لهم الهدىٰ وأنه رسول الله حقًّا.

فهؤلاء أهل اليمن كانوا علىٰ دين اليهودية أو أكثرهم كما قال النبي ﷺ لمعاذ لما بعثه إلىٰ اليمن: «**إنك ستأتي قومًا أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**». وذكر الحديث.

ثم دخلوا من غير رغبة ولا رهبة.

وكذلك من أسلم من يهود المدينة وهم جماعة كثيرون غير عبد الله بن سلام مذكورون في كتب السير والمغازي، لم يسلموا رغبة في الدنيا ولا رهبة من السيف، بل أسلموا في حال حاجة المسلمين وكثرة أعدائهم ومحاربة أهل الأرض لهم من غير سوط ولا نوط، بل تحملوا معاداة أقربائهم وحرمانهم نفعهم بالمال والبدن مع ضعف شوكة المسلمين وقلة ذات أيديهم، فكان أحدهم يعادي أباه وأمه وأهل بيته وعشيرته ويخرج من الدنيا رغبة في الإسلام لا لرياسة ولا مال.

بل ينخلع من الرياسة والمال ويتحمل أذىٰ الكفار من ضربهم وشتمهم وصنوف أذاهم لا يصرفه ذلك عن دينه.

وهؤلاء نصارىٰ الشام كانوا ملء الشام ثم صاروا مسلمين إلا النادر فصاروا في المسلمين كالشعرة السوداء في الثور الأبيض.

وكذلك المجوس كانت أمة لا يحصىٰ عددها إلا الله فأطبقوا علىٰ الإسلام لم يتخلف منهم إلا النادر وصارت بلادهم بلاد إسلام». اهـ.

رابعًا: في هذا الحوار دليل لقاعدة ارتكاب أخف الضررين لقوله ﷺ في الحوار السابق: «**وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك؛ فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله...**».

خامسًا: عظيم رحمة هذا النبي الكريم وسماحة الدين الذي جاء به حتىٰ في حال الحرب وقتال الأعداء؛ فإن النبي ﷺ حرم الغدر لأن دين الإسلام يأمر بالوفاء بالعهود وأداء الأمانات إلىٰ أهلها، كما حرم التمثيل بالقتلىٰ ونهىٰ عن قتل الأطفال والنساء عمدًا.

فقد جاء إضافة إلىٰ ما في الحوار السابق حديث في «صحيح البخاري ومسلم» عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن امرأة وُجدت في بعض مغازي رسول الله مقتولة فأنكر رسول الله قتل النساء والصبيان».

فحروب المسلمين حروب شريفة وعادلة لا يؤخذ فيها البريء بجريرة الظالم المعتدي، ولا يمثل بالقتلىٰ ولو كانوا كفارًا.

سادسًا: أن من مقومات الحوار الناجح: أن المحاور إذا أمر بأمر ذكر المصالح المترتبة علىٰ فعله، وإذا نهىٰ عن أمر ذكر المفاسد المترتبة علىٰ فعله، فتربط الأمور بأسبابها ونتائجها كما في حوار النبي ﷺ السابق، وهذا أدعىٰ لقبول الأمر والنهي وأوقع في نفس المخاطب، ودعوة له بلسان الحال إلىٰ إعمال عقله وفكره، فإن الشريعة الإسلامية المطهرة لم تأت قط بما تحيله العقول.

وقد سئل أحد العقلاء عن الشريعة الإسلامية فقال: «لم تأمر بأمر فقال العقل ليتها نهت عنه، ولم تنه عن أمر فقال العقل ليتها أمرت به».

ذلك أن هذه الشريعة الخالدة شرعها مَن أبدع العقول وركب فيها ما ركب، فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين.

٤ ـ عن جندب بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال: «بعث رسول الله ﷺ بعثًا من المسلمين إلىٰ قوم من المشركين، وإنهم التقوا، فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلىٰ رجل من المسلمين قصد له فقتله.

وإن رجلًا من المسلمين قصد غفلته قال: وكنا نُحَدَّث أنه أسامة بن زيد، فلما رفع عليه السيف قال: لا إله إلا الله؛ فقتله.

فجاء البشير إلىٰ النبي ﷺ فسأله فأخبره، حتىٰ أخبره خبر الرجل كيف صنع، فدعاه فسأله فقال: «**لم قتلته؟**».

قال: يا رسول الله، أوجع في المسلمين وقتل فلانًا وفلانًا، وسمىٰ له نفرًا، وإني حملت عليه فلما رأىٰ السيف قال: لا إله إلا الله.

قال رسول الله ﷺ: «**أقتلته؟**».

قال: نعم.

قال: «**فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟**».

قال: يا رسسول الله استغفر لي.

قال: «**وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟**».

فجعل لا يزيده علىٰ أن يقول: «**كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟!**»(١).

٥- عن أسامة بن زيد رضي الله عنه.

قال: «بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبحنا الحرقات من جهينة فأدركت رجلًا فقال: لا إله إلا الله، فطعنته فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: «**أقال لا إله إلا الله وقتلته؟!**».

قال: قلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفًا من السلاح.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب: تحريم قتل الكافر بعد قوله لا إله إلا الله برقم (٩٧).

قال: «**أفلا شققت عن قلبه حتىٰ تعلم أقالها أم لا؟!**».

فما زال يكررها علي حتىٰ تمنيت أني أسلمت يومئذ»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار العظيم ما يلي:

أولًا: أن من فنون الحوار اللين في موضعه والشدة في موضعها، وذلك من كمال حكمته ﷺ حيث كان يستعمل هذا في مواضعه، والسيرة النبوية طافحة بهذا فقد أغلظ القول هنا لأسامة رضي الله عنه لأن المقام يستدعي ذلك حتىٰ قال أسامة رضي الله عنه: فما زال يكررها علي حتىٰ تمنيت أني أسلمت يومئذ».

ثانيًا: أن من احتاج في حواره إلىٰ تغليظ القول فلا يأت بألفاظ نابية أو بذيئة، بل يؤنب بعبارات تجعل المخطئ يشعر بخطئه ولا ينفر عن الحق وأهله، وهذا هو خلق النبي ﷺ كما يظهر في هذا الحوار مع عِظم الخطأ، فما كان من أسامة رضي الله عنه إلا الندم ثم قال: استغفر لي يا رسول الله.

ثالثًا: عظيم رحمة النبي ﷺ وعدالته، فمع ما فعل ذلك الرجل بالمسلمين إلا أنه لما تلفظ بكلمة التوحيد أنكر إنكارًا شديدًا علىٰ أسامة لما قتله.

رابعًا: أن الشريعة الإسلامية السمحة التي بعث بها محمد ﷺ تُجري الأحكام علىٰ الظواهر والله يتولىٰ السرائر؛ لأن النبي ﷺ أنكر علىٰ أسامة قتله الرجل بعد أن قال لا إله إلا الله، فلما قال له أسامة إنما قالها خوفًا من السلاح. قال: «**أفلا شققت عن قلبه حتىٰ تعلم أقالها أم لا؟!**».

خامسًا: ما كان عليه النبي ﷺ من الصدق والصراحة وعدم المحاباة، فالقاتل

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب: تحريم قتل الكافر بعد قوله لا إله إلا الله برقم (٩٦).

أحد الصحابة بل من أحب الناس إليه، والمقتول كان في صف المشركين، إلا أنه لما قال هذه الكلمة بين النبي ﷺ أنه كان الواجب أن يعامل بمقتضىٰ نطقه بتلك الكلمة فيعصم دمه.

سادسًا: أن من فنون الحوار تكرار الكلام إذا كان هناك ما يقتضيه كما في هذا الحوار العظيم.

سابعًا: أن من فنون الحوار وآدابه التثبت من الأخبار المنقولة قبل إصدار الأحكام علىٰ قائليها؛ لأن نقل الأخبار علىٰ عواهنها مما يضعف الحجة ويقوي الجانب الآخر، ويضعف الثقة بأحكام الشخص؛ لأنها قد تكون مبنية علىٰ أمور لا أساس لها من الصحة.

ثامنًا: أن من فنون الحوار وآدابه إعطاء المخاطب فرصة ليتكلم بإبداء عذر أو إلقاء حجة أو طرح استفسار ونحو ذلك، وهذه سمة بارزة في كثير من حوارات النبي ﷺ، إذا كان المقام يقتضي ذلك.

٦- عن كعب بن مالك رضي الله عنه.

قال: «لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك.

غير أني قد تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحدًا تخلف عنه، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتىٰ جمع الله بينهم وبين عدوهم علىٰ غير ميعاد.

ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة، حين تواثقنا علىٰ الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أَذْكَرَ في الناس منها.

وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط

أقوىٰ ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة.

والله ما جمعت قبلها راحلتين قط، حتىٰ جمعتهما في تلك الغزوة.

فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا، واستقبل عدوًّا كثيرًا.

فجلىٰ للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ -يريد بذلك الديوان-.

فقلَّ رجل يريد أن يتغيب يظن أن ذلك سيخفىٰ له ما لم ينزل فيه وحي من الله عَزَّوَجَلَّ.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فأنا إليها أصعر.

فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئًا، وأقول في نفسي: أنا قادر علىٰ ذلك إذا أردت.

فلم يزل ذلك يتمادىٰ بي حتىٰ استمر بالناس الجد.

فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئًا.

ثم غدوت ولم أقض شيئًا، فلم يزل ذلك يتمادىٰ بي حتىٰ أسرعوا وتفارط الغزو.

فهممت أن أرتحل فأدركهم، فيا ليتني فعلت! ثم لم يقدَّر ذلك لي.

فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرىٰ لي أسوة إلا رجلًا مغموصًا عليه في النفاق، أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفاء.

ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتىٰ بلغ تبوكًا فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «**ما فعل كعب بن مالك؟**».

قال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه برداه والنظر في عطفيه.

فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا.

فسكت رسول الله ﷺ فبينما هو علىٰ ذلك رأىٰ رجلًا مبيضًا يزول به السراب فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة. فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون.

فقال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلًا من تبوك حضرني بثي فطفقت أتذكر الكذب وأقول بم أخرج من سخطه غدًا؟ وأستعين علىٰ ذلك كل ذي رأي من أهلي.

فلما قيل لي: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل حتىٰ عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبدا، فأجمعت صدقه وصبح رسول الله ﷺ قادمًا وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس.

فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلًا.

فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلىٰ الله حتىٰ جئت فلمَّا سلمت تبسم تبسُّم المغضب ثم قال: «**تعال!**».

فجئت أمشي حتىٰ جلست بين يديه فقال لي: «**ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟**».

قال: قلت: يا رسول الله، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطِيت جدلًا، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضىٰ به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن

حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عقبىٰ الله، والله ما كان لي عذر والله ما كنت قط أقوىٰ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.

قال رسول الله ﷺ: «**أما هذا فقد صدق؛ فقم حتىٰ يقضي الله فيك**».

فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنبًا قبل هذا، لقد عجزت في ألا تكون اعتذرت إلىٰ رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلفون، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك.

قال: فوالله ما زالوا يؤنبونني حتىٰ أردت أن أرجع إلىٰ رسول الله ﷺ فأكذب نفسي.

قال ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟

قالوا: نعم، لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك.

قال: قلت: من هما؟

قالوا: مرارة بن ربيعة العامري، وهلال بن أمية الواقفي.

قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا فيهما أسوة.

قال: فمضيت حين ذكروهما لي.

قال: ونهىٰ رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة مِن بين مَن تخلف عنه.

قال: فاجتنَبنَا الناس، وقال: تغيروا لنا حتىٰ تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي أعرف فلبثنا علىٰ ذلك خمسين ليلة.

فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم

وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت علىٰ صلاتي نظر إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني.

حتىٰ إذا طال ذلك علي من جفوة المسلمين مشيت حتىٰ تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام.

فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمن أني أحب الله رسوله؟

قال: فسكت فعدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم.

ففاضت عيناي وتوليت حتىٰ تسورت الجدار.

فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل علىٰ كعب بن مالك.

قال: فطفق الناس يشيرون له إلي حتىٰ جاءني فدفع إلي كتابًا من ملك غسان، وكنت كاتبًا فقرأته فإذا فيه: أما بعد؛ فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالْحَقْ بنا نواسك!

قال: فقلت حين قرأتها: وهذه أيضًا من البلاء، فتياممت بها التنور فسجرتها بها.

حتىٰ إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك.

قال: فقلت: أطلقها أماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها فلا تقربنها.

قال: فأرسل إلىٰ صاحبي بمثل ذلك قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني

عندهم حتىٰ يقضي الله في هذا الأمر.

قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟

قال: لا، ولكن لا يقربنك. فقالت: إنه والله ما به حركة إلىٰ شيء. ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلىٰ يومه هذا.

قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه.

قال: فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب؟!

قال: فلبثت بذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهي عن كلامنا.

قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة علىٰ ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس علىٰ الحال التي ذكر الله عَزَّوَجَلَّ منا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفىٰ علىٰ سلع يقول بأعلىٰ صوته: يا كعب بن مالك أبشر.

قال: فخررت ساجدًا وعرفت أن قد جاء فرج.

قال: فآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله علينا حين صلىٰ صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا فذهب قِبَلَ صاحبَيَّ مبشرون وركض رجل إلي فرسًا. وسعىٰ ساع من أسلم قبلي، وأوفىٰ الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس.

فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني فنزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما.

فانطلقت أتأمم رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنئونني بالتوبة ويقولون: لتهنئك توبة الله عليك، حتىٰ دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتىٰ صافحني وهنأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره. قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت علىٰ رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور ويقول: «**أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك!**».

قال: فقلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟

فقال: «**لا، بل من عند الله**».

وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه كأن وجهه قطعة قمر. قال: وكنا نعرف ذلك.

قال: فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلىٰ الله وإلىٰ رسوله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: «**أمسك بعض مالك فهو خير لك**».

قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر.

قال: وقلت: يا رسول الله، إن الله إنما أنجاني بالصدق وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا ما بقيت.

قال: فوالله ما علمت أن أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلىٰ يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلىٰ يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

قال: فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ [التوبة: ١١٧-١١٨]، حتىٰ بلغ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة: ١١٧-١١٩].

قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد وقال الله: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦].

قال كعب: كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرنا حتىٰ قضىٰ الله فيه فبذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾ [التوبة: ١١٨]، وليس الذي ذكر الله مما خلفنا تخلُّفَنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه»(١).

ومما يستفاد من هذه القصة والحوار ما يلي:

أولًا: براعة نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السياسة الحربية وتفوقه فيها، حيث كان يورِّي إذا خرج

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب المغازي، باب: حديث كعب بن مالك برقم (٤٤١٨)، ومسلم في «صحيحه» كتاب التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه برقم (٢٧٦٩).

للغزو تعميةً للأخبار عن العدو، ولكنه في هذه الغزوة صرح لأصحابه لبعد المسافة وقوة العدو، وصعوبة الظرف ليتأهبوا لذلك.

ثانيًا: حسن عشرة النبي ﷺ لأتباعه ورعايته لهم، وتفقده لأحوالهم، وسؤاله عنهم سفرًا وحضرًا، وحملهم علىٰ ظاهرهم وقبول أعذارهم.

ثالثًا: حسن خلق النبي ﷺ وسعة صدره، فقد تخلف كعب رضي الله عنه ولما جاءه تبسم في وجهه ودعاه وسأله عن سبب تخلفه ثم صدقه فيما قال.

رابعًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بأمته وصفاء سريرته فقد فرح فرحًا شديدًا بتوبة الله علىٰ كعب وصاحبيه، فقد قال كعب رضي الله عنه واصفًا فرحة رسول الله ﷺ بعد نزول توبة الله عليهم: «فلما سلمت علىٰ رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور ويقول: «**أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**».

قال: فقلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟

فقال: «**لا بل من عند الله**».

وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه كأن وجهه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك».

خامسًا: عظيم نصح النبي ﷺ لأمته وحرصه علىٰ مصلحتهم؛ فإن كعبًا رضي الله عنه لما جلس بين يدي رسول الله ﷺ وقال له: «يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلىٰ الله ورسوله. فقال له رسول الله ﷺ: «**أمسك بعض مالك فهو خير لك**».

سادسًا: حسن تربية النبي ﷺ لأصحابه؛ حيث أخرج هذا الجيل الفريد الذي كان يُؤْثر الصدق ولو كان فيه هلاكه ويثبت أمام الفتن والمغريات أحوج ما يكون

إليها من أجل الله ورسوله ﷺ؛ فقد آثر كعب الصدق مع رسول الله ولم يكذب كما كذب المنافقون، ولم يستجب لمن زين له الكذب ومنَّاه باستغفار رسول الله ﷺ له.

ولما هجره المسلمون بأمر رسول الله ﷺ تأديبًا له واشتد ذلك عليه جاءه كتاب ملك غسان يعرض عليه القدوم عليه لمواساته ويغريه بالدنيا؛ فما كان منه رضي الله عنه إلا أن قال في نفسه عند قراءة تلك الرسالة: «وهذا أيضًا من البلاء»، وألقىٰ الرسالة في التنور ليقطع صلته بهذه الفتنة بالكلية؛ فرضي الله عنه وأرضاه.

ثم لما تاب الله عليه وعلم أن صدقه كان سبب نجاته قال للنبي ﷺ: «يا رسول الله إن الله إنما أنجاني بالصدق وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا ما بقيت. قال: فوالله ما علمت أن أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلىٰ يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلىٰ يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي».

سابعًا: حزم النبي ﷺ وحكمته حيث ترك عقوبة المنافقين وعاقب هؤلاء الصادقين تربية وتطهيرًا لهم ولسائر المؤمنين، فآتىٰ ذلك ثماره فقد امتثل المؤمنون أمره، وهجر هؤلاء الثلاثة القريب والبعيد سرًّا وعلنًا، ثم جاء الفرج بعد الشدة، وظهرت آثار الرحمة في العقوبة، وحصلت الفرحة وانقلب الحزن سرورًا.

حوار النبي ﷺ مع الأنصار عقب تقسيم غنائم حنين:

١ـ عن أبي سعيد الخدري قال:

«لما أعطىٰ رسول الله ﷺ ما أعطىٰ من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتىٰ كثرت فيهم القالة حتىٰ قال قائلهم: لقي رسول الله ﷺ قومه.

فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء.

قال: «**فأين أنت من ذلك يا سعد؟**».

قال: يا رسول الله، ما أنا إلا امرؤ من قومي وما أنا؟

قال: «**فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة**».

قال: فخرج سعد فجمع الناس في تلك الحظيرة.

قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردَّهم، فلما اجتمعوا أتاه سعد.

فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار.

فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنىٰ عليه بالذي هو له أهل ثم قال: «**يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغتني عنكم وجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم؟! ألم آتكم ضلالًا فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟**».

قالوا: بلىٰ، الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل.

قال: «**ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟**».

قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله ولله ولرسوله المن والفضل.

قال: «**أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصُدقتم: أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فأغنيناك! أَوَجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلىٰ إسلامكم؟!**»

أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله ﷺ في رحالكم؟

فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار.

اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار».

قال: فبكىٰ القوم حتىٰ أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قَسْمًا وحظًّا.

ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقنا»(١).

لقد كان للأنصار دور مشرف عظيم في غزوة حنين حتىٰ إنه في «صحيح البخاري»(٢): «أنه كان مع رسول الله عشرة آلاف ومن الطلقاء فأدبروا عنه حتىٰ بقي وحده، فنادىٰ يومئذ نداءين لم يخلط بينهما: التفت عن يمينه فقال: «**يا معشر الأنصار!**». قالوا: لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك. ثم التفت عن يساره فقال: «**يا معشر الأنصار**». قالوا: لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك. وهو علىٰ بغلة بيضاء، فنزل فقال: «**أنا عبد الله ورسوله**»، فانهزم المشركون.

فأصاب يومئذ غنائم كثيرة فقسم في المهاجرين والطلقاء ولم يعط الأنصار شيئًا، فقالت الأنصار: إذا كانت شديدة فنحن ندعىٰ ويعطي الغنيمة لغيرنا».

فكان المتوقع عند الأنصار أن يقسم رسول الله الغنائم بين جميع المجاهدين

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٣/ ٧٦-٧٧)، وابن هشام في «السيرة» (٢/ ٣١٠-٣١١)، وذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (٤/ ٣٥٨) ثم قال: وهو صحيح، وصححه، الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «التعليق علىٰ فقه السنة» للغزالي (ص٣٩٦).

(٢) برقم (٤٣٣٧).

وهم منهم، وقد أبلوا بلاء حسنًا، وكل أحد يريد أن يكون له نصيب من هذا الرزق الحلال الذي يقسمه رسول الله.

إلا أنهم فوجئوا بأن رسول الله أعطىٰ عطايا عظامًا للمسلمين الجدد من الطلقاء، وفي بعض رءوس العرب ولم يبلوا في المعركة بلاء الأنصار، ولا كان لهم من السابقة ما للأنصار، فوقع في نفوسهم وتكلم بعضهم بما سبق، وقال بعضهم كما في «صحيح البخاري»[(١)]: «يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم». حتىٰ كثرت القالة بين الأنصار.

ولا شك أن هذا حدث جلل، حدث في صفوف المجاهدين بعد النصر إن لم يحسم قد يكون له تداعيات خطيرة جدًّا، فما كان من الرسول الرحيم الحكيم ﷺ عند أن بلغه الخبر عن طريق سيد الخزرج سعد بن عبادة إلا أن قال له: «**أين أنت من قومك؟**». فأجابه إجابة المؤمن الصادق: ما أنا إلا امرؤ من قومي وما أنا؟.

فلم يعاتبه رسول الله ولا سأله عن مصدر تلك القالة، ومن قال تلكم المقالات ـ مع ما فيها ـ بل طلب منه أن يجمع قومه كلهم ليجعل حديثه معهم جميعًا، كما أن القالة كثرت بينهم ليواجه المشكلة من أساسها.

وهنا تتجلىٰ حكمة هذا الرسول العظيم ورحمته وصدقه وإنصافه وسياسيته الفذة.

فقد بدأ بسؤال فيه عتب الوالد علىٰ الولد، والمعلم علىٰ المتعلم ثم ثنىٰ بذكر بعض ما أجراه الله لهم علىٰ يديه من الخير الذي لا تقوم له الدنيا، حيث نقلهم الله به من الضلال إلىٰ الهدىٰ ومن الفقر إلىٰ الغنىٰ، ومن العداوة والبغضاء إلىٰ التآلف

---

(١) برقم (٤٣٣١)

والصفاء، وكلما ذكرهم بواحدة قالوا: «الله ورسوله أمنُّ وأفضل».

ثم طلب منهم أن يجيبوه، فلم يسمع منهم إلا: «وبماذا نجيبك يا رسول الله ولله ولرسوله المن والفضل؟!».

فقال رسول الله ﷺ مسليًا لهم ومقرًّا لهم بالجميل والفضل: «**لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصُدقتم: أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلا فآسيناك**».

وبعد أن طابت النفوس واطمأنت القلوب عاد إلىٰ عتابهم وإزالة الشبهة عنهم، وبين لهم أنه إنما أعطىٰ تلك العطايا لغيرهم من الطلقاء ورءوس العرب ليتألفهم ويثبت الإيمان في قلوبهم، وتركهم لما في قلوبهم من الإسلام والخير.

ثم بين لهم أنهم أربح الغانمين حيث سيرجع الناس بالشاء والإبل، ويرجعون هم برسول الله إلىٰ رحالهم.

ثم أقسم لهم بالله أنه لولا الهجرة لكان امرأً منهم، ثم دعا لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم، فما كان إلا أن ترجمت العيون والألسنة ما في قلوبهم، ففاضت عيونهم حتىٰ أخضلوا لحاهم، ونطقت ألسنتهم بالرضا الذي ملأ قلوبهم قائلين: «رضينا برسول الله قسمًا وحظًّا.

فيا لها من مشكلة وبداية ويا له من علاج ويا لها من نهاية! وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بأمته عمومًا وبأصحابه خصوصًا؛ حيث لم يترك

هذه القالة تفشو بينهم بل جمعهم وجلىٰ لهم الأمر.

ثانيًا: عظيم عدالة النبي ﷺ وإنصافه؛ حيث ذكر لهم فضلهم وجميلهم، وأقر لهم به وأثنىٰ به عليهم.

ثالثًا: حكمة النبي ﷺ وبراعته في الحوار، فالموقف جلل فقد جمعهم وحاورهم حوارًا عامًّا ثم تدرج النبي ﷺ في حواره، فبدأ بعتابهم عتابًا جميلًا ليس فيه تقريع ولا توبيخ بل ذكرهم بحالهم وما آل إليه أمرهم بسببه، ثم ذكر ما قدموا من سوابق عظيمة، ثم أزال عنهم الشبهة وبين لهم وجه قسمته لتلك الغنائم، ثم بين لهم عظيم مكانتهم في نفسه، ودعا لهم فطابت نفوسهم ورضوا.

رابعًا: أنه ينبغي للكبير إذا حصلت شبهة لأصحابه أن يزيلها عنهم برفق ولين، وألا يتجاهل ذلك لاسيما في الأمور العامة.

خامسًا: ثناء المحاور علىٰ محاوره إن استدعىٰ المقام ذلك فيه فوائد عظيمة، وتقريب للقلوب وتطييب للنفوس.

سادسًا: تسلية من فاته شيء من الدنيا بما له من الأجر والثواب عند الله.

سابعًا: عفوه ﷺ وصفحه فمما قيل: «لقي رسول الله قومه». ومن معاني هذا: أنه حاباهم، ولكن النبي ﷺ اكتفىٰ ببيان وجه ما فعله وإزالة الشبهة عنهم دون تقريع أو لوم أو توبيخ، بل قابل ذلك بالثناء عليهم والدعاء لهم ولأبنائهم.

ثامنًا: أثر الرفق بالناس والإحسان إليهم كما تبين في آخر الحوار.

تاسعًا: أن المنة لله ولرسوله ﷺ علىٰ الإطلاق.

عاشرًا: في الحوار مناقب عظيمة للأنصار وما كانوا عليه من حسن الأدب والحياء وترك المماراة.

حوار دار بين النبي ﷺ وبين وفد هوازن بعد انتصاره عليهم وغنيمة أموالهم ونسائهم وأبنائهم:

١ـ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال:

«شهدت رسول الله ﷺ يوم حنين وجاءته وفود هوازن فقالوا: يا محمد، إنا أصل وعشيرة، فَمُنَّ علينا مَنّ الله عليك؛ فإنه قد نزل بنا من البلاء ما لا يخفىٰ عليك.

فقال: اختاروا بين نسائكم وأموالكم وأبنائكم.

قالوا: خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا نختار أبناءنا.

فقال: «**أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، فإذا صليت الظهر فقولوا:**

إنا نستشفع برسول الله ﷺ علىٰ المؤمنين، وبالمؤمنين علىٰ رسول الله ﷺ في نسائنا وأبنائنا».

قال: ففعلوا.

فقال رسول الله ﷺ: «**أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم**».

وقال المهاجرون: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ.

وقالت الأنصار مثل ذلك.

وقال عيينة بن بدر: أما ما كان لي ولبني فزارة فلا.

وقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا.

وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا.

فقالت الحيان: كذبتَ بل هو لرسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس، ردوا عليهم نساءهم وأبناءهم، فمن**

تمسك بشيء من الفيء فله علينا ستة فرائض من أول شيء يفيئه الله علينا».

ثم ركب راحلته وتعلق به الناس يقولون: اقسم علينا فيئنا بيننا، حتىٰ ألجئوه إلىٰ سمرة فخطفت رداءه.

فقال: «**يا أيها الناس، ردوا علي ردائي، فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نَعَم لقسمته بينكم ثم لا تلقوني بخيلًا ولا جبانًا ولا كذوبًا**».

ثم دنا من بعيره فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصابعه السبابة والوسطىٰ ثم رفعها فقال: «**يا أيها الناس ليس لي من هذا الفيء ولا هذه إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فردوا الخياط والمخيط، فإن الغلول يكون علىٰ أهله يوم القيامة عارًا ونارًا وشنارًا**».

فقام رجل معه كبة من شعر فقال: إني أخذت هذه أصلح بها بردعة بعير لي دبر.

فقال ﷺ: «**أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لك**».

فقال الرجل: يا رسول الله، أما إذ بلغت ما أرىٰ فلا أرب لي بها ونبذها»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عظيم رحمة النبي ﷺ وكمال شفقته وعفوه؛ فالذين جاءوه يطالبون بنسائهم وأولادهم وأموالهم هم الذين حاربوه واستماتوا في حربه، وحرصوا علىٰ القضاء عليه، واستئصال دينه، ومع ذلك رد عليهم ما غنمه من نسائهم وأولادهم، وكأن لم يكن بينه وبينهم حرب لم يغادروا ساحتها بعد.

بل ويلقنهم أن يقوموا بعد صلاته بالناس ويستشفعوا به إلىٰ الناس ليتركوا لهم ما بأيديهم من نسائهم وأولادهم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢/ ١٨٤) وحسنه شعيب الأرناؤوط في «تحقيق المسند».

إنها أخلاق النبوة والترجمة العملية لقول الله تعالىٰ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ثانيًا: أن شريعة الجهاد العظيمة في الشريعة الإسلامية ليس المقصود منها سفك الدماء ولا احتلال الديار ولا نهب الأموال والثروات، وإنما مقصوده وغايته أن يكون الناس عبيدًا لله، ويكون الدين كله لله كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾، وهذا بخلاف حروب غير المسلمين مع المسلمين، والتاريخ الماضي والحاضر خير شاهد علىٰ ذلك، وكفىٰ بالله شهيدًا.

ثالثًا: عظيم حرص النبي ﷺ علىٰ هداية الخلق وتأليف قلوبهم؛ حيث رد علىٰ من حاربه نساءهم وأولادهم وندب أصحابه لذلك ورغبهم فيه، وقد كان لذلك الأثر العظيم علىٰ نفوس هوازن، فقد كانوا بعد ذلك من حملة هذا الدين وحماته.

رابعًا: عدالة النبي ﷺ؛ حيث لم يجبر أصحابه علىٰ التخلي عما في أيديهم من المغنم بل ندبهم لذلك، ولما امتنع عيينة بن بدر وقومه وعباس بن مرداس وقومه من رد ما في أيديهم من النساء والأطفال؛ رغبهم النبي ﷺ بترك ما في أيديهم علىٰ أن يعوضهم عنه أضعافًا مضاعفةً عند أول فيء يفيئه الله عليه فقد قال ﷺ: «**يا أيها الناس ردوا عليهم نساءهم وأبناءهم، فمن تمسك بشيء من الفيء فله علينا ستة فرائض من أول شيء يفيئه الله علينا**».

خامسًا: عظيم حلمه ﷺ؛ فقد تعلق به الناس واضطروه إلىٰ شجرة خطفت رداءه، وطالبوه أن يسرع في قسمة المغانم بينهم، فما عاقبهم ولا عنفهم ولكنه قال لهم: «**يا أيها الناس ردوا علي ردائي، فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعم لقسمته بينكم ثم لا تلقوني بخيلًا ولا جبانًا ولا كذوبًا**».

سادسًا: حسن سياسة النبي ﷺ ومعالجته للأمور علىٰ اختلاف الأحوال أولًا بأول قبل تفاقمها وبأمثل الطرق.

سابعًا: زهده ﷺ في الدنيا؛ حيث قال للمطالبين في قسم الغنائم وقد أخذ وبرة من سنام بعيره: «**أيها الناس ليس لي من هذا الفيء ولا هذه إلا الخمس، والخمس مردود عليكم**».

ثامنًا: أن النبي -صلىٰ الله عليه- كان قدوة حسنة لأصحابه وأمته؛ فقد ندب أصحابه إلىٰ رد ما في أيديهم من نساء هوازن وأبنائهم تأليفًا لقلوبهم وبدأ بنفسه وقرابته، فما كان من المهاجرين والأنصار إلا سرعة التأسي به برد ما في أيديهم.

تاسعًا: براعة النبي ﷺ في الحوار؛ فقد لان مع أعدائه مع كونه المنتصر عليهم وخيَّرهم بين نسائهم وأموالهم، ثم استعمل أسلوب الترغيب مع أصحابه، وأبدىٰ العذر حيث استدعىٰ المقام لذلك وبذل الدنيا تأليفًا للقلوب.

عاشرًا: العفو عند المقدرة فإن النبي ﷺ عفا عن هوازن قتالهم إياه وحشدهم ضده، بل وألان لهم القول ورد عليهم نساءهم وأولادهم مع أنه المنتصر عليهم في المعركة.

حادي عشر: أن قرن الحكم بعلته أبلغ في الوعظ وأدعىٰ لامتثال الأمر؛ فإن النبي ﷺ لما بين لهم حرمة الغلول ـ أخذ شيء من الغنيمة قبل قسمتها ـ ذكر لهم عاقبة ذلك وأنه يكون عارًا ونارًا وشنارًا علىٰ أهله يوم القيامة، فقام رجل وأظهر كبة من شعر كان قد أخذها لإصلاح بردعة بعيره فلما قال رسول الله: «**أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لك**». تركها الرجل وقال: لا أرب لي بها.

وهذا من فنون الحوار وعلامات نجاحه فلا ينبغي للمحاور إغفاله متىٰ دعت الحاجة إليه.

❊ ❊ ❊

الفصل السابع
حوارات نبوية تتعلق بالحدود الشرعية
وما يترتب عليها من المصالح الدينية والدنيوية

أولًا: حوارات تتعلق بحد الزنا الذي تصان به الأعراض وتحفظ به الأنساب:

١- عن بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«جاء ماعز بن مالك إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، طهرني.

فقال: «**ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه!**».

قال: فرجع غير بعيد ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرني.

فقال رسول الله ﷺ: «**ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه!**».

قال: فرجع غير بعيد ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرني.

فقال النبي ﷺ مثل ذلك، حتىٰ إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ: «**فيم أطهرك؟**».

فقال: من الزنا.

فسأل رسول الله ﷺ: «**أبه جنون؟**».

فأخبر أنه ليس بمجنون فقال: «**أشرب خمرًا؟**» فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر.

قال: فقال رسول الله ﷺ: «**أزنيت؟**». فقال: نعم. فأمر به فرجم.

فكان الناس فيه فرقتين قائل يقول: لقد هلك لقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز. إنه جاء إلىٰ النبي ﷺ فوضع يده في يده ثم قال: اقتلني بالحجارة.

قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس فسلم ثم جلس فقال: «**استغفروا لماعز بن مالك**».

قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك.

قال: فقال رسول الله ﷺ: «**لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم**».

ثم جاءت امرأة من غامد فقالت: يا رسول الله إني قد زنيت فطهرني.

وإنه ردها فلما كان الغد قالت: يا رسول الله لم تردني؟ لعلك أن تردني كما رددت ماعزًا فوالله إني لحبلىٰ.

قال: «**إما لا فاذهبي حتىٰ تلدي**».

فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة قالت: هذا قد ولدته.

قال: «**اذهبي فأرضعيه حتىٰ تفطميه**».

فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلىٰ رجل من المسلمين.

ثم أمر بها فحفر لها إلىٰ صدرها وأمر الناس فرجموها فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمىٰ رأسها فتنضح الدم علىٰ وجه خالد فسبها؛ فسمع نبي الله ﷺ سبه إياها فقال: «**مهلًا يا خالد، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر**

له، ثم أمر بها فصلىٰ عليها ودفنت»[(١)].

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بأمته وشفقته عليهم، وحرصه علىٰ سترهم وسلامتهم مع توبتهم إلىٰ الله مما ألموا به من الذنوب، فقد رد ماعزًا مرارًا ليستغفر ويتوب، وفي كل مرة يقول له: «**ويحك!**». وهي كلمة فيها ترحم وتوجع، ثم أمر بالاستغفار له بعد موته وأثنىٰ علىٰ صدق توبته.

ثانيًا: أن المحاور ينبغي له أن يكون ناصحًا لمحاوره، دالًّا له علىٰ ما ينفعه، فالنبي ﷺ نصح ماعزًا أن يرجع ويستغفر الله ويتوب إليه، لأن الإثم يسقط بالتوبة.

فمن صفات المحاور الناجح أن يكون ناصحًا أمينًا، وقد كان النبي ﷺ كذلك.

ثالثًا: التحقق والتثبت في الأمور العظيمة وعدم العجلة، وهذه من أهم آداب الحوار وصفات المحاور الناجح، فبعد أن أقر ماعز أربع مرات سأل عنه النبي ﷺ: «**أبه جنون؟... أشرب خمرًا؟**» ثم قال: «**أزنيت؟**» قال: نعم.

لأن هذا أمر عظيم يترتب عليه الرجم بالحجارة حتىٰ الموت لأن ماعزًا كان محصنًا.

رابعًا: أن الحدود تدرأ بالشبهات، وهذا من يسر وسماحة هذا الدين الذي بعث به محمد ﷺ حيث سأل النبي ﷺ: «**أبه جنون؟... أشرب خمرًا؟**».

خامسًا: أنه لا يؤاخذ الشخص بذنب غيره إذا لم يكن له يد في ذلك، حيث أمر

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الحدود، باب: من اعترف علىٰ نفسه بالزنا برقم (١٦٩٥).

النبي ﷺ بتأخير الحد عن الغامدية حتىٰ تضع وتفطمه، ثم دفع الصبي إلىٰ من يقوم برعايته وتربيته.

سادسًا: عظمة دين الإسلام في أحكامه التي شرعها الحكيم الخبير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الرحيم بعباده، العليم بما يصلحهم، حيث شرع رجم الزاني المحصن لما يترتب علىٰ زناه من مفاسد عامة وخاصة، فشرع الله العقوبة الرادعة المناسبة التي تكون سببًا في صيانة الأعراض.

سابعًا: أن من آداب الحوار: أن المخاطب إذا وقع فيما ينكر عليه أن يكون الإنكار برفق ما لم تدع مصلحة إلىٰ التغليظ أو الزجر، ثم يقرن الإنكار عليه ببيان الدليل والتعليل إن أمكن، ليكون ذلك أوقع في النفس وأدعىٰ للقبول، فخالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سب المرأة حين وقع عليه شيء من دمها قال له النبي ﷺ: «**فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له**».

فينبغي أن يتصف المحاور الفذ الناجح بالرفق؛ إذ هو الأصل، ومتىٰ عرض عارض يستدعي الشدة والغلظة بحيث تتحقق بها المصلحة فالحكمة وضع الأشياء في مواضعها.

ثامنًا: أن من فنون الحوار تأكيد الكلام المهم بقسمٍ ونحوه ليؤخذ بعين الاعتبار ويهتم به، كما يدل عليه خطاب النبي ﷺ لخالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالا:

«إن رجلًا من الأعراب أتىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله.

فقال الخصم الآخر، وهو أفقه منه: نعم، فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لي.

فقال رسول الله ﷺ: «قل».

قال: إن ابني كان عسيفًا علىٰ هذا فزنىٰ بامرأته، وإني أخبرت أن علىٰ ابني الرجم، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أنما علىٰ ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن علىٰ امرأة هذا الرجم.

فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله: الوليدة والغنم رد، وعلىٰ ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغد يا أنيس إلىٰ امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها**».

قال: فغدا عليها فاعترفت فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت[1].

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: حسن خلق النبي ﷺ وحلمه علىٰ من يخاطبه بما لا يليق بمقامه الكريم فقد قال له الرجل: «**أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله**». فلم يعاتبه رسول الله ولم يعرض عنه بل قال: «**والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله**».

ثانيًا: مشروعية القسم علىٰ الأمور التي يُحتاج إلىٰ تأكيدها عند الحوار، وإن لم يطلب ذلك، فالنبي ﷺ قال للرجلين: «**والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله**».

ثالثًا: تواضع النبي ﷺ حيث كان يجلس إلىٰ أصحابه ويقضي بينهم ويجيب علىٰ أسئلتهم.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الحدود، باب: الاعتراف بالزنا برقم (٦٨٢٧)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الحدود، باب: من اعترف علىٰ نفسه بالزنا برقم (١٦٩٨).

رابعًا: حزم النبي ﷺ وقوته في الحق حيث قال: اغد يا أنيس إلىٰ امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها.

خامسًا: عدالة النبي ﷺ حيث أمر أنيسًا ألا يرجم المرأة إلا إذا اعترفت.

سادسًا: حكمة الشريعة المطهرة التي بعث بها النبي ﷺ حيث فرقت بين الزاني المحصن والبكر.

سابعًا: حسن إنصات النبي ﷺ للخصوم المحاورين له حتىٰ فرغوا من قضيتهم، ثم قضىٰ بينهم دون أن يقاطعهم.

ثامنًا: أنه ينبغي للمحاور أن ينزل الناس منازلهم، ويخاطبهم بما يناسب مكانتهم ومنزلتهم، فقد مُدح أحد المتخاصمين بحسن خطابه للنبي ﷺ وأنه كان أفقه الرجلين.

ثانيًا: حوار يتعلق بحد السرقة الذي به تصان الأموال ويأمن به الناس:

عن عائشة زوج النبي ﷺ:

«أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟

فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ؟

فأتىٰ بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال: «**أتشفع في حد من حدود الله؟!**».

فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله.

فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاختطب فأثنىٰ علىٰ الله بما هو أهله ثم

قال: «**أما بعد، فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**».

ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عظمة دين الإسلام وأحكامه العادلة الرادعة التي بها تحفظ الحقوق وتصان، ويحصل بها الأمن والاستقرار، فبحد السرقة يأمن الناس علىٰ أموالهم بل وعلىٰ أنفسهم ودمائهم، فكم من جرائم سرقة لم يتم لأولئك المجرمين غرضهم إلا بإزهاق الأرواح البريئة، فسبحان العزيز الحكيم العليم الخبير الذي قال في كتابه الكريم: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾ [المائدة: ٣٨-٣٩].

ثانيًا: كمال حزم النبي ﷺ وصرامته في الحق، وأنه لا يخاف في الله لومة لائم، فهذه المرأة التي سرقت هي من أشراف قريش وقد أهمهم جميعًا أمرها، إلا أن هذا الأمر يتعلق به حق لله وحق للمسروق منه وحق عام للمجتمع كله الذي أمَّنه الشرع وعصم ماله إلا بحق الإسلام؛ فمن صفات المحاور الفذ الناجح الموفق: الحزم والشجاعة والثبات علىٰ الحق مع الحكمة.

ثالثًا: أنه لا يحابىٰ أحد مهما كانت منزلته علىٰ حساب الحق وإقامة دين الله بين العباد، فنبينا الكريم ﷺ لم يحاب أسامة بن زيد عند أن جاءه شفيعًا في تلك

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره برقم (١٦٨٨).

المرأة لئلا تقطع يدها، مع أنه من أحب الناس إليه.

رابعًا: أنه ينبغي لداعية الحق والهدىٰ، والمحاور الموفق أن يبين لمحاوره خطأه إن صدر منه ذلك، وألا يداهنه ولو كان من أوليائه، ويوضح له آثار خطئه وأضراره بالحكمة والموعظة الحسنة ليكون ذلك أدعىٰ لرجوعه إلىٰ الحق، فالنبي ﷺ لما قال لأسامة مُنْكِرًا: «**أتشفع في حد من حدود الله؟!**» ما كان من أسامة رضي الله عنه إلا أن قال: «**استغفر لي يا رسول الله**».

خامسًا: أن داعية الحق والهدىٰ والمحاور الناجح ينبغي له أن يتعامل مع كل قضية بحسبها من شدة ولين وتكرار الإنكار وعدمه، وإشاعة الإنكار بين الناس، أو يقتصر به علىٰ من تلبس به فقط حسب ما تقتضيه المصلحة.

سادسًا: حكمة النبي ﷺ؛ حيث كان يقرن الحكم بعلته، ويبين ما يترتب عليه من مصالح أو مفاسد مخاطبًا عقول الناس وقلوبهم؛ فإن ذلك أدعىٰ لاستجابتهم واطمئنان قلوبهم؛ حيث قال للناس بعد أن حمد الله وأثنىٰ عليه: «**إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد**».

سابعًا: كمال عدل النبي ﷺ حيث قال: «**إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**».

وبالعدل قامت السموات والأرض وانتشر الإسلام علىٰ وجه الأرض، وبهذا يعلم أن الناس في حكم الله سواء الشريف والوضيع والقوي والضعيف.

ثامنًا: حرمة الشفاعة في حدود الله حتىٰ أن النبي ﷺ قال: «**من حالت شفاعته**

دون حد من حدود الله فهو مضاد لله في أمره». وفي الحوار السابق أنكر علىٰ أسامة شفاعته في حد من حدود الله.

تاسعًا: أن من فنون الحوار بلاغة الكلام وضرب الأمثال، فالنبي ﷺ تكلم بكلام بليغ عظيم فبدأ بحمد الله والثناء عليه؛ لأنه الذي شرع هذه الحدود رحمة بعباده، ثم قال: «**أما بعد**». وهي كلمة يؤتىٰ بها للانتقال من المقدمة إلىٰ الموضوع كالفاصل بينهما.

ثم ضرب لهم المثل بمن سبق من أهل الكتاب، وأن محاباتهم لأهل الشرف فيهم علىٰ حساب دين الله كانت سبب هلاكهم.

عاشرًا: في الحوار السابق رد علىٰ العلمانيين المنادين بفصل الدين عن الدولة، فإن إقامة الحدود وسياسة الناس بشريعة الله من أعظم مقاصد الشرع، فإن الذي قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، هو الذي قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وهو القائل سبحانه وتعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]، فشريعة الله كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «منهاج السنة»: «**عدل الله في أرضه ونوره بين عباده**».

ثالثًا: حوارات تتعلق بحد الخمر الذي به تحفظ العقول وتمنع الشرور:

١- عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«أن رجلًا علىٰ عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارًا، وكان يُضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب ـ أي: الخمر ـ.

فأتي به يومًا فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتىٰ به.

فقال النبي ﷺ: «**لا تلعنوه، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله**»[(١)].

٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«أتي النبي ﷺ بسكران فأمر بضربه، فمنا من يضربه بيده، ومنا من يضربه بنعله، ومنا من يضربه بثوبه، فلما انصرف قال رجل: ما له أخزاه الله؟!

فقال رسول الله ﷺ: «**لا تكونوا عون الشيطان علىٰ أخيكم**»[(٢)].

ومن الدروس المستفادة من الحوارين السابقين ما يلي:

أولًا: عظمة الدين الإسلامي وسمو تعاليمه وأحكامه؛ حيث شرع حد الخمر حفاظًا علىٰ العقول وما قد يترتب علىٰ السكر من جرائم أخرىٰ يقوم بها السكران دون شعور.

فشرع الله العليم الحكيم الرحيم سبحانه هذا الحد حفاظًا للعقل وسلامة للفرد والمجتمع، وكم تعاني الشعوب التي ينتشر فيها الخمر والمخدرات من آثار ذلك لأنهم لا يحكمون بشريعة الله ولا يتحاكمون إليها، وصدق الله إذ يقول ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤].

ثانيًا: أن المسلم لا يكفر بارتكابه بعض الكبائر ما لم يكن مستحلًّا لها.

ثالثًا: أن الشخص يعاقب من وجه ويحب من وجه آخر.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الحدود، باب: ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة برقم (٦٧٨٠).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الحدود، باب: ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة برقم (٦٧٨١).

رابعًا: رحمة النبي ﷺ بأمته مطيعهم وعاصيهم.

خامسًا: أن من فنون الحوار قرن الحكم بعلته إن أمكن لبيان كمال الشريعة وأنها تربط الأحكام بعللها والأسباب بمسبباتها؛ ولأن ذلك أدعىٰ لقبول الحكم، لقول النبي ﷺ: «**لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله**».

ولقوله: «**لا تكونوا عون الشيطان علىٰ أخيكم**».

سادسًا: أن الشخص يكون ممن يحب الله ورسوله، ومع ذلك قد تغلبه نفسه فيقع في بعض الكبائر، وعليه فلا ينبغي أن نيأس من عصاة المسلمين الواقعين في الكبائر، ولا نعين الشيطان عليهم بأن يسمعوا منا ما يكون سببًا لنفرتهم وبعدهم أكثر.

رابعًا: حوار يتعلق بتغليظ حرمة الدماء والأعراض والأموال:

عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

قال رسول الله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب شهر مضر الذي بين جمادىٰ وشعبان.

ثم قال: «**أي شهر هذا؟**».

قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: فسكت حتىٰ ظننا أنه سيسميه بغير اسمه.

قال: «**أليس ذا الحجة؟**».

قلنا: بلىٰ.

قال: «**فأي بلد هذا؟**».

قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: فسكت حتىٰ ظننا أنه سيسميه بغير اسمه.

قال: «**أليس البلدة؟**».

قلنا: بلىٰ.

قال: «**فأي يوم هذا؟**».

قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: فسكت حتىٰ ظننا أنه سيسميه بغير اسمه.

قال: «**أليس يوم النحر؟**».

قلنا: بلىٰ يا رسول الله.

قال: «**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم فلا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه يكون أوعىٰ له من بعض من سمعه**».

ثم قال: «**ألا هل بلغت؟**»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار العظيم ما يلي:

أولًا: براعة النبي ﷺ في الحوار؛ حيث كان يستخدم عدة أساليب مما يلفت

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب القسامة والمحاربين، باب: تغليظ تحريم الدماء والأموال والأعراض برقم (١٦٧٩).

الانتباه ويستدعي العقول والأسماع، ومنها السؤال وضرب الأمثال، والسكوت بين الكلام والكلام والتقرير.

ثانيًا: عظيم نصح النبي ﷺ لأمته وشفقته عليهم؛ حيث بالغ في تحذيرهم عما يضرهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ثم أمر أن يبلغ شاهدهم غائبهم.

ثالثًا: عظيم حرمة الدماء والأموال والأعراض؛ حيث شبه النبي ﷺ حرمتها بحرمة الشهر الحرام والبلد الحرام واليوم الحرام.

رابعًا: عظمة دين الإسلام الذي يأمن الناس تحت ظلاله علىٰ دمائهم وأموالهم وأعراضهم، بأحكامه العادلة التي تصلح بها أحوال البشر ما بقيت علىٰ الأرض حياة، إن هم أخذوا بها واستقاموا عليها.

وليقرأ كل منصف التاريخ؛ ليعلم كيف هذب الإسلام أخلاق الأعراب الأجلاف الجهال الذين كان لا يحكمهم إلا مبدأ القوة، وشعارهم:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يُظلم

وهكذا إلىٰ وقتنا المعاصر كل دولة تحكم بالإسلام وتقيم حدود الله بين عباده فإنها تقل فيها الجرائم ويسود بين أهلها الأمن، ومن طالع إحصائيات الجرائم في أكبر الدول تقدمًا وحرية كما يزعمون وبين أي دولة تحكم بالشرع فسيجد بما لا مجال فيه للشك صدق ما ذكرت، ويا ليت قومي يعلمون!

ومن المناسب جدًّا فيما أرىٰ: أن أورد هنا شبهة عشعشت في عقول غير المسلمين ومن انخدع بكلامهم حول الحدود والعقوبات الشرعية، لتتجلىٰ بذلك عظمة الإسلام وسمو تعاليمه، وأنه الدين الذي به تُحل كل مشكلات العالم ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأعراف: ١٦٤]، و﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا

كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٢].

والشبهة هي: أن العقوبات الشرعية تتسم بالقسوة والهمجية التي تبعث على الاشمئزاز، ولا تتناسب مع روح هذا العصر وإنسانيته وحمايته لحقوق الإنسان وكرامته.

دحض هذه الشبهة:

وهذه شبهة داحضة من وجوه:

أولًا: أن العقوبات ليست مكافأة على عمل مبرور، وإنما هي جزاء مقرر على ارتكاب جريمة يقصد به الإيلام والردع.

وإذا لم تكن العقوبة مؤلمة فليس لتطبيقها أي أثر في الزجر والردع.

حتى تأديب الرجل ولده لابد أن يكون فيه شيء من الإيلام والقسوة ليتأتى تأديبه وإصلاحه وقديمًا قال الشاعر الحكيم:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازمًا … فليقس أحيانًا على من يرحم

ولا شك أن الإنسان يتمنى ألا توجد في المجتمع جريمة أبدًا، حتى لا توجد عقوبات أصلًا بحيث يفهم كل فرد ما له فيقتصر عليه، وما عليه فيؤديه عن طواعية واختيار، ولكن هذا حلم لا يمكن أن يتحقق ورغبة خيالية تصطدم بالواقع المعاش.

فهناك نفوس جاهلة حمقاء لا تلتزم بما لها وما عليها، ونفوس شريرة ظالمة قد تأصّل فيها الإجرام والإفساد وسعت للإضرار بالآخرين وبخسهم حقوقهم.

والحياة لا يمكن أن تستقيم وتنتظم إلا بالالتزام، واحترام حقوق الآخرين

وعدم المضارة بهم؛ فمن خرج عن هذا الالتزام وسعىٰ للإضرار بنفسه وبغيره كان ردعه واجبًا عقلًا وشرعًا، ولا ردع إلا بقسوة وإيلام.

واسم العقوبة مشتق من العقاب، ولا يكون العقاب عقابًا إذا كان موسومًا بالرخاوة والضعف.

فعنصر القسوة إذن يمثل الركن الأساسي لمعنىٰ العقوبة، فلو فقدت القسوة فقدت معها العقوبة بدون شك.

ولكن ما هي الدرجة التي يجب أن تقف عندها قسوة العقوبة علىٰ جريمة ما؟

إن الذي يحدد هذه الدرجة هو تصوُّر مدىٰ خطورة الجريمة التي استلزمتها، أي أن القسوة يجب أن تكون ملائمة للجريمة فتزيد بزيادة خطورتها وشدة آثارها وتنقص بنقص ذلك.

وهذه الحقيقة محل وفاق عند جميع المشتغلين بالتشريع والتقنين، مهما اختلفوا في تحليل فلسفة العقاب، وإن اختلاف القوانين العقابية الوضعية أكبر شاهد علىٰ ذلك.

فإذا كان في الناس من يصف العقوبات الشرعية بقسوة زائدة علىٰ مقتضىٰ هذه القاعدة التي لا خلاف فيها؛ فسبب ذلك أنهم يخطئون في تقويم خطورة الجرائم التي رتبت عليها هذه العقوبات دون أن يعتبروا في ذلك نظرة المشرع لها وتقويمه لخطورتها.

والعجيب أن خصوم الشريعة الإسلامية يدركون هذه الحقيقة ويفقهون هذا المعنىٰ عندما يكون البحث متعلقًا بقانون من القوانين الوضعية.

فرب كلمة لا نرىٰ بها بأسًا يتفوه بها فرد من رعايا دولة تطبق قانونًا وضعيًّا

تواجهه بسببها عقوبة الإعدام.

ورب فاحشة عظمىٰ يجب مكافحتها تشيع بين رعايا تلك الدولة فلا يؤبه بها ولا يلتفت إليها بأي نقد أو استنكار!

وليس أيسر علىٰ خصوم الشريعة الإسلامية من أن يدافعوا عن كلا المذهبين بأن كل أمة إنما تسن قوانينها حسب مبادئها وفلسفتها التي تنظر بها إلىٰ الإنسان والكون والحياة.

أفيحق لكل أمة أن تسن ما تشاء من قوانين الردع والزجر حسب نظرتها إلىٰ الكون والإنسان والحياة، خطًّا كانت النظرة أو صوابًا، ثم لا يحق لخالق الكون والإنسان والحياة أن يشرع هو الآخر قوانين الردع والزجر بما يتفق مع مقاصد شريعته ويتسق مع نظام كونه ويحقق مصالح عباده؟!

والحكمة في تغليظ العقوبات الشرعية التي توصف بالوحشية والهمجية من قتل القاتل ورجم الزاني وقطع السارق وغيرها من العقوبات المقدرة ظاهرة جلية.

فإن هذه الجرائم هي أمهات المفاسد، وكل واحدة منها تتضمن اعتداء علىٰ واحدة من المصالح الخمس الكبرىٰ والتي أجمعت الشرائع والعقلاء في كل زمان علىٰ وجوب حفظها وصيانتها؛ لأنها لا يمكن أن تستقيم الحياة بدونها.

ولأجل هذا كان المرتكب لشيء منها جديرًا بأن تغلظ عليه العقوبة حتىٰ تكون زاجرة له ورادعة لغيره.

وهاهي ذي الجرائم الكبرىٰ تعصف بكثير من الدول التي لا تطبق الشريعة الإسلامية مع كل ما توفر لها من إمكانيات وقدرات وتقدم مادي وتقني وأجهزة أمنية وإدارية واستخبارية.

ثانيًا: أن هؤلاء الطاعنين في هذه العقوبات قد اعتبروا مصلحة المجرم ونسوا مصلحة المجتمع، وأشفقوا علىٰ الجاني وأهملوا الضحية، واستكثروا العقوبة وغفلوا عن قسوة الجريمة.

ولو أنهم قرنوا العقوبة بالجريمة ولاحظوا الاثنين معًا لخرجوا موقنين بالعدالة في العقوبات الشرعية ومساواتها لجرائمها.

فإذا استحضرنا مثلًا فعل السارق وهو يسير في جنح الظلام متخفيًا ينقب الجدار ويكسر القُفل ويشهر السلاح ويروع الآمنين هاتكًا حرمة البيوت وعازمًا علىٰ قتل من يقاومه، وكثيرًا ما تقع جريمة القتل كوسيلة يتذرع بها السارق إلىٰ إتمام سرقته أو الفرار من تبعاتها فيقتل من غير تمييز.

وإذا تصورنا حالة النساء والأطفال في البيت وهم يستيقظون ويفتحون أعينهم علىٰ وجه السارق المرعب الشرس وهو شاهر سلاحه يهدد من يواجهه، وتصورنا ما يحدثه فعل السارق من قلق عند الناس جميعًا، وتعطيل لحركتهم وبث للرعب في نفوسهم، وإذهاب لطاقاتهم في حماية أموالهم وتأمينها بالمغاليق والأقفال؛ لأن السارق يبغي المال وهو موجود عندهم جميعًا فهم معرضون لإجرامهم دون تمييز.

لو تصورنا هذا أو بعضه مما يحدثه فعل السارق ثم قارناه بقطع يده الآثمة الظالمة لما قلنا عن عقوبته أنها قاسية ظالمة.

وهكذا الشأن في بقية العقوبات علينا أن نستحضر جرائمها وما فيها من أخطار وأضرار وظلم واعتداء حتىٰ نستيقن أن الله تعالىٰ قد شرع لكل جريمة ما يناسبها وجعل الجزاء من جنس العمل وما ربك بظلام للعبيد.

ثالثًا: أن الله تعالىٰ أراد للناس أن يعيشوا آمنين مطمئنين ولن يتيسر لهم ذلك

إلا ببتر الفاسدين وقطع دابرهم، وهذه سنة الله في خلقه.

فإن الإنسان إذا كان فيه عضو فاسد لا علاج له إلا بقطعه كله أو بعضه فلا مناص من الإقدام علىٰ ذلك.

وهذا الطبيب الذي يستأصل بمبضعه المرهف هذا العضو الفاسد من جسم أخيه أليس ضربه المبضع في لحمه وقطعه الجزء الفاسد من جسمه مظهرًا من مظاهر القسوة؟!

ولكنها قسوة هي عين الحكمة والرحمة والمصلحة، وبخاصة إذا قيست بما يترتب علىٰ تركها من هلاك وتلف وما ينشأ عنها من آلام وأوجاع تفوق مصلحة بقائها.

والمجتمع هو الجسم كله، وما الفرد الفاسد إلا عضو من أعضائه.

فهي تحفظ للمجتمع حقه ولا تضحِّي به في سبيل الأفراد الخارجين عليه، والعقوبة التي تحابي هؤلاء الأفراد علىٰ حساب الجماعة إنما تضيع مصلحة الفرد والجماعة معًا، لأنها تؤدي إلىٰ ازدياد الجرائم واختلال الأمن وانحلال المجتمع، وإذا دب الانحلال في المجتمع فقل علىٰ الأفراد وعلىٰ المجتمع العفاء.

قال عز الدين بن عبد السلام: «وربما كانت أسباب المصالح مفاسدَ؛ فيؤمر بها أو تباح لا لكونها مفاسد بل لكونها مؤدية إلىٰ المصالح، وذلك كقطع الأيدي المتآكلة حفظًا للأرواح وكالمخاطرة بالأرواح في الجهاد، وكذلك العقوبات الشرعية كلها ليست مطلوبة لكونها مفاسد، بل لأدائها إلىٰ المصالح المقصودة من شرعها، كقطع يد السارق وقطاع الطرق وقتل الجناة ورجم الزناة وجلدهم، وتغريبهم، وكذلك التعزيرات، كل هذه مفاسد أوجبها الشرع لتحصيل ما رتب عليها من المصالح الحقيقية».

رابعًا: أن الإسلام قبل أن يستأصل هؤلاء المجرمين ويقرر عليهم العقوبات الرادعة، قد أعذر إليهم حيث قدم لهم من وسائل التربية والوقاية ما كان يكفي لإبعادهم عن الجريمة التي اقترفوها لو كانت لهم قلوب تعقل أو نفوس ترحم.

ثم إنه لا يطبقها أبدًا حتىٰ يضمن أن الفرد الذي ارتكب الجريمة قد ارتكبها دون مسوغ ولا شبهة اضطرار، فوقوعه فيها بعد كل هذا دليل علىٰ فساده وشذوذه واستحقاقه للعقوبات الرادعة المؤلمة.

فهو مثلًا لا يقطع يد السارق إلا بعد توفُّر الوسائل التي تمنع من السرقة، فقد عمل علىٰ توزيع الثروة توزيعًا عادلًا، وجعل في أموال الأغنياء حقًّا معلومًا للفقراء، وأوجب النفقة علىٰ الزوج والأقارب، وأمر بإكرام الضيف والإحسان إلىٰ الجار، وجعل الدولة مسئولة عن كفالة أفرادها بتوفير تمام الكفاية لهم في الحاجات الضرورية من مطعم وملبس وغيرها، بحيث يعيشون حياة لائقة كريمة، كما أنها تكفل أفرادها بفتح أبواب العمل الكريم لمن يستطيعه وتمكين كل قادر من أن يعمل بمقدار طاقته وتهيئة الفرص المتساوية للجميع.

وبذلك يمنع الإسلام الدوافع المعقولة للسرقة.

فإن وقعت بعد ذلك فإنه يتحقق من ثبوتها وانتفاء موانعها وعدم وجود شبهة تسقطها كأن يرتكبها بدافع الحاجة والاضطرار.

وهو يعترف بقوة الدافع الجنسي وعنف إلحاحه علىٰ البشر، ولكنه يعمل علىٰ إشباع هذا الدافع بالطرق المشروعة: طريق الزواج فيدعو إلىٰ الزواج المبكر ويعين العاجز عن تكاليفه المادية بوسائل كثيرة من الزكاة والصدقات والنفقة وبيت المال.

كما أنه يحرص علىٰ تنظيف المجتمع من كل وسائل الإغراء والإثارة التي تؤجج الغريزة وتحك كوامن الشهوة.

كما أنه يأمر بغض البصر وحفظ الفرج والاستعفاف ومجاهدة النفس والتسامي بها.

ويحرص كذلك علىٰ شغل أوقات الفراغ واستنفاد الطاقة الحيوية الفائضة بالتقرب إلىٰ الله والمسارعة إلىٰ الخير وفعل كل ما من شأنه أن يحقق لصاحبه النفع في الدنيا والآخرة.

وبذلك كله يمنع الدوافع التي تسوغ الجريمة.

ثم إذا وقعت فإنه يحتاط احتياطًا شديدًا في إثباتها، فلا يقيمها إلا علىٰ من أقر بها إقرارًا صريحًا أربع مرات وطلب تطهيره بالحد، ولم يتراجع عن إقراره حتىٰ تنفيذ الحد عليه، أو يكون قد تبجح بارتكابها حتىٰ لَيَراه أربعة شهود وهو علىٰ هذه الحال.

وهكذا شأن الإسلام في بقية العقوبات، يعمل علىٰ وقاية المجتمع أولًا من دوافع الجريمة، ثم يدرأ الحدود بالشبهات زيادة في الاحتياط.

فليست العقوبة هي الوسيلة الأولىٰ أو الوحيدة للإصلاح والتقويم، ولكن حين يأتي دورها في التطبيق فإنها تمثل مواجهة حاسمة للظاهرة الإجرامية.

فهل يبقىٰ بعد ذلك مجال للطعن في عدالة هذه العقوبات ومناسبتها؟!

خامسًا: أن الغاية الكبرىٰ من هذه العقوبات هو التخويف والردع الذي يمنع وقوعها ابتداء ولا يحوج إلىٰ اللجوء إليها إلا في أضيق الحدود.

فإن هؤلاء الذين يشنعون بهذه العقوبات يتصورون خطأً أنها كالعقوبات الوضعية ستطبق كل يوم وعلىٰ أعداد غفيرة من الناس؛ فيتصورون في المجتمع الإسلامي مجزرة هائلة: هذا يجلد وهذا يقطع وهذا يرجم، ولكن الواقع أن هذه العقوبات الرادعة لا تكاد تنفذ إلا في نطاق محدود، وعلىٰ أعداد يسيرة غارقة في الفساد، ومتأصلة في الشر والإفساد، وفي إيذاء الأمة وزعزعة أمنها واستقرارها»[(١)].

* * *

(١) جزء من بحث قيم جدًّا للدكتور: عبد العزيز بن فوزان بن صالح الفوزان حفظه الله تعالىٰ وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

الفصل الثامن
حوارات نبوية تتعلق بالمرأة وما لها من المكانة السامية والحقوق العظيمة في الإسلام

إن الدين الإسلامي الذي بعث به نبينا محمد ﷺ آتىٰ كل ذي حق حقه، وأنزله المنزلة اللائقة به التي تناسب فطرته وطبيعته وتكوينه، فسوىٰ بين الرجل والمرأة في أمور كثيرة، وخص الرجل بأحكام دون المرأة؛ لأن ذلك هو الذي يناسب فطرته وطبيعته وتكوينه، وخص المرأة بأحكام دون الرجل؛ لأن ذلك هو الذي يناسب فطرتها وطبيعتها وتكوينها.

ولن يجد العالم أحكامًا أعدل ولا أنفع من أحكام الإسلام، ولن تجد المرأة -إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها- ملجأ ولا ملاذًا تنعم فيه بحقوقها وتسعد في دينها ودنياها إلا بالإسلام، لأن تلك الأحكام ليست من وضع البشر ولا نتاج التجارب والدراسات، ولكنها شريعة الخالق العليم الحكيم الرحيم القائل: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: ١٨].

وقال ﷻ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠].

وحقيقة أمر دعاة تحرير المرأة اليوم أنهم أفسدوها وأفسدوا دينها ودنياها، وأفسدوا بها المجتمع والأسرة وحملوها فوق طاقتها، وحرروها من شريعة خالقها

الرحيم بها، واسترقها أهل الأهواء والشهوات من مجرمي الأرض، والله غالب علىٰ أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

١- عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال: «قالت النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يومًا من نفسك، فوعدهن يومًا لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن فكان فيما قال لهن: «**ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجابًا من النار**».

فقالت امرأة واثنين؟

فقال ﷺ: «**واثنين**»(١).

وفي رواية للبخاري(٢): جاءت امرأة إلىٰ رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، ذهب الرجال بحديثك فاجعل لنا من نفسك يومًا نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله.

فقال: «**اجتمعن في يوم كذا وكذا في مكان كذا وكذا**».

فاجتمعن فأتاهن رسول الله ﷺ فعلمهن مما علمه الله ثم قال: «**ما منكن امرأة تقدم بين يديها ثلاثة من الولد إلا كان لها حجابًا من النار**».

فقالت امرأة منهن: يا رسول الله، واثنين؟ فأعادتها مرتين.

ثم قال: «**واثنين واثنين واثنين**».

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب العلم، باب: هل يجعل للنساء يوم علىٰ حدة في العلم برقم (١٠١).

(٢) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: تعليم النبي ﷺ أمته من الرجال والنساء مما علمه الله ليس برأي ولا تمثيل برقم (٧٣١٠)

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عناية الإسلام ونبيه الكريم بتعليم المرأة ووعظها وأمرها ونهيها، كيف لا ورسول الله ﷺ يقول: «**إنما النساء شقائق الرجال**».

وقال ﷺ: «**طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم**». والنساء داخلات في ذلك.

فالنبي ﷺ يحارب أمية الرجال والنساء، ويحث علىٰ تعليمهم ويجعل طلبهم للعلم فريضة، فالدين الإسلامي هو دين العلم والعمل جميعًا.

وليس واقعنا المؤلم حجة علىٰ ديننا، بل ديننا حجة علينا لأنا لم نعمل به.

ثانيًا: تواضع النبي ﷺ حيث كان يخاطبه عامة أصحابه مباشرة الرجال والنساء، ويعرضون حاجتهم عليه فيقضيها لهم.

ثالثًا: مشروعية تخصيص زمان ومكان معين لتعليم النساء ووعظهن فيما يتعلق بأمورهن الدينية، فضلًا عما يسمعنه في المواضع العامة كالخطب ونحوها.

رابعًا: أن الدين الإسلامي يدعو قولًا وعملًا إلىٰ فصل الرجال عن النساء في أماكن التعليم ونحوها، لما في اختلاط الرجال بالنساء من الفتن والشرور، وضعف التحصيل العلمي بسبب انشغال بعضهم ببعض.

خامسًا: حسن تعليم النبي ﷺ وحكمته في ذلك حيث وعظ النساء بما يحتجن إليه، وكان النبي ﷺ يفتح المجال أمام من يحتاج للسؤال، أو طلب إزالة إشكال ونحو ذلك.

٢- عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار؛ فإني**

رأيتكن أكثر أهل النار».

فقالت امرأة منهن جزلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟

قال: «**تكثرن اللعن وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن**».

قالت: يا رسول الله، وما نقصان العقل والدين؟

قال: «**أما نقصان العقل: فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي ما تصلي وتفطر في رمضان؛ فهذا نقصان الدين**»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عناية النبي ﷺ بتعليم المرأة ووعظها؛ لأنه بصلاحها تنتفع وينتفع غيرها، وبفسادها تتضرر ويتضرر غيرها.

ثانيًا: حسن تعليم النبي ﷺ؛ حيث كان يستعمل عدة أساليب لتحقيق المقصود بأقرب طريق، فتارة ينادي وتارة يرغب ويرهب، وأخرىٰ يعلل الأحكام مخاطبًا العقول، وداعيًا لها للتأمل، ويحاور المستمعين، ويزيل إشكالاتهم، ويجيب علىٰ سؤالاتهم.

ثالثًا: عظيم رحمة النبي ﷺ؛ حيث وعظها وحذرها مما يضرها وبين لها أسباب الخلاص من عذاب الله، وأن الحسنات يذهبن السيئات.

رابعًا: حرص النبي ﷺ علىٰ سلامة الأسرة والحياة الزوجية من المكدرات وأسباب الفرقة والشقاق، فقد حذر الزوجات من كفران العشير وجحد حق الزوج

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب: بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات برقم (٧٩).

الذي يسبب النَّفرة والجفاء.

خامسًا: أن فتنة الرجال بالنساء عظيمة ومحنتهم بهن جسيمة؛ فالواجب توقي الحذر والبعد عن أسباب الخطر، فلا تتبرج النساء ولا يختلطن بالرجال الأجانب، وعليهن وعلىٰ الرجال غض البصر وحفظ الفروج.

سادسًا: إثبات الفوارق الطبيعية والشرعية بين الرجال والنساء؛ حيث أخبر من لا ينطق عن الهوىٰ إن هو إلا وحي يوحىٰ أن النساء ناقصات عقل ودين ولما سألته امرأة عن ذلك قال: «**أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل**».

وهذا يعني أنهن قليلات الضبط ولذلك قال الله الخالق لهن العالم بهن: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال ﷺ: «**وأما نقصان الدين: فإنها تمكث الليالي ما تصلي وتفطر في رمضان**» أي: بسبب الحيض، فيفوتها خير كثير، وإن كانت غير ملومة ولا مؤاخذة علىٰ فواته؛ لأن ذلك ليس باختيارها.

وفي هذا رد علىٰ دعاة مساواة المرأة بالرجل وإلغاء الفوارق بينهما، فكما أنه لا يمكن أن تكون المرأة رجلًا والرجل امرأة في الخلقة والشكل وتوابع ذلك من حمل وولادة وإرضاعها وحيضها ونفاسها... إلخ، فلا يمكن أن تقوم المرأة مقام الرجل في الأمور التي فرق الشرع بينهما؛ فإن وضعت في غير موضعها فلا تنتظر إلا الفتنة والخسران.

سابعًا: إعطاء النبي ﷺ للمرأة الأهلية المالية فلها أن تمتلك ولها أن تتصدق، كما دلت نصوص كثيرة من السنة علىٰ أن لها أن تبيع وتشتري وتقترض وتقرض.

ثامنًا: أن المرأة لا تصلح لتولي الولايات العامة وأعظمها رئاسة الدولة

والوزارة والقضاء، لأنها ناقصة عقل ودين.

قال العلامة صديق حسن خان في إكليل الكرامة (ص١٠٨-١٠٩): «ومن كان كذلك لا يصلح لتدبير أمر الأمة، ولتولي الحكم بين عباد الله، وفصل خصوماتهم بما تقتضيه الشريعة المطهرة ويوجبه العدل؛ فليس بعد نقصان العقل والدين شيء.

والإمامة تحتاج إلىٰ اجتهاد الرأي وكمال الإدراك والتبصر في الأمور والتفهم لحقائقها، وليست المرأة في وِرْدٍ ولا صَدْرٍ من ذلك، ولا تقوَىٰ علىٰ تدبير أمر العباد، بل هي أضعف من ذلك وأعجز، ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيح من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من قوله ﷺ: «**لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة**»...». اهـ.

٣- عن مالك بن الحويرث رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قال: «أتينا النبي ﷺ ونحن شببة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، فظن أنا اشتقنا إلىٰ أهلنا وسألنا عمن تركنا في أهلنا فأخبرناه، وكان رفيقًا رحيمًا فقال: «**ارجعوا إلىٰ أهليكم فعلموهم ومروهم، وصلوا كما رأيتموني أصلي، وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ثم ليؤمكم أكبركم**»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عظيم عناية النبي ﷺ بتعليم المرأة أمر دينها حيث قال لهؤلاء الشباب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: «**ارجعوا إلىٰ أهليكم فعلموهم ومروهم**». والنساء داخلات في هذا بلا شك.

ثانيًا: رحمة النبي ﷺ ورفقه بأصحابه ومراعاته لأحوالهم وكمال شفقته عليهم.

ثالثًا: عظيم عنايته ﷺ بأمر الصلاة؛ حيث حثهم علىٰ أن يصلوا كما رأوه

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم برقم (٦٠٠٨).

يصلي، وإن حضرت الصلاة فليؤذن لهم أحدهم وليصلِّ بهم أكبرهم؛ حيث كانوا متقاربين في العلم.

٤- عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال: «خطب النبي ﷺ يوم عرفة في حجة الوداع وقال في خطبته:

«فاتقوا الله في النساء؛ فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت.

فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلىٰ السماء وينكتها إلىٰ الناس: «**اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات**»[(١)].

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عناية النبي ﷺ بالمرأة وحقوقها، والوصية بها خيرًا في هذا المشهد العظيم الذي حضره مع رسول الله ﷺ نحو عشرون ومائة ألف.

ثانيًا: أن نفقة المرأة علىٰ زوجها بالمعروف لتتفرغ لبناء الأسرة من الداخل، وتربية الأجيال والوقوف بجانب الزوج وتهيئة أسباب الراحة له ليقوم بأعباء الحياة، وهذا عكس ما يريده دعاة تحرير المرأة؛ فإنهم يريدون إخراجها من بيتها وسلطانها وإخراجها للعمل والكسب وتعريضها للشرور، ثم يريدونها زوجة وأمًّا وحاملًا

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الحج، باب: حجة النبي ﷺ برقم (١٢١٦).

ومرضعًا فأضاعوا المرأة والطفل والبيت وأفسدوا المجتمع.

ثالثًا: أن النبي ﷺ قد بلغ وأدىٰ ما أمره الله به، ونصح لأمته وتركهم علىٰ مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

٥- عن حكيم بن معاوية عن أبيه رضي الله عنهما.

قال: «أتيت رسول الله ﷺ فقلت: ما أتيتك حتىٰ حلفت عدد أصابعي هذه إلا آتيك، فبالذي بعثك بالحق ما الذي بعثك به؟

قال: «**الإسلام**».

قال: وما الإسلام؟

قال: «**أن يسلم قلبك لله تعالىٰ، وأن توجه وجهك لله تعالىٰ، وتصلي الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، أخوان نصيران لا يقبل الله عز وجل من أحد توبة أشرك بعد إسلامه**».

قلت: ما حق زوجة أحدنا عليه؟

قال: «**تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت**».

قال: «**تحشرون هاهنا** -وأومأ بيده إلىٰ نحو الشام- **مشاة وركبانًا، وعلىٰ وجوهكم تعرضون علىٰ الله تعالىٰ وعلىٰ أفواهكم الفدام، وأول ما يعرب عن أحدكم فخذه**».

وقال: «**ما من مولىٰ يأتي مولىٰ له فيسأله من فضل عنده فيمنعه إلا جعله الله عليه شجاعًا ينهسه قبل القضاء**» يعني بالمولىٰ ابن عمه.

قال: وقال ﷺ: «**إن رجلًا ممن كان قبلكم رغسه الله مالًا وولدًا، حتىٰ ذهب عصر وجاء آخر، فلما احتضر قال لولده: أي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب.**

فقال: هل أنتم مطيعي؟ وإلا أخذت مالي منكم.

انظروا إذا أنا مت أن تحرقوني حتىٰ تدعوني حممًا، ثم اهرسوني بالمهراس، وأدار رسول الله ﷺ يديه حذاء ركبتيه».

قال رسول الله ﷺ: «**ففعلوا والله**». وقال نبي الله ﷺ بيده هكذا، «**ثم ذروني في يوم راحٍ لعليِّ أُضِل الله**».

ففعلوا والله ذاك، فإذا هو قائم في قبضة الله تعالىٰ فقال: يا بن آدم ما حملك علىٰ ما فعلته؟ قال: من مخافتك. قال: فتلافاه الله تعالىٰ بها»(١).

ومما يستفاد من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عناية النبي ﷺ بالمرأة وبيانه لحقوقها، ودفعه الضيم عنها حيث أجاب من سأل عن حقها علىٰ زوجها بقوله ﷺ: «**تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت**». وفي هذا رد واضح علىٰ الذين يقولون: إن الإسلام ظلم المرأة.

ثانيًا: أن نفقة المرأة علىٰ زوجها لتتفرغ لتربية الأجيال وإعانة الزوج والقيام بأمور بيتها.

ثالثًا: أن النبي ﷺ بعث بما يصلح الظاهر والباطن، وألا يتعلق القلب بغير الله

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٣/٥)، وقال الشيخ مقبل الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الصحيح المسند» (٢/ ٢٠٨): «هذا حديث صحيح».

الخالق الرازق المالك المدبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

رابعًا: سعة صدر رسول الله ﷺ؛ حيث لم يكن يتبرم من كثرة الأسئلة التي تلقىٰ عليه، أو الاستفسار عما أجاب به.

خامسًا: تواضع النبي ﷺ حيث كان لا يمنع من أراد لقاءه والحديث معه؛ لأن الله بعثه إلىٰ الناس كافة.

سادسًا: عناية النبي ﷺ بأمر التكافل الاجتماعي والترابط الأسري والإحسان إلىٰ الأقارب حيث قال: «**ما من مولىٰ يأتي مولىٰ له فيسأله من فضل عنده فيمنعه إلا جعله الله عليه شجاعًا ينهسه قبل القضاء**».

سابعًا: عظيم رحمة الله بعباده؛ فهذا الرجل الذي أوصىٰ أولاده بهذه الوصية الجائرة لما كان الحامل له عليها الجهل بقدرة الله وشدة الخوف منه عذره الله سبحانه ورحمه وغفر له.

ثامنًا: حسن تعليم النبي ﷺ حيث كان يقص علىٰ أصحابه من قصص الأولين ما يقوي به إيمانهم ويزيدهم معرفة بربهم ومحبة وتعظيمًا له.

٦- عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحاب النبيِّ ﷺ النبيَّ ﷺ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فقال رسول الله ﷺ: «**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**».

فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه»[(١)].

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عناية النبي ﷺ بالمرأة وإكرامه لها ورفعه للظلم عنها.

ثانيًا: ما كان عليه اليهود من ظلم للمرأة وهضم لحقوقها؛ حيث كانوا إذا حاضت فيهم المرأة لم يجتمعوا معها في البيت بل يخرجونها خارج البيت، ولا يأكلون معها، وبهذا يعلم أن الذين يتشدقون بتحرير المرأة هم الذين ظلموها وغصبوا حقوقها من قديم الزمان، وأن الإسلام هو الذي حررها وأكرمها.

ثالثًا: سماحة الشريعة الإسلامية ورعايتها للمرأة ورحمتها بها؛ حيث أمر النبي ﷺ بمعاملة المرأة الحائض معاملة المرأة الطاهرة إلا بالجماع.

رابعًا: في الحديث دلالة علىٰ سبق السنة النبوية للتقدم العلمي؛ حيث اكتشف بعد أبحاث كثيرة في العصور الحديثة أن جماع الحائض فيه أضرار كثيرة علىٰ المرأة وعلىٰ الرجل، وقد أمر النبي ﷺ باعتزال جماع الحائض قبل أكثر من أربعة عشرًا قرنًا وهو رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب، ولكنه مرسل من خالق الكون ومدبر شئونه العالم بخفاياه ومصالحه.

٧- عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

قالت: «ألا أحدثكم عني وعن رسول الله ﷺ؟ قلنا: بلىٰ.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الحيض، باب: جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله برقم (٣٠٢).

قالت: لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺ فيها عندي انقلب فوضع رداءه وخلع نعليه فوضعهما عند رجليه وبسط طرف إزاره علىٰ فراشه فاضطجع، فلم يلبث إلا ريثما ظن أنْ قد رقدتُ فأخذ رداءه رويدًا وانتعل رويدًا، وفتح الباب فخرج ثم أجافه رويدًا.

فجعلت درعي في رأسي واختمرت وتقنعت إزاري ثم انطلقت علىٰ إثره حتىٰ جاء البقيع، فقام فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات ثم انحرف فانحرفت، فأسرع فأسرعت، فهرول فهرولت، فأحضر فأحضرت فسبقته، فدخلت فليس إلا أن اضطجعت فدخل فقال: «**ما لك؟ يا عائش، حشيًا رابية**».

قالت: قلت: لا شيء.

قال: «**لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير**».

قالت: قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي فأخبرته.

قال: «**فأنتِ السواد الذي رأيت أمامي؟!**».

قلت: نعم. فلهدني في صدري لهدة أوجعتني، ثم قال:

«**أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله؟!**».

قلت: مهما يكتمِ الناسُ يعلمه الله؛ نعم.

قال: «**فإن جبريل أتاني حين رأيت فناداني فأخفاه منك، فأجبته فأخفيته منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك، وظننت أن قد رقدتِ فكرهت أن أوقظك وخشيت أن تستوحشي فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم**».

قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟

قال: «**قولي: السلام علىٰ أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون**»[(١)].

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: حسن عشرة النبي ﷺ لأهله، ويتضح ذلك في أمور:

أ- حين دعاه جبريل وخرج حرص علىٰ أن لا تشعر عائشة بخروجه حيث أخذ رداءه رويدًا وانتقل رويدًا، وفتح الباب رويدًا. ثم أغلقه رويدًا.

ب- ملاطفته لعائشة رضي الله عنها عند خطابها حيث رخم اسمها وناداها: يا عائش.

ج- تفقده لحالها وسؤاله عما استشكل منها، وتثبته قبل مباشرة الإنكار عليها فقال: «**مالك يا عائش حشيًا رابية؟**».

د- لما أخبرته أنها ظنت أنه سيخرج إلىٰ بعض ضراتها أبان لها سبب خروجه وكيف راعاها في حال نومها فقال: «**أتاني جبريل فناداني فأخفاه منك فأجبته فأخفيته منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك، وظننت أن قد رقدت فكرهت أن أوقظك وخشيت أن تستوحشي فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم**».

هـ- تعليمه لها؛ فلما سألته ﷺ ما تقول إذا أتت مقابر الموتىٰ فقال: «**قولي: السلام علىٰ أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**».

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الجنائز، باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها برقم (٩٧٤).

ثانيًا: كمال عدل النبي ﷺ بين نسائه؛ حيث قال لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما أخبرته أنها ظنت أنه خرج من عندها إلىٰ بعض ضراتها: «**أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله؟!**».

ثالثًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بموتىٰ المؤمنين، فلم تكن رحمته قاصرة علىٰ الأحياء حتىٰ تعدت إلىٰ الأموات؛ حيث يترك نومه وأهله ويخرج إلىٰ المقبرة ويقف علىٰ المقابر ويطيل الوقوف ويرفع يديه ثلاثًا داعيًا لهم، ثم يُعلِّم غيره إن أتىٰ المقابر كيف يدعو لهم.

٨- وعن علي بن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

«أن صفية بنت حيي زوج النبي ﷺ أخبرته أنها جاءت إلىٰ رسول الله ﷺ تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت فانقلبت فقام النبي ﷺ يقلبها حتىٰ إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة مر رجلان من الأنصار فسلما علىٰ رسول الله ﷺ فقال لهما النبي ﷺ: «**علىٰ رسلكما إنها صفية بنت حيي**».

فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وكَبُرَ عليهما.

فقال النبي ﷺ: «**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرىٰ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الاعتكاف، باب: هل يخرج المعتكف لحوائجه إلىٰ باب المسجد؟ برقم (٢٠٣٥)، ومسلم في «صحيحه» كتاب السلام، باب: بيان أنه يستحب لمن رئي خاليًا بامرأة وكانت زوجة أو محرمًا له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به (٢١٧٥).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار:

أولًا: حسن عشرة النبي ﷺ لأهله؛ فلم يشغله تفرغه في المسجد للاعتكاف عن استقبال زوجه صفية عند زيارتها له في معتكفه ومحادثته لها ثم مرافقته لها عند انصرافها ثم دفع الريبة عنه وعنها.

ثانيًا: ما كان عليه النبي ﷺ من التعبد لله؛ حيث لزم المسجد في العشر الأواخر من رمضان تفرغًا لعبادة الله وانقطاعًا لذلك.

ثالثًا: كمال شفقة النبي ﷺ علىٰ أمته وعظيم رحمته بهم؛ حيث أرشدهم إلىٰ ما يدفع عنهم الإثم ويزيل عنهم الريبة؛ فإنه ﷺ لما رأىٰ الرجلين أسرعا بعد أن رأياه مع المرأة قال لهما: «**علىٰ رسلكما إنها صفية**» هذا مع أنه رسول الله، إلا أنه خشي أن يقذف الشيطان في قلوبهما شيئًا.

رابعًا: حسن تعليم النبي ﷺ لأمته حيث كان يقرن الحكم بعلته فبعد أن أخبر الرجلين أن المرأة التي معه هي زوجته صفية وعظم في نفوسهما ذلك قال لهما ﷺ: «**إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا**»، وهذا من حسن الحوار ومقومات نجاحه.

خامسًا: التحرز من التعرض لسوء الظن والاحتفاظ من كيد الشيطان والاعتذار.

قال ابن دقيق العيد: «وهذا متأكَّد في حق العلماء ومن يُقتَدىٰ به، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلًا يوجب سوء الظن بهم، وإن كان لهم فيه مخلص؛ لأن ذلك سبب إلىٰ إبطال الانتفاع بعلمهم». قاله الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٤/ ٣٢٩).

٩- عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

أنها قالت: «يا رسول الله نرىٰ الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ قال: «**لا ولكن أفضل الجهاد حج مبرور**»(١).

وعنها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت:

«يا رسول الله هل علىٰ النساء جهاد؟

قال: «**نعم عليهن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة**»(٢).

ومن الدروس المستفادة من هذين الحوارين ما يلي:

أولًا: رحمة النبي ﷺ بالمرأة؛ حيث لم يوجب عليها الجهاد لضعفها؛ ولأنها مأمورة بالستر ومجانبة الرجال.

ثانيًا: حسن خلق النبي ﷺ وحسن تعليمه؛ حيث أغلق علىٰ النساء باب الجهاد الذي فيه قتال وفتح لهن بابًا آخر من الجهاد وهو الحج والعمرة.

ثالثًا: حسن عشرة النبي ﷺ لأهله وتعليمه لهم ودلالتهم علىٰ ما ينفعهم.

رابعًا: فضيلة أم المؤمنين عائشة وحرصها علىٰ نيل الأعمال الفاضلة.

١٠- عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قال: «جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الحج، باب: فضل الحج المبرور برقم (١٥٢٠).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ١٦٥)وابن ماجة في «سننه» برقم (٢٩٠١)، وصححه العلامة الألباني.

قال: «**أمك**».

قال: ثم من؟

قال: «**ثم أمك**».

قال: ثم من؟

قال: «**ثم أمك**».

قال: ثم من؟

قال: «**ثم أبوك**»(١).

ومن هذا الحوار نستفيد دروسًا منها:

أولًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بالأم ووصيته بها وتقديمها على الأب في البر عند التزاحم، فإنها عانت الحمل والولادة والرضاع وشاركت الأب في التربية.

ثانيًا: الرد على دعاة التسوية بين الرجل والمرأة؛ فإن المرأة في هذا الموضع مقدمة على الرجل؛ لأن لها من المزايا ما ليس للرجل فاستحقت من البر والإحسان أكثر.

ثالثًا: تواضع النبي ﷺ؛ حيث كان يخالط عامة الناس ويحاورهم ويجيب على أسئلتهم.

رابعًا: حسن خلق النبي ﷺ؛ حيث لم يتضجر من تكرار الأسئلة عليه.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الأدب، باب: من أحق الناس بحسن الصحبة؟ برقم (٥٩٧١)، ومسلم في «صحيحه» كتاب البر والصلة والآداب، باب: بر الوالدين وأنهما أحق به برقم (٢٥٤٨).

١١- عن أم هانئ بنت أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قالت: «ذهبت إلىٰ رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره بثوب قالت: فسلمت. فقال: «**من هذه؟**».

قلت: أم هانئ بنت أبي طالب.

قال: «**مرحبا بأم هانئ**».

فلما فرغ من غسله قام فصلىٰ ثماني ركعات ملتحفًا في ثوب واحد، فلما انصرف قلت: يا رسول الله، زعم ابن أمي علي بن أبي طالب أنه قاتلٌ رجلًا أجرته فلان ابن هبيرة.

فقال رسول الله ﷺ: «**قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ**»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: صحة أمان المرأة وأنها في ذلك كالرجل، وهذا من إكرام الشرع لها، وأن ذمتها لا تخفر ولو كان المؤمَّن حلال الدم.

ثانيًا: حسن خلق النبي ﷺ؛ حيث رحب بابنة عمه أم هانئ، وفي هذا من المؤانسة والملاطفة ما لا يخفىٰ.

ثالثًا: تواضع النبي ﷺ حيث اغتسل بحضرة ابنته وأم هانئ ثم التحف بثوب واحد وصلىٰ فيه.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب صلاة الضحىٰ برقم (٧١٩).

١٢- عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

قال: «سمعت النبي ﷺ يخطب يقول: «**لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم**».

فقام رجل فقال: يا رسول الله، إن امرأتي خرجت حاجة وإني اكتُتبت في غزوة كذا وكذا.

قال: «**انطلق فحج مع امرأتك**»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عظيم حرص النبي ﷺ علىٰ سلامة المرأة وحمايته لها؛ حيث منع الرجل أن يخلو بها لئلا ينسج الشيطان بينهما شيئًا، ومنعها أن تسافر إلا مع ذي محرم كالأب أو الأخ أو العم، والزوج من باب أولىٰ لئلا يطمع فيها طامع، ولئلا تعرض نفسها أو غيرها للفتنة والشر.

وفي هذا حماية للمرأة ولعفتها وشرفها وسمعتها، وحماية للمجتمع من أسباب الشر أيضًا، ولا فرق في هذا بين المرأة المتزوجة وغير المتزوجة، والشابة والكبيرة والجميلة وغير الجميلة والمتعلمة والجاهلة.

وكم حصلت من الشرور والفتن بسبب مخالفة هذا التشريع الإلهي الذي جاء به نبينا ﷺ، وكم عض إنسان أصابع الندم ولكن بعد فوات الأوان، لأن المرأة ناقصة عقل ودين وسريعة التأثر، تغلبها عاطفتها كثيرًا، وخلوتها بالرجل وسفرها بدون محرم مَظِنة تعرضها للخطر برضاها أو بدون رضاها.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الحج، باب: سفر المرأة مع محرم إلىٰ الحج وغيره برقم (١٣٤١).

ثانيًا: تقديم الأهم من الأمور المتعارضة علىٰ المهم؛ فإن النبي ﷺ أمر الرجل الذي كُتب اسمه في الغزو أن يترك الغزو ويلحق بزوجته التي خرجت حاجَّة ليكون محرمًا لها.

١٣- عن أبي بكرة رضي الله عنه.

قال: «لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرىٰ قال: «**لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة**»(١).

والدرس المستفاد من هذا الحوار القصير:

أن المرأة لا تصلح للولايات العامة التي من أعظمها الإمامة العظمىٰ وتولي الوزارات أو القضاء.

قال الإمام البغوي رحمه الله في «**شرح السنة**» (١٠/ ٧٧): «اتفقوا علىٰ أن المرأة لا تصلح أن تكون إمامًا ولا قاضيًا، لأن الإمام يحتاج إلىٰ الخروج لإقامة أمر الجهاد والقيام بأمور المسلمين، والقاضي يحتاج إلىٰ البروز لفصل الخصومات، والمرأة عورة لا تصلح للبروز وتعجز لضعفها عن القيام بأكثر الأمور؛ ولأن المرأة ناقصة والإمامة والقضاء من كمال الولايات، فلا يصلح لها إلا الكامل من الرجال». اهـ.

قلت: جماهير السلف والخلف علىٰ عدم جواز تولي المرأة القضاء، وخالف في ذلك أبو حنيفة وابن جرير الطبري رحمهما الله فقالا: يجوز أن تقضي المرأة فيما تقبل شهادتها فيه. وهما محجوجان بالنص السابق وغيره.

وقال العلامة الشوكاني رحمه الله في «**نيل الأوطار**» (٨/ ٢٦٥) **في الكلام علىٰ الحديث**

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الفتن برقم (٧٠٩٩).

السابق: «قوله ﷺ: «**لن يفلح...**» فيه دليل علىٰ أن المرأة ليست من أهل الولايات، ولا يحل لقوم توليتها؛ لأن تجنب الأمر الموجب لعدم الفلاح واجب». اهـ.

وقال العلامة صديق حسن خان في «إكليل الكرامة» (ص١٠٩): «**ليس بعد نفي الفلاح شيء من الوعيد ورأس الأمور هو الإمامة**». اهـ.

❋ ❋ ❋

الفصل التاسع
حوارات نبوية تتعلق بتربية الأولاد

لقد حفظت لنا كتب الحديث والسير حوارات عدة تدل دلالة ظاهرة علىٰ العناية البالغة من نبينا ﷺ بتربية الأولاد بدءًا بالحث علىٰ اختيار الزوجة الصالحة التي ستناط بها مسئولية الأمومة، ثم العناية بالأولاد روحيًّا وجسديًّا وأخلاقيًا، ليكونوا جيلًا صالحًا لحمل المسئولية وأداء الأمانة ونفع الأمة.

وإليك أيها القارئ الكريم باقة عطرة من هذه الحوارات التي تدل على سمو الشريعة الإسلامية وعنايتها بالطفل وحفاظها عليه:

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال: «كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا فقال: «**يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[(١)].

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عظيم عناية النبي ﷺ بتربية الأطفال تربية روحية عقدية حيث قال لابن

(١) أخرجه الترمذي في «سننه» كتاب صفة القيامة والرقائق والورع برقم (٢٥١٦)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله.

عباس: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله**».

ولا شك أن غرس العقيدة الصحيحة في نفس الطفل وحثه علىٰ مراقبة الله والثقة به والاعتماد عليه له أعظم الأثر علىٰ مستقبله وسلوكه.

ثانيًا: عناية النبي ﷺ بتحصين الطفل المسلم ضد الشكوك والأوهام التي تثير القلق والاكتئاب، والتي قد تسبب الأمراض النفسية وقد تؤدي بأصحابها إلىٰ الانتحار كما هو مشاهد في المجتمعات الغربية بسبب الفراغ العقدي، فنبينا ﷺ قال لابن عباس بعد ما سبق: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف**».

وهذه الكلمات العظيمة ستثمر في قلب الطفل:

أ- الراحة والطمأنينة مهما واجهته من الصعاب والعقبات؛ لأن كل شيء بقضاء الله وقدره.

ب- الشجاعة والإقدام فلن يصيب المرء إلا ما كتب الله له فينشئ الطفل ثابت الجنان قوي الإرادة، متعلقًا بربه ومولاه سبحانه وتعالى.

ج- الوضوح والاتزان في معاملة الآخرين، فلا نفاق ولا مداهنة ولا غموض، فإنهم لا يملكون للشخص ولو اجتمعوا من النفع أو الضر إلا ما كتبه الله وقدره، وما لم يقدره الله سبحانه وتعالى فلا قدرة لهم عليه مهما كانت قوتهم وقدرتهم.

ثالثًا: حرص النبي ﷺ علىٰ الإعداد المبكر للطفل روحيًّا وفكريًّا وسلوكيًّا، وفتح الآفاق أمامه ورفع مستوىٰ روحه وتصوره، والحوار السابق خير شاهد علىٰ ذلك.

رابعًا: حسن تعليم النبي ﷺ؛ حيث بدأ بنداء هذا الغلام ليلفت انتباهه لما سيلقيه عليه ثم قال له: «**إني معلمك كلمات؛ ليتهيأ ثانية لسماعها وليهتم بها**».

خامسًا: تواضع النبي ﷺ؛ حيث لم يستنكف عن تعليم هذا الغلام الذي أصبح يومًا من الأيام من أكابر الصحابة رضي الله عنهم حتىٰ لقب بحبر الأمة وترجمان القرآن.

سادسًا: أن الجزاء من جنس العمل حيث قال النبي ﷺ: «**احفظ الله يحفظك**».

وبقية الفوائد قد سبقت في الحوارات العقدية.

٢- عن عبد الله بن عامر رضي الله عنه.

أنه قال: «دعتني أمي يومًا ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا فقالت: ها تعال أعطيك.

فقال لها رسول الله ﷺ: «**وما أردت أن تعطيه؟**».

قالت: أعطيه تمرًا.

فقال لها رسول الله ﷺ: «**أما إنك لو لم تعطه شيئًا كتبت عليك كذبة**»[(١)].

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: حث النبي ﷺ الآباء أن يكونوا قدوة حسنة لأبنائهم؛ فإن هذه المرأة لو لم تعط ولدها شيئًا وقد قالت له: تعال أعطيك، لنشأ علىٰ الكذب لأنه رأىٰ أهله يمارسونه معه، وهكذا في سائر الأخلاق.

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأدب، باب: في التشديد في الكذب برقم (٤٩٩١)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله.

ثانيًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بأمته، وكمال شفقته عليهم حيث حذرهم مما يضرهم وإن لم يقترفوه لئلا يقعوا فيه، فقد قال لهذه المرأة: «**أما إنك لو لم تعطه شيئًا كتبت عليك كذبة**».

ثالثًا: تواضع النبي ﷺ؛ حيث كان يزور أصحابه إلىٰ بيوتهم ويقعد معهم كبارًا وصغارًا ويعلمهم.

رابعًا: التثبت قبل الإنكار؛ فإن النبي ﷺ سأل المرأة لما كان الأمر محتملًا.

خامسًا: حسن تعليم النبي ﷺ؛ حيث كان يستخدم أسلوب الترغيب والترهيب فقد قال للمرأة: «**أما إنك لو لم تعطه شيئًا كتبت عليك كذبة**».

٣-عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

قال: «أعطاني أبي عطية فقالت عمرة بنت رواحة: لا أرضىٰ حتىٰ تُشهِد رسول الله ﷺ.

فأتىٰ رسول الله ﷺ فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله.

قال: «**أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟**».

قال: لا.

قال: «**فاتقوا الله، واعدلوا بين أولادكم**».

قال: فرجع فردَّ عطيته»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الهبة، باب: الإشهاد في الهبة برقم (٢٥٨٧)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الهبات، باب: كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة برقم (١٦٢٣).

وفي رواية لمسلم أن رسول الله قال لبشير:

«**أَكُلَّ بنيك قد نحلت مثل ما نحلت النعمان؟**».

قال: لا.

قال: «**فأشهِدْ علىٰ هذا غيري**».

ثم قال: «**أيسرك أن يكونوا إليك في البر سواء؟**».

قال: بلىٰ.

قال: «**فلا إذن**».

وفي رواية أخرىٰ لمسلم أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشهدني علىٰ جور».

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار العظيم ما يلي:

أولًا: عظيم عناية النبي ﷺ بأمر العدل بين الأولاد في العطية المحضة، لأن المفاضلة بينهم قد تورث بينهم الحسد والعداوة والعقوق لآبائهم.

ثانيًا: رحمة النبي ﷺ بأمته كبارًا وصغارًا وكمال شفقته عليهم.

ثالثًا: تواضع النبي ﷺ حيث جاء بشير رضي الله عنه ليستشهده علىٰ عطيته لولده، ويخبره بما دار بينه وبين زوجته، ولم يستنكف رسول الله ﷺ عن ذلك.

رابعًا: حسن تعليم النبي ﷺ؛ حيث بدأ بالسؤال عن إعطاء سائر الأولاد مثل النعمان، ثم ضرب مثلًا يتضح فيه وجه عدم جواز المفاضلة بين الأولاد بالعطية حيث قال: «**أيسرك أن يكونوا إليك في البر سواء؟**».

قال: بلىٰ.

قال: «**فلا إذن**».

خامسًا: أن النبي ﷺ جاء بإرساء دعائم العدالة في الأرض بين الصغار والكبار، والآباء والأبناء، والرجال والنساء، ودفع الظلم وإبطاله.

سادسًا: الإشارة إلىٰ سوء عاقبة الحرص والتنطع، لأن عمرة لو رضيت بما وهبه زوجها لولده لما رجع فيه، فلما اشتد حرصها في تثبيت ذلك أفضىٰ إلىٰ بطلانه. قاله الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في «الفتح» (٥/ ٢٥٥).

٤- عن شداد بن الهاد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدىٰ صلاتي العشاء وهو حامل حسنًا أو حسينًا، فتقدم رسول الله ﷺ فوضعه ثم كبر للصلاة فصلىٰ فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها قال: فرفعت رأسي وإذا الصبي علىٰ ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد، فرجعت إلىٰ سجودي.

فلما قضىٰ رسول الله ﷺ الصلاة قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت بين ظهراني صلاتك سجدة أطلتها حتىٰ ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحىٰ إليك.

قال: «**كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتىٰ يقضي حاجته**»(١).

---

(١) أخرجه النسائي في «سننه» كتاب التطبيق، باب: هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة؟ برقم (١١٤١)، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بالصبيان؛ حيث خرج إلىٰ المسجد للصلاة وهو حامل حسنًا أو حسينًا ثم وضعه في المسجد ودخل في الصلاة ثم تركه علىٰ ظهره في حال سجوده.

ثانيًا: تواضع النبي ﷺ في حمله للصبي وتركه علىٰ ظهره وإخبار الناس بذلك؛ خلافًا لحال أهل الكبر الذين يأنفون من حمل الصبيان فضلًا عما ذكر.

ثالثًا: جواز إدخال الصبي إلىٰ المسجد وتركه فيه والناس يصلون؛ فيرىٰ الناس ويرىٰ صلاتهم فيعتاد هذا المنظر ويحبه ويألف الناس، وينشأ نشأةً اجتماعية صالحة.

رابعًا: أنه ينبغي إشباع رغبات الطفل الفطرية وعدم كبتها ما أمكن، فالنبي ﷺ ترك الصبي راكبًا علىٰ ظهره متخذًا له كالراحلة دون أن يزجره أو يعجله مع أنه يصلي بالناس إمامًا، وقد طال السجود حتىٰ رفع شداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأسه لينظر خشية أن يكون حدث شيء.

وسأل الناس رسول الله ﷺ عن ذلك بعد الفراغ من الصلاة فأجابهم الرسول الرحيم ﷺ: «**كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتىٰ يقضي حاجته**».

٥- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«أن الأقرع بن حابس أبصر النبي ﷺ يقبل الحسن فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدًا منهم.

فقال رسول الله ﷺ: «**إنه من لا يَرحم لا يُرحم**»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بالصبيان؛ حيث كان يحملهم ويقبلهم وقد قال أنس رضي الله عنه كما في صحيح مسلم: «ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ».

ثانيًا: تواضع النبي ﷺ؛ حيث كان يقبل الصبيان بحضرة الناس خاصتهم وعامتهم؛ فإن الأقرع بن حابس كان سيد قومه بخلاف أهل الكبر الذين يأنفون عن ذلك.

ثالثًا: زجر من لا يرحم الصبيان.

رابعًا: أن الرحمة بالصبيان سبب جالب لرحمة الله عز وجل.

خامسًا: أن الجزاء من جنس العمل؛ حيث قال النبي ﷺ: «**من لا يَرحم لا يُرحم**».

سادسًا: كمال شفقة النبي ﷺ بأمته؛ حيث رغب في الرحمة بالخلق وحذر من ضدها فقال: «**من لا يَرحم لا يُرحم**».

٦- عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

قال: «دخلنا مع رسول الله ﷺ علىٰ أبي سيف القين -وكان ظئرًا لإبراهيم عليه السلام- فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشمه.

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الأدب، باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته برقم (٥٩٩٧)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل، باب: رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك برقم (٢٣١٨).

ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟

فقال: «يا بن عوف إنها رحمة. ثم أتبعها بأخرىٰ فقال ﷺ: «**إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»[(١)].

القين: الحداد. الظئر: المرضع وأطلق ذلك علىٰ أبي سيف لأنه كان زوجًا للمرضعة.

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بالصبيان، ويتضح ذلك في هذا الحوار من وجوه:

أ- عيادته لولده إبراهيم وقد كان مسترضعًا في عوالي المدينة.

ب- تقبيله وشمه له.

ج- بكاؤه ﷺ عند موته وقوله إنها رحمة.

ثانيًا: تواضع النبي ﷺ حيث كان يمشي مع أصحابه الصغار والكبار، ففي الحوار السابق أنس من الصغار وعبد الرحمن بن عوف من الكبار رضي الله عنهم وأرضاهم.

ثالثًا: عظيم محبة النبي ﷺ لولده إبراهيم عليه السلام لعيادته له وبكائه عليه وقوله ﷺ: «**إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون**».

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الجنائز، باب: قول النبي ﷺ: «**إنا بك لمحزونون**» برقم (١٣٠٢)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل، باب: رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك برقم (٢٣١٥).

رابعًا: حسن تعليم النبي ﷺ؛ حيث قال لعبد الرحمن بن عوف حين قال متعجبًا من بكاء النبي ﷺ: وأنت يا رسول الله؟ قال: «**إنها رحمة**». فبين له أن البكاء لا يدل علىٰ الجزع المنهي عنه وإنما هو رحمة.

خامسًا: شدة رقة قلب النبي ﷺ ورأفته فقد بكىٰ أمام أصحابه، وأخبر عما في قلبه من الحزن لفراق ولده.

* * *

الفصل العاشر
حوارات نبوية تعالج المشاكل العالمية

١- حوارات تعالج مشكلة العنصرية الطبقية والنعرات الجاهلية:

لقد بعث الله نبينا محمدًا ﷺ والناس في جاهلية جهلاء وضلالة عمياء، قد جعلوا مواسم ومناسبات وأسواق للتفاخر بالأنساب والأحساب، وكان بيت من الشعر تهدم به قبيلة، وتعيَّر وتذم، وآخر تبنىٰ به قبيلة وتمدح وتشهر.

كانوا لا يقيمون للموالي والعبيد وزنًا، ومن كان وضيع النسب في موازينهم فلا حظ له في الشرف والمشورة والقيادة والسيادة، ولا يطمع في الزواج إلا من مثله أو دونه.

فبعث الله نبينا محمدًا ﷺ بالهدىٰ ودين الحق؛ فأعطىٰ كل ذي حق حقه، وبين أنه لا فضل لأحد علىٰ أحد إلا بالتقوىٰ، وأن أكرم الناس عند الله أتقاهم.

حتىٰ «بات من المسلَّم به أن الشريعة الإسلامية لم تأت لتهدم كل ما كان عليه الناس قبلها، لتؤسس علىٰ أنقاضه بناءً جديدًا لا صلة له بفطرة البشر وما تقتضيه سنن الاجتماع، وإنما جاءت لتحق الحق وتبطل الباطل.

ومما لا شك فيه أيضًا أن عادات وتقاليد وأخلاق ومعاملات العرب في العصر الجاهلي بمختلف جوانب الحياة لم تكن سيئة كلها، بل منها ما كان ممدوحًا، فأقره الإسلام انطلاقًا من قوله ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**».

ومنها ما كان مذمومًا فأبطله الإسلام أو صحح فهمه وطريق إعماله، فأصبح بعدها أمرًا محمودًا.

وبما أن العصبية الجاهلية كانت بمثابة الأساس للأعراف القبلية السائدة آنذاك، وكانت في الوقت نفسه من أسباب الفرقة والتقاتل بين الناس؛ لذا فقد ركز الرسول ﷺ عليها وحاربها بكل قوة ودون هوادة، وحذر منها وسد منافذها لأنه لا بقاء للدين العالمي ولا بقاء للأمة الواحدة مع هذه العصبيات، ومصادر التشريع الإسلامية زاخرة بإنكارها وتشنيعها، وما أكثر النصوص في ذلك»(١).

وقد أبطل نبينا الكريم ﷺ تلك العادات القبيحة والنعرات الجاهلية بأنواع من القول والعمل في المجامع العامة والخاصة.

فقد سئل ﷺ عن أكرم الناس فقال: «**أتقاهم**»(٢).

وخطب ﷺ يوم فتح مكة فقال:

«**يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّةُ الجاهلية وتعاظُمَها بآبائها؛ فالناس رجلان بر تقي كريم علىٰ الله، وفاجر شقي هين علىٰ الله، والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]»(٣).

وأما محاربته ﷺ للعنصرية والنعرات الجاهلية بفعله فكثير.

ومن ذلك: أنه ﷺ تزوج عددًا من النساء هن دونه في النسب، ومنهن أم المؤمنين التقية النقية صفية بنت حيي رضي الله عنها وأرضاها، وآباؤها من اليهود،

---

(١) العصبية القبلية للجريسي ص (٤٢-٤٣).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب المناقب برقم (٣٤٩٠).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب: ومن سورة الحجرات برقم (٣٢٧٠)، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

كما أنه زوَّج ابنتيه لعثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو دون بني هاشم في النسب، وزوج بنت عمته زينب بنت جحش وهي هاشمية قرشية بمولاه زيد بن حارثة، وأشار كما في «صحيح مسلم»(١) علىٰ فاطمة بنت قيس وهي قرشية من بني فهر أن تتزوج بابن مولاه أسامة بن زيد.

ولقد كان من المنكرات عند أهل الجاهلية أن تتزوج الهاشمية أو القرشية ممن دونها في الحسب والنسب فضلًا عن الموالي.

وعند أن كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجة الوداع أردف خلفه علىٰ ناقته مولاه الأسود أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من عرفة إلىٰ المزدلفة، وقد حج معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الحجة عشرون ومائة ألف، فيهم أشراف العرب وساداتهم وخيار الصحابة وكبراؤهم، ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحِكَمٍ كثيرة لعل هذه منها أردف أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مولاه وابن مولاه.

وإليك أخي القارئ الكريم هذه الحوارات النبوية حيث تجتث هذه المشكلة من جذورها.

أولًا: حوارات عامة في هذا الموضوع ومنها:

١- عن أبي نضرة قال:

حدثني من سمع خطبة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وسط أيام التشريق فقال:

«يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي علىٰ أعجمي ولا لعجمي علىٰ عربي، ولا لأحمر علىٰ أسود ولا أسود علىٰ أحمر إلا بالتقوىٰ. أبلغت؟».

(١) برقم (١٤٨٠).

قالوا: بلغ رسولُ الله.

ثم قال: «**أي يوم هذا؟**».

قالوا: يوم حرام.

ثم قال: «**أي شهر هذا؟**».

قالوا: شهر حرام.

ثم قال: «**أي بلد هذا؟**».

قالوا: بلد حرام.

قال ﷺ: «**فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم**» قال: ولا أدري قال: أو أعراضكم أم لا «**كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. أبلغت؟**».

قالوا: بلغ رسول الله ﷺ.

قال: «**ليبلغ الشاهد الغائب**»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار العظيم ما يلي:

أولًا: إبطال النبي ﷺ للتمييز العنصري والعرفي والنعرات الجاهلية في هذا المجمع العظيم في حجة الوداع، التي شهدها مع رسول الله عشرون ومائة ألف؛ حيث بين ﷺ أنه لا فضل لعربي علىٰ عجمي ولا لعجمي علىٰ عربي، ولا أحمر علىٰ أسود ولا أسود علىٰ أحمر إلا بالتقوىٰ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٣١١).قال محققوا «المسند» بإشراف شعيب الأرناءوط: «إسناده صحيح».

ثانيًا: سماحة الإسلام وسمو تعاليمه؛ حيث هدم هذه الأمور التي تفكك المجتمعات، وتزرع في صفوفها العداوة والبغضاء، وتثير أعاصير الفتنة.

ثالثًا: أن الدين الإسلامي جاء بتعاليم وآداب وقيم كفيلة بترابط المجتمع وتكافله وتراحمه، حيث ألغىٰ هذه الحواجز والعقبات الحائلة دون ذلك.

رابعًا: حكمة النبي ﷺ وحنكته؛ حيث تكلم بهذا الكلام في هذا المجمع العظيم، الذي يجمع طوائف المجتمع المختلفة من سادات العرب فمن دونهم علىٰ اختلاف بلدانهم ليستقر في أذهانهم وينتشر في آفاقهم وبلدانهم، حيث كانت هذه المشكلة عامة فاحتاجت إلىٰ هذا الكلام العام في هذا المجمع العام.

خامسًا: عناية الدين الإسلامي بإصلاح القلوب والضمائر، وإصلاح النفوس التي بإصلاحها تصلح الأقوال والأعمال والمجتمعات؛ حيث بين النبي ﷺ أنه لا تفاضل عند الله إلا بالتقوىٰ التي محلها القلب.

سادسًا: عظيم بلاغة النبي ﷺ وفصاحته فقد عم وخص وأجمل وبين في خطبته السابقة، ونادىٰ وسأل وأمر ونهىٰ بأخصر عبارة وأبينها وألطفها وأجمعها للمعاني، وهذه والله من أعظم مقومات الحوار الناجح المفيد، فليستفد بلغاء وخطباء وزعماء العالم من هذا المعين الذي لا ينضب، فصلوات الله وسلامه علىٰ من آتاه اللهُ جوامع الكلم وبعثه ليتمم صالح الأخلاق ومكارمها.

سابعًا: أن من مقومات نجاح الحوار: اختيار الزمان والمكان المناسب والكلام المناسب لاسيما في القضايا العامة والأمور المهمة؛ فالنبي ﷺ اختار هذا الزمان وهو أوسط أيام التشريق، وذلك المكان حيث اجتماع الحجاج بمنىٰ، وإن كان قد عالج هذه المشكلة في أماكن كثيرة وأزمنة مختلفة، كما سيأتي في الحوارات الأخرىٰ.

كما أن النبي ﷺ اختار ما يناسب حجم هذه المشكلة فجمع بين الخبر والأمر والنهي والاستفهام؛ فبين للناس أن ربهم الذي يعبدونه واحد، وأن أباهم الذي ينتسبون إليه وهم كلهم من ذريته واحد، ثم بين ما يتفاضل به الخلق عند ربهم وهو تقواهم لله، ثم بين لهم حرمة دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

ثامنًا: عظيم عناية الدين الإسلامي الذي جاء به محمد ﷺ بحفظ الدماء والأموال والأعراض وبيان عظيم حرمتها إلا بحق الإسلام؛ حيث جعل النبي ﷺ حرمتها كحرمة اليوم الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام.

تاسعًا: أن على المحاور الناجح والداعي إلى الحق والهدى أن يستعمل كل الوسائل الإعلامية المتاحة المباحة لتبليغ الخير إلى جميع الخلق؛ فالنبي ﷺ انتهز فرصة هذا الاجتماع العظيم في هذا المكان العظيم فتكلم بهذا الكلام العظيم ثم قال: «**ليبلغ الشاهد الغائب**» ليبقى البلاغ والإعلام مستمرًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها في كل عصر ومصر.

ثانيًا: حوارات تدل على قوة تصدي النبي ﷺ لهذه النعرات عند أن وجدت وحزمه في علاجها ومن ذلك:

١- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال:

«كنا مع النبي ﷺ في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار فقال الأنصاري: يا للأنصار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين.

فقال رسول الله ﷺ: «**ما بال دعوى الجاهلية؟**».

قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار.

فقال ﷺ: «**دعوها فإنها منتنة**».

فسمعها عبد الله بن أبي فقال: قد فعلوها. والله لئن رجعنا إلىٰ المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق.

فقال: «**دعه لا يتحدثُ الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»(١).

وفي رواية لمسلم: «اقتتل غلامان، غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار، فنادىٰ المهاجر: يا للمهاجرين، ونادىٰ الأنصاري: يا للأنصار.

فخرج رسول الله ﷺ فقال: «**ما هذا؟ دعوىٰ أهل الجاهلية؟**».

قالوا: لا يا رسول الله، إلا أن غلامين اقتتلا فكسع أحدهما الآخر.

قال: «**فلا بأس، ولينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا، إن كان ظالمًا فلينهه فإنه له نصر، وإن كان مظلومًا فلينصره**».

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: صرامة النبي ﷺ وشدة حزمه في علاج إثارة النعرات الجاهلية، وإن كانت قد استعملت فيها ألفاظ شرعية يحبها الله ورسوله، مثل لفظ المهاجرين والأنصار، فقد قال النبي ﷺ: «**ما بال دعوىٰ الجاهلية؟**» ثم قال: دعوها فإنها منتنة؛أي: قبيحة وكريهة ومؤذية.

وقد قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «شرح مسلم»** (١٦/ ١٠٧): «وأما تسميته ﷺ ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [المنافقون: ٦] برقم (٤٩٠٥)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الصلة والآداب، باب: نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا برقم (٢٥٨٤).

دعوىٰ الجاهلية فهو كراهة منه لذلك، فإنه مما كانت عليه الجاهلية من التعاضد بالقبائل في أمور الدنيا ومتعلقاتها، وكانت الجاهلية تأخذ حقوقها بالعصبات والقبائل، فجاء الإسلام بإبطال ذلك وفصل القضايا بالأحكام الشرعية، فإذا اعتدىٰ إنسان علىٰ آخر حكم القاضي بينهما وألزمه مقتضىٰ عدوانه كما تقرر من قواعد الإسلام». اهـ.

ثانيًا: أن إثارة النعرات الجاهلية تحت أي مسمًّىٰ أمر مرفوض في الإسلام، وعودة بالأمة في هذا الباب إلىٰ الجاهلية المظلمة.

ثالثًا: عدالة الدين الإسلامي؛ حيث لا يعترف بالعنصرية والعرقية والنعرات الجاهلية التي تفرق المجتمع وتزرع بين صفوف أفراده الفتن.

رابعًا: عالمية الدين الإسلامي؛ حيث إن تعاليمه كفيلة بعلاج جميع المشكلات التي أزعجت العالم، وعجزت المدنية الشرقية والغربية المتحضرة عن علاجها.

خامسًا: أن من حكمة النبي ﷺ ورحمته: أنه لما أغلق الباب الممنوع فتح بابًا مشروعًا، حيث نفَّر من دعوىٰ الجاهلية وعصبيتها ثم قال: «**ولينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا، فإن كان ظالمًا فلينهه فإنه له نصر، وإن كان مظلومًا فلينصره**».

سادسًا: أن نصرة المظلوم ليست من العصبية الجاهلية، بل من المطالب الشرعية حيث قال النبي ﷺ: «**وإن كان مظلومًا فلينصره**».

سابعًا: حلم النبي ﷺ فلما قال عبد الله بن أبي رأس المنافقين ما قال، وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دعني أضرب عنق هذا المنافق. قال النبي ﷺ: «**دعه، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**».

ثامنًا: ترك بعض الأمور المختارة والصبر علىٰ بعض المفاسد؛ خوفًا من أن يترتب علىٰ ذلك مفسدة أعظم منه، وكان ﷺ يتألف الناس ويصبر علىٰ جفاء الأعراب والمنافقين وغيرهم؛ لتقوىٰ شوكة المسلمين، وتتم دعوة الإسلام، ويتمكن الإيمان من قلوب المؤلفة ويرغب غيرهم في الإسلام، وكان يعطيهم الأموال الجزيلة لذلك، ولم يقتل المنافقين لهذا المعنىٰ ولإظهارهم الإسلام، وقد أمر بالحكم بالظاهر والله يتولىٰ السرائر؛ ولأنهم كانوا معدودين في أصحابه ﷺ ويجاهدون معه إما حمية وإما لطلب دنيا أو عصبية لمن معه من عشائرهم. قاله الإمام النووي في «شرح مسلم» (١٦/ ١٠٧).

٢- عن المعرور بن سويد قال:

«مررنا بأبي ذر بالربذة وعليه برد وعلىٰ غلامه مثله فقلنا: يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حلة.

فقال: إنه كان بيني وبين الرجل من إخوتي كلام وكانت أمه أعجمية فعيرته بأمه، فشكاني إلىٰ النبي ﷺ، فلقيت النبي ﷺ فقال: «**يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية**».

قلت: يا رسول الله، من سب الرجال سبوا أباه وأمه.

قال: «**يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم**»(١).

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية برقم (٣٠)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الأيمان والنذور، باب: إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس برقم (١٦٦١) -واللفظ له-.

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عظيم حرص النبي ﷺ علىٰ هدم أمور الجاهلية من قلوب الناس خاصتهم وعامتهم، وذلك أنه قال لأبي ذر وهو من خيار الصحابة وكلهم عدل خيار: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**». فلما اعتذر له أن الرجل سبه أعاد عليه النبي ﷺ قوله: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**».

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في شرح مسلم (١١/ ٢٩١)**: «قوله ﷺ: «**فيك جاهلية**» أي: هذا التعيير من أخلاق الجاهلية ففيك خلق من أخلاقهم، وينبغي للمسلم ألا يكون فيه شيء من أخلاقهم، ففيه النهي عن التعيير وتنقيص الآباء والأمهات وأنه من أخلاق الجاهلية.

قوله: «قلت: يا رسول الله من سب الرجال سبوا أباه وأمه قال: «**يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية**» معنىٰ كلام أبي ذر الاعتذار عن سبه أمَّ ذلك الإنسان، يعني: أنه سبني ومن سب إنسانًا سب ذلك الإنسان أبا السابِّ وأمه، فأنكر عليه النبي ﷺ وقال: هذا من أخلاق الجاهلية، وإنما يباح للمسبوب أن يسب الساب نفسه بقدر ما سبه ولا يتعرض لأبيه ولا لأمه. اهـ.

ثانيًا: عدالة النبي ﷺ؛ حيث لم يحاب أبا ذر وهو من كبار الصحابة، بل أغلظ له القول لما عيَّر رجلًا بأمه، وقال له: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**»، وعلىٰ العدل قامت السموات والأرض، وبالعدل تعمر الأرض وينعم الخلق ويأمنون.

ثالثًا: رفق النبي ﷺ بالمملوك ورحمته به؛ حيث لم يقر الظلم عليه وأمر بالإحسان إليه، فقد قال ﷺ لأبي ذر بعد أن زجره عند أن عيَّره بأمه: «**هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم**».

رابعًا: حسن تعليم النبي ﷺ؛ حيث جمع لأبي ذر بين نهيه عما لا يجوز وأرشده إلىٰ ما ينبغي له فعله مع مماليكه.

خامسًا: حكمة النبي ﷺ حيث يتكلم في كل مقام بما يناسبه فقد أغلظ القول في هذا المقام وكرره؛ لأن هناك ما يستدعي ذلك وهو إبطال أمور الجاهلية التي تسبب تفكك المجتمع وإثارة القلاقل والفتن.

سابعًا: فضيلة أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حيث عمل بما أرشده النبي ﷺ فقد لقيه المعرور بن سويد وعليه بردٌ وعلىٰ غلامه مثله.

٣- عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

«أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت في عهد النبي ﷺ، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ؟!

فأتىٰ بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال: «**أتشفع في حد من حدود الله؟!**».

فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله.

فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاختطب فأثنىٰ علىٰ الله بما هو أهله ثم قال: «**أما بعد، فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**».

ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها»[(١)].

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار:

أولًا: عدالة النبي ﷺ، وإلغاؤه للامتيازات الطبقية، وعدم الاعتراف بها؛ حيث رفض شفاعة أسامة بن زيد وهو من أحب الناس إليه في المرأة المخزومية الشريفة التي سرقت، ثم قام خطيبًا في الناس فقال: «**إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»، ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها».

ثانيًا: عظيم حكمة النبي ﷺ وحنكته في سياسة الأمور؛ حيث بدأ بالبيان قبل الفعل، فإن قريشًا لما عظم عليهم أن تقطع يد امرأة من أشرافهم قام فيهم خطيبًا، وبين لهم أن عدم المساواة بين الناس في إقامة الحد ومحاباة الشرفاء علىٰ حساب الضعفاء هو سبب هلاك من قبلهم، ثم أكد لهم ذلك بأن أقسم لهم بالله أن ابنته لو سرقت -وحاشاها- لقطع يدها.

كل هذا قاله خطيبًا في جمع من الناس، ثم بعد هذا كله أمر بقطع يدها.

ثالثًا: عظيم شجاعة النبي ﷺ وقوته في إقامة الحق علىٰ الخلق، وأنه ﷺ لا يخاف في الله لومة لائم.

رابعًا: عظمة دين الإسلام وأحكامه العادلة الرادعة التي بها تحفظ الحقوق وتصان ويحصل بها الأمن والاستقرار.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب أحاديث الأنبياء برقم (٣٤٧٥)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره برقم (١٦٨٨).

ثالثًا: حوارات نبوية تبطل العصبية الجاهلية والتمييز الطبقي في باب النكاح:

حيث إن المجتمعات الجاهلية كانوا يشترطون الكفاءة في النسب في النكاح، وهي كون الزوج نظيرًا للزوجة في ذلك.

ولا زالت الكفاءة في هذا الباب -مع محاربة الإسلام لها- تعد من أكثر مظاهر العصبية القبلية شيوعًا وانتشارًا؛ حيث يشترطون الكفاءة في النسب بين الزوجين، ويبالغون في النكير علىٰ من خالف ذلك، حتىٰ ربما وصل بهم الأمر إلىٰ هدم بعض الأسر أو سفك الدماء والبراءة من بعضهم البعض.

وقد جاء الإسلام بسماحته ورحمته وعدالته بإلغاء هذا التمييز العنصري والطبقي ولم يشترط إلا الكفاءة في الدين فقد قال النبي ﷺ: «**إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**»(١).

وقد سبق أن النبي ﷺ أبطل هذه العادات الجاهلية بقوله وفعله؛ فقد زوج اثنتين من بناته بعثمان بن عفان رضي الله عنه وهن هاشميات وعثمان دونهن في النسب.

وتزوج ﷺ عددًا من النساء هن دونه في النسب منهن أم المؤمنين العابدة التقية الصالحة صفية بنت حيي رضي الله عنها، وآباؤها من اليهود.

وإليك أخي القارئ الكريم عدة حوارات نبوية تربوية تدل علىٰ ما سبق:

١- عن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها -وهي قرشية نسيبة من بني فهر- أنها قالت للنبي ﷺ:

---

(١) أخرجه الترمذي في «سننه» كتاب النكاح، باب: إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه برقم (١٠٨٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال العلامة الألباني رحمه الله: «حسن صحيح».

«إن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباني.

فقال رسول الله ﷺ: «**أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، انكحي أسامة بن زيد**». فكرهته.

ثم قال: «**انكحي أسامة**».

فنكحته فجعل الله فيه خيرًا واغتبطت»(١).

وفي رواية لمسلم: «**طاعة الله وطاعة رسوله خير لك**».

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار:

أولًا: إبطال النبي ﷺ ما كانت عليه الجاهلية من اعتبار الكفاءة في النسب، فجعل المعتبَر من ذلك الدينَ؛ فقد أشار علىٰ فاطمة بنت قيس وهي امرأة قرشية نسيبة من المهاجرات الأوائل، وكانت ذات فضل وجمال أن تتزوج أسامة بن زيد مولاه وابن مولاه، وقدمه علىٰ أكفائها ممن ذكرت أنهم تقدموا لخطبتها.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ **في** «**شرح مسلم**» (١٠/ ٧٧): «وأما إشارته ﷺ بنكاح أسامة؛ فلما علمه من دينه وفضله وحسن طرائفه وكرم شمائله، فنصحها بذلك فكرهته لكونه مولىٰ ولكونه أسود جدًّا، فكرر عليها النبي ﷺ الحث علىٰ زواجه لما علم من مصلحتها في ذلك وكان كذلك، ولهذا قالت: فجعل الله لي فيه خيرًا واغتبطت؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الرواية التي بعد هذا: «**طاعة الله وطاعة رسوله خير لك...**». اهـ.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الطلاق، باب: المطلقة ثلاثًا لا نفقة لها برقم (١٤٨٠).

ثانيًا: عظيم نصح النبي ﷺ لأصحابه ولأمته؛ فقد نصح ﷺ لفاطمة بنت قيس بالزواج بأسامة رضي الله عنه وكان في زواجها به خير كثير.

وبهذا فقد نصح للأمة حيث أبطل عادة سيئة من عادات أهل الجاهلية حيث زَوَّج القرشية النسيبة بمن هو دونها في النسب بكثير لما كان كفؤًا لها في الدين.

ثالثًا: أن من فنون الحوار استعمال الترغيب والترهيب؛ فإن النبي ﷺ في الحوار السابق قال لفاطمة بنت قيس لما رآها ترددت: «**طاعة الله وطاعة رسوله خير لك**».

٢- عن أنس رضي الله عنه قال:

«خطب النبي ﷺ علىٰ جليبيب امرأة من الأنصار إلىٰ أبيها فقال: حتىٰ أستأمر أمها فقال النبي ﷺ: «**فنعم إذن**».

قال: فانطلق الرجل إلىٰ امرأته فذكر لها ذلك فقالت: لا ها الله إذن أما وجد رسول الله ﷺ إلا جليبيبًا وقد منعناها من فلان وفلان؟

قال: والجارية في سترها تستمع.

قال: فانطلق الرجل يريد أن يخبر النبي ﷺ بذلك فقالت الجارية: أتريدون أن تردوا علىٰ رسول الله أمره؟ إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه.

قال: فكأنها جلت عن أبويها، وقالا: صدقت.

فذهب أبوها إلىٰ النبي ﷺ فقال: إن كنت قد رضيته فقد رضيناه.

قال: «**فإني قد رضيته، فزوجها**».

ثم فزع أهل المدينة فركب جليبيب فوجدوه قد قتل وحوله ناس من المشركين وقد قتلهم.

قال أنس: فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق ثيب في المدينة»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار:

أولًا: إبطال النبي ﷺ الكفاءة في النسب واعتبار الكفاءة في الدين؛ فإن جليبيبًا كما يظهر في هذا الحوار دون هذا البيت من الأنصار الذي زوجه رسول الله ﷺ منهم.

ثانيًا: تواضع النبي ﷺ حيث باشر الخطبة لجليبيب رضي الله عنه، وهذا مما يترفع عنه أهل الكبر.

ثالثًا: ما كان عليه ذلك المجتمع الذي صحب النبي ﷺ من الخير رجالًا ونساءً كبارًا وصغارًا، فتلك الشابة لما خطبت وسمعت مقالة أمها راجعتها وقالت لأبويها: «أتريدون أن تردوا علىٰ رسول الله أمره؟ إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه». فما كان من أبويها عند أن سمعا مقالتها إلا أن قالا: «صدقت»، وجلت بكلامها عنهما.

رابعًا: أن الخير والبركة والعاقبة الحميدة في طاعة الله ورسوله ﷺ فمع ما

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٣/ ١٣٦) قال الشيخ شعيب الأرناءوط: «إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين».

حصل لهذه الأسرة من الأجر والخير بطاعتهم لله ورسوله؛ فقد قال أنس عن تلك المرأة التي تزوجت جليبيب ثم مات عنها شهيدًا في سبيل الله: فلقد رأيتها لمن أنفق ثيب في المدينة.

٣- عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

«أن أبا هند حجم النبي ﷺ في اليافوخ فقال النبي ﷺ: «**يا بني بياضة أنكحوا أبا هند وانكحوا إليه**».

وقال: «**وإن كان في شيء مما تداوون به خير فالحجامة**»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار القصير ما يلي:

أولًا: إبطال النبي ﷺ للكفاءة في الصنعة والحرفة؛ حيث إن الحجامة مهنة متدنية عند العرب، ومع ذلك قال النبي ﷺ لبني بياضة وهم ذو نسب: «**أنكحوا أبا هند وانكحوا إليه**».

قال الإمام الخطابي رَحِمَهُ اللهُ في «**معالم السنن**» (٣/ ١٧٧): «هذا الحديث حجة لمالك ولمن ذهب مذهبه في أن الكفاءة بالدين وحده دون غيره، وأبو هند مولىٰ بني بياضة ليس من أنفسهم». اهـ.

ثانيًا: حرص النبي ﷺ علىٰ أمته وعظيم شفقته عليها؛ حيث يدلهم علىٰ ما ينفعهم ويحذرهم مما يضرهم في جميع الأبواب.

ثالثًا: الحث علىٰ الحجامة وأنها من خير ما يتداوىٰ به.

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب النكاح، باب: في الأكفاء برقم (٢١٠٢)، وحسنه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ.

وأختم هذا المبحث بنقل كلام لعالمين كبيرين من علماء الإسلام الأعلام حول هذه المشكلة.

يقول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٥/ ١٥٩- ١٦٠): «فالذي يقتضيه حكمه ﷺ اعتبار الدين في الكفاءة أصلًا وكمالًا؛ فلا تزوج مسلمة بكافر ولا عفيفة بفاجر، ولم يعتبر القرآن والسنة في الكفاءة أمرًا وراء ذلك؛ فإنه حرم علىٰ المسلمة نكاح الزاني الخبيث، ولم يعتبر نسبًا ولا صناعة ولا غنىٰ ولا حرية، فجوز للعبد القن -الخالص- نكاح الحرة النسيبة الغنية إذا كان عفيفًا مسلمًا، وجوز لغير القرشيين نكاح القرشيات، ولغير الهاشميين نكاح الهاشميات، وللفقراء نكاح الموسرات». اهـ.

وقال العلامة الصنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ في «سبل السلام» (٣/ ٢٧٤): «وللناس في هذه المسألة عجائب لا تدور علىٰ دليل غير الكبرياء والترفع، ولا إله إلا الله كم حرمت المؤمنات النكاح لكبرياء الأولياء واستعظامهم أنفسهم، اللهم إنا نبرأ إليك من شرط وَلَّدَهُ الهوىٰ ورباه الكبرياء.

ولقد منعت الفاطميات في جهة اليمن ما أحل الله لهن من النكاح لقول بعض أهل مذهب الهادوية إنه يحرم نكاح الفاطمية إلا من فاطمي من غير دليل ذكروه، وليس مذهبًا لإمام المذهب الهادي عَلَيْهِ السَّلَامُ بل زوج بناته من الطبريين.

وإنما نشأ هذا القول من بعده في أيام الإمام أحمد بن سليمان وتبعهم بيت رياستهم فقالوا بلسان الحال: تحرم شرائفهم علىٰ الفاطميين إلا من مثلهم، وكل ذلك من غير علم ولا هدىٰ ولا كتاب منير، بل ثبت خلاف ما قالوه عن سيد البشر ﷺ». اهـ.

وبعد هذا وذاك «فالغرب المتحضر يعاني من مشكلات الفروق الاجتماعية والتمييز العنصري، فالأبيض ذو العينين الزرقاوين يرىٰ أنه فوق بقية البشر وبخاصة الملوَّنين منهم وبالأخص السود البشرة؛ لذا فإن أكثر ما يُعجب به الغربيون من شأن الإسلام هو مساواته وحرصه علىٰ الحقوق والكرامة الإنسانية، وأنه لا يفوق أحد أحدًا إلا بعمل يستحق به التقدير، أو لحكمة وقصد نافع الله سبحانه أدرىٰ به وبعواقبه؛ لهذا كان شعار النصارىٰ المحبة، أما شعار المسلمين فهو المحبة والعدالة»(١).

حوارات نبوية تبين موقف الإسلام من العبودية أو الرق:

من المعلوم أن الدين الإسلامي هو دين العدالة والرحمة، ودين العلم والعمل، ولم يختص بالرق بل قد كان منتشرًا في جميع أقطار الأرض قبل بعثة النبي ﷺ، فهو عند الفرس والروم والبابليين والفراعنة وعند اليهود والنصارىٰ وغيرهم، إلا أن الدين الإسلامي جاء بإعطاء كل ذي حق حقه، وجاء برفع الظلم عن المظلومين، فالإسلام يقر الرق بأسبابه المشروعة لا عن طريق الخطف واللصوصية، ويتشوف إلىٰ تحرير الأرقاء والإحسان إليهم، ومن تأمل الحوارات الآتية تبين له ذلك بجلاء، وليست إلا جانبًا من جوانب عدالة الإسلام ورحمته وإحسانه في هذا الباب.

١- عن المعرور بن سويد رضي الله عنه قال:

«مررنا بأبي ذر بالربذة وعليه برد وعلىٰ غلامه مثله فقلنا: يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حلة.

---

(١) «قبيلة آدم» لعلي عيسىٰ (ص٢٦) نقلًا عن كتاب «العصبية القبلية» للجريسي (ص٩٨).

فقال: إنه كان بيني وبين الرجل من إخوتي كلام وكانت أمه أعجمية فعيرته بأمه، فشكاني إلىٰ النبي ﷺ، فلقيت النبي ﷺ فقال:

«**يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية**».

قلت: يا رسول الله، من سب الرجال سبوا أباه وأمه.

قال: «**يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم؛ فإن كلفتموهم فأعينوهم**»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عدالة الدين الإسلامي الذي بعث به نبينا ﷺ؛ فإن النبي الكريم الرحيم رفع من قدر الأرقاء حتىٰ جعلهم إخوان أسيادهم؛ فقد قال النبي ﷺ لأبي ذر: «**هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم...**» إلخ.

ثانيًا: حرص النبي ﷺ علىٰ جبر قلوب الأرقاء والمماليك حيث ندب أسيادهم إلىٰ أن يطعموهم مما يأكلون ويلبسوهم مما يلبسون، وأخبر أنهم إخوان لسادتهم.

ثالثًا: تحريم النبي ﷺ لظلم الأرقاء وأمره بإعطائهم حقوقهم ورفع المعاناة عنهم؛ فقد زجر النبي ﷺ أبا ذر رضي الله عنه حين عيَّر غلامه بأمه وقال: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**».

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية برقم (٣٠)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الأيمان والنذور، باب: إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس برقم (١٦٦١) واللفظ له.

بل قد بلغت عدالة الإسلام أن يجرؤ الرقيق ويشكو سيده إلىٰ رسول الله ﷺ ليأخذ له بحقه فلا يجد إلا الإنصاف والرحمة، وكيف لا يكون ذلك ونبينا ﷺ هو القائل: «**من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه**»(١).

وهو القائل ﷺ: «**من قذف مملوكه بالزنا يقام عليه الحد يوم القيامة إلا أن يكون كما قال**»(٢).

ثم نهىٰ النبي ﷺ السيد أن يكلف رقيقه ما يغلبهم فقال: «**ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم**».

٢- عن أبي مسعود الأنصاري قال:

«كنت أضرب غلامًا لي فسمعت من خلفي صوتًا: «**اعلم أبا مسعود، للهُ أقدر عليك منك عليه**». فالتفت فإذا هو رسول الله ﷺ. فقلت: يا رسول الله هو حر لوجه الله.

فقال: «**أما لو لم تفعل لَلَفحتك النار -أو: لمستك النار-**»(٣).

وفي رواية لمسلم: قال أبو مسعود رضي الله عنه: «**لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا**».

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عدالة النبي ﷺ وعدم إقراره لظلم المملوك، وبالتالي فالمطلوب

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الأيمان والنذور، باب: صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده برقم (١٦٥٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الأيمان والنذور، باب: التغليظ علىٰ من قذف مملوكه بالزنا برقم (١٦٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الأيمان والنذور، باب: صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده برقم (١٦٥٩).

الرحمة والرفق به والإحسان عليه.

ثانيًا: سماحة الدين الإسلامي وكماله؛ حيث يأخذ الحق للضعيف من القوي، وللمملوك من مالكه.

ثالثًا: حسن تعليم النبي ﷺ حيث يستخدم أسلوب الترغيب والترهيب وتعليل الأحكام فقد قال ﷺ لأبي مسعود: «**لله أقدر عليك منه عليه**» فما كان من أبي مسعود رضي الله عنه إلا أن قال: هو حر لوجه الله. فقال له النبي ﷺ: «**لو لم تفعل للفحتك النار**».

رابعًا: أن كفارة ضرب المملوك عتقه، وهذا يدل علىٰ أن الدين الإسلامي يتشوف إلىٰ تحرير الأرقاء تشوفًا عظيمًا.

خامسًا: عظيم رعاية الدين الإسلامي لحقوق الإنسان ذكرًا كان أو أنثىٰ، حرًّا كان أو عبدًا.

«هذا وقد ضيق الإسلام مورد الرِّقِّ؛ إذ جعل الناس كلهم أحرارًا لا يطرأ عليهم الرق إلا بسبب واحد: «وهو أن يؤسروا وهم كفار مقاتلون» مع أن الواجب علىٰ القائد أن يختار الأصلح من الرق، أو الفداء، أو الإطلاق بلا فداء حسب المصلحة العامة.

فهذا هو السبب وحده في الرق، وهو سبب كما جاء في النقل الصحيح فإنه يوافق العقل الصحيح أيضًا.

فإن من وقف في سبيل عقيدتي وأراد الحدَّ من حريتي وألَّب عليَّ وحاربني؛ فجزاؤه أن أمسكه عندي ليفسح المجال أمامي وأمام دعوتي.

هذا هو سبب الرق في الإسلام لا النهب والسلب وبيع الأحرار واستعبادهم كما هو عند الأمم الأخرىٰ.

كما أن الإسلام رفق بالرقيق وعطف عليه، وتوعد علىٰ تكليفه وإرهاقه فقال ﷺ: «**اتقوا الله وما ملكت أيمانكم**».

وقال ﷺ أيضًا: «**للمملوك طعامه وقوته ولا يكلف من العمل ما لا يطيق**». رواه مسلم.

بل إن الإسلام رفع من قدر الرقيق حتىٰ جعلهم إخوان أسيادهم، فقد قال ﷺ: «**هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلِّفوهم ما يغلبهم، فإن كلَّفتموهم فأعينوهم**» متفق عليه.

ورفع من مقامهم عند مخاطبتهم حتىٰ لا يشعروا بالضَّعة ولذا قال ﷺ: «**لا يقل أحدكم عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي**».

كما أن المقياس في الإسلام لكرامة الإنسان في الدنيا والآخرة، لا يرجع إلىٰ الأنساب والأعراق وإنما يرجع إلىٰ الكفاءات والقيم المعنوية، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد بلغ شخصيات من الموالي -لفضل علمهم وقدرتهم- ما لم يبلغه ساداتهم؛ إذ قادوا الجيوش وساسوا الأمم وتولوا القضاء والأعمال الجليلة بكفاءتهم التي هي أصل مجدهم.

ومع ما رفعه الشارع من مقام المملوك؛ فإن له تشوفًا إلىٰ تحرير الرقاب وفك أغلالها.

فقد حث علىٰ ذلك ووعد عليه النجاة من النار والفوز بالجنة، وقد تقدم بعض ذلك.

ثم إنه جعل لتحريرهم عدة أسباب بعضها قهرية وبعضها اختيارية.

فمن القهرية: أن من جرح مملوكه عتق عليه.

فقد جاء في الحديث: أن رجلًا جدع أنف غلامه فقال رسول الله ﷺ: «**اذهب فأنت حر**». فقال: يا رسول الله، فمولىٰ من أنا؟ قال: «**مولىٰ الله ورسوله**».

ومن أعتق نصيبه من مملوك مشترك عتق نصيب شريكه قهرًا كما في الحديث «**من أعتق شِرْكًا له في مملوك وجب عليه أن يعتق كله**». رواه البخاري.

ومن ملك ذا رحم محرم عتق عليه قهرًا لحديث: «**من ملك ذا رحم محرم فهو حر**». رواه أهل السنن.

فهذه أسباب قهرية تزيل ملك السيد عن رقيقه خاصة في هذا الباب لما له من السراية الشرعية والنفوذ القوي الذي لم يجعل في عتقه خيارًا ولا رجعةً.

ثم إن المشرع -مع حثه علىٰ الإعتاق- جعله أول الكفارات في التخلص من الآثام والتحلل من الأيمان.

فالعتق هو الكفارة الأولىٰ في الوطء في نهار رمضان، وفي الظهار، وفي الأيمان، وفي القتل.

فكيف -بعد هذا- يأتي الغربيون والمستغربون فيعيبون علىٰ الإسلام إقراره الرق ويتشدقون بالحرية والمناداة بحقوق الإنسان، وهم الذين استعبدوا الشعوب وأذلوا الأمم واسترقُّوهم في عقر دارهم وأكلوا أموالهم واستحلوا ديارهم؟!

أفيرفعون رءوسهم وهم الذين يعاملون بعض الطبقات في بلادهم أدنىٰ من معاملة العبيد؟!

فأين مساواة الإسلام مما تفعله أمريكا بالزنوج الذين لا يباح لهم دخول المدارس، ولا تحل لهم الوظائف ويجعلونهم والحيوان سواسية؟!

وأين رفق الإسلام وإحسانه، مما يفعله الغرب بأسرىٰ الحرب الذين لا يزالون في المجاهل والمتاهات والسجون المظلمة؟!

بعد هذا ألم يَأْنِ للمصلحين ومحبي السلام أن يبعدوا عن أعينهم الغشاوة فيراجعوا تعاليم الإسلام بتدبُّر وإنصاف؛ ليجدوا ما فيه سعادة الإنسانية في حاضرهم ومستقبلهم؟!

اللهم انصر دينك ووفق له الدعاة المخلصين». اهـ[(١)].

* * *

(١) «تيسير العلام شرح عمدة الأحكام» (٢/ ٥٦٦-٥٦٩).

الفصل الحادي عشر
حوارات نبوية تعالج مشكلة الغلو والتطرف وتدعو إلى الوسطية والاعتدال

إن الدين الإسلامي هو دين الوسطية والاعتدال في كل الأبواب عقيدة وعبادة وأخلاقًا ومعاملة ودعوة، فلا مجال فيه لإفراط أو تفريط، قال الله تعالىٰ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره» (ص٥٣): «﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾؛ أي: عدلًا خيارًا، وما عدا الوسط فالأطراف داخلة تحت الخطر، فجعل الله هذه الأمة وسطًا في كل أمور الدين، ووهبهم الله من العلم والحلم والعدل والإحسان ما لم يهبه لأمة سواهم فلذلك كانوا ﴿أُمَّةً وَسَطًا ﴾ كاملين معتدلين ليكونوا ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط، يحكمون علىٰ الناس من سائر أهل الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول فهو مقبول، وما شهدت له بالرد فهو مردود.

فإن قيل: كيف يقبل حكمهم علىٰ غيرهم، والحال أن كل مختصمين غير مقبول قول بعضهم علىٰ بعض.

قيل: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين لوجود التهمة، فأما إذا انتفت التهمة وحصلت العدالة التامة كما في هذه الأمة؛ فإن المقصود الحكم بالعدل والحق، وشرط ذلك العلم والعدل وهما موجودان في هذه الأمة فقبل قولها.

فإن شك شاك في فضلها وطلب مزكيًا لها فهو أكمل الخلق نبيهم ﷺ؛ فلهذا قال تعالىٰ: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾». اهـ.

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت:

قال رسول الله ﷺ: «**إني أرسلت بالحنيفية السمحة**»(١).

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ١١٦):

الحنيفية ملة إبراهيم، والحنيف في اللغة من كان علىٰ ملة إبراهيم، وسمي إبراهيم حنيفًا لميله عن الباطل لأن أصل الحنيف الميل، والسمحة السهلة أي أنها مبنية علىٰ السهولة. اهـ.

أولًا: حوارات نبوية تحث على الوسطية في باب الاعتقاد:

١- عن عبد الله بن الشخير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال:

«انطلقت في وفد بني عامر إلىٰ رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا.

فقال: «**السيد الله تبارك وتعالىٰ**».

قلنا: وأفضلنا فضلًا وأعظمنا طولًا.

فقال: «**قولوا بقولكم** -أو: **بعض قولكم**- **ولا يستجرينكم الشيطان**»(٢).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: إنكار النبي ﷺ للغلو وحثه علىٰ الوسطية في هذا الباب، وبهذا نعرف

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٦/ ١١٦) وسنده حسن.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٥)، وأبو داود في «سننه» كتاب الأدب، باب: في كراهية التمادح برقم (٤٨٠٦)، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ.

بطلان غلو من غلا في مدح نبينا ﷺ شعرًا ونثرًا، وأن هذا لا يحبه النبي ﷺ ولا يقره فهو القائل ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم، وإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله**»(١).

وهذا يدل علىٰ أن هذا الغلو في الأنبياء تشُّبه بالنصارىٰ، يجر إلىٰ عبادتهم من دون الله.

وفي قوله: «**إنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله**» دعوة واضحة صريحة للتوسط والاعتدال، فهو عبد فلا يُعبَد ورسول فلا يكذب.

ثانيًا: تواضع النبي ﷺ حيث أنكر علىٰ من بالغ في مدحه.

ثالثًا: رفق النبي ﷺ وحسن تعليمه، حيث لم يعنفهم عند أن قالوا ما قالوا، وبين لهم أن هذا من استجراء الشيطان.

فينبغي للمحاور لاسيما عند إنكار منكر أن يكون رفيقًا متواضعًا.

٢- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

«قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت.

فقال النبي ﷺ: «**أجعلتني لله ندًّا؟! قل: ما شاء الله وحده**»(٢).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: حرص النبي ﷺ علىٰ سد كل طريق موصل إلىٰ الشرك؛ فنهىٰ عن هذا

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٣٤٤٥).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (١/ ٢١٤) وابن ماجة في «سننه» برقم (٢١١٧)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله.

القول وإن لم يعتقد القائل معناه؛ لئلا يفضي هذا إلىٰ الاعتقاد فيرفع النبي ﷺ فوق منزلته التي أنزله الله إياها.

ثانيًا: أنه ينبغي لمن مدح بما لا يستحق أن ينكر هذا علىٰ المادح ولا يقره علىٰ قوله، بل أمر النبي ﷺ أن نحثو في وجوه المداحين التراب.

ثالثًا: حكمة النبي ﷺ؛ حيث أغلظ علىٰ إنكار هذا القول لأنه مع عدم اعتقاد معناه قد يفضي إلىٰ الشرك، فيكون التغليظ في الإنكار في مثل هذا المقام أدعىٰ لترك المنكر وأعظم في التنفير عنه.

رابعًا: حسن تعليم النبي ﷺ؛ حيث أغلق بابًا ممنوعًا وفتح بابًا مشروعًا، فلما أنكر ﷺ علىٰ الرجل قوله: «**ما شاء الله وشئت**» دله علىٰ ما يقوله وهو: «**ما شاء الله وحده**».

خامسًا: شدة تعظيم نبينا ﷺ لربه عَزَّوَجَلَّ؛ فإن الخلق مهما بلغوا في المنزلة والدين لا يجوز اتخاذهم أندادًا لله أو من دون الله.

سادسًا: أن حسن القصد وسلامة النية لا يمنع من إنكار القول أو العمل المخالف للشرع أو المفضي إلىٰ ما لا يقره الشرع.

وقد سبق في الحوارات المتعلقة بأنبياء الله ما يدل علىٰ وسطية هذه الأمة في أنبياء الله.

ثانيًا: حوارات نبوية تحث على الوسطية في العبادات:

١- عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال:

«كنت أصوم الدهر وأقرأ القرآن كل ليلة؛ فإما ذُكرت للنبي ﷺ، وإما أرسل

إلي فأتيته فقال لي: «**ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة؟**».

فقلت: بلىٰ يا نبي الله، ولم أرد بذلك إلا الخير.

قال: «**فإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام**».

قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك.

قال: «**فإن لزوجك عليك حقًّا، وإن لزورك عليك حقًّا ولجسدك عليك حقًّا، فصم صوم داود نبي الله فإنه كان أعبد الناس**».

قلت: يا نبي الله، وما صوم داود؟

قال: «**كان يصوم يوما ويفطر يومًا**».

قال: «**واقرأ القرآن في كل شهر**».

قال: قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك.

قال: «**فاقرأه في كل عشرين**».

قال: قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك.

قال: «**فاقرأه في كل عشر**».

قال: قلت: يا نبي الله، إني أطيق أكثر من ذلك.

قال: «**فاقرأه في كل سبع ولا تزد علىٰ ذلك؛ فإن لزوجك عليك حقًّا، ولزورك عليك حقًّا ولجسدك عليك حقًّا**».

قال: فشددت فشدد علي.

قال: وقال لي النبي ﷺ: «**إنك لا تدري لعلك يطول بك عُمُرٌ**».

قال: فصرت إلىٰ الذي قال لي النبي ﷺ فلما كبرت وددت أني كنت قبلت رخصة نبي الله ﷺ»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: رفق رسول الله ﷺ بأمته وشفقته عليهم، وإرشاده إياهم إلىٰ ما يصلحهم، وحثه إياهم علىٰ ما يطيقون الدوام عليه، ونهيهم عن التعمق في العبادة لما يخشىٰ من إفضائه إلىٰ الملل المفضي إلىٰ الترك أو ترك البعض، وقد ذم الله تعالىٰ قومًا لازموا العبادة ثم فرطوا فيها. قاله الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٤/ ٢٦٥).

ثانيًا: تواضع النبي ﷺ؛ وذلك في تفقده لأحوال أصحابه ومحاورته لهم ومراجعته لهم ومراجعتهم له.

ثالثًا: أن الشريعة التي بعث بها محمد ﷺ توافق الفطرة؛ فهي تراعي حاجات الروح ومطالب الجسد، وتوازن بين العمل للدنيا والعمل للآخرة، وتهذب غرائز الإنسان ونوازعه فلا تكبتها ولا تلغيها كما حصل في أمم أخرىٰ، بعضها أغرقت في المثالية المخالفة للفطرة، وأغرقت بعضها في الماديات وأهملت جانب الروح وتهذيب النفوس.

رابعًا: حكمة النبي ﷺ؛ حيث إنه إذا أغلق بابًا ممنوعًا فتح أبوابًا مشروعة تلبي رغبة العاملين.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الصوم، باب: حق الجسم في الصوم برقم (١٩٧٥)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الصيام، باب: النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به برقم (١١٥٩).

خامسًا: الإشارة إلىٰ الاقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام في أنواع العبادات. قاله الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في «الفتح» (٤/ ٢٦٦).

سادسًا: أن نبينا ﷺ يدعو إلىٰ احترام الأنبياء والتأسي بهم ويثني عليهم فقد قال ﷺ عن نبي الله داود: «**إنه كان أعبد الناس**». وحث عبد الله بن عمرو علىٰ التأسي به في الصيام.

سابعًا: في الحديث عَلَم من أعلام نبوة نبينا محمد ﷺ فقد قال لعبد الله بن عمرو: «**إنك لا تدري لعلك يطول بك عمر**» فطال عمر عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتىٰ قال: «فصرت إلىٰ الذي قال لي النبي ﷺ، فلما كبرت وددت أني كنت قبلت رخصة نبي الله ﷺ».

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «**السير**» (٣/ ٨٤-٨٦): «هذا السيد العابد الصاحب كان يقول لما شاخ: «ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ».

وكذلك قال له عَلَيْهِ السَّلَامُ في الصوم وما زال يناقصه حتىٰ قال له: «**صم يومًا وأفطر يومًا صوم أخي داود** عَلَيْهِ السَّلَامُ».

وثبت أنه قال ﷺ: «**أفضل الصيام صيام داود**».

ونهىٰ عليه الصلاة والسلام عن صيام الدهر.

وأمر عَلَيْهِ السَّلَامُ بنوم قسط من الليل وقال: «**لكني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني**».

وكل من لم يلزم نفسه في تعبُّده وأوراده بالسنة النبوية؛ يندم ويترهب ويسوء مزاجه، ويفوته خير كثير من متابعة سنة نبيه الرءوف الرحيم بالمؤمنين الحريص علىٰ نفعهم.

وما زال ﷺ معلمًا للأمة أفضل الأعمال، وآمرًا بهجر التبتل والرهبانية التي لم يبعث بها؛ فنهىٰ عن سرد الصوم ونهىٰ عن الوصال، وعن قيام أكثر الليل إلا في العشر الأخير، ونهىٰ عن العزبة للمستطيع ونهىٰ عن ترك اللحم إلىٰ غير ذلك من الأوامر والنواهي، فالعابد بلا معرفة لكثير من ذلك معذور مأجور، والعابد العالم بالآثار المحمدية المتجاوز لها مفضول مغرور، وأحب الأعمال إلىٰ الله تعالىٰ أدومها وإن قل؛ ألهمنا الله وإياكم حسن المتابعة وجنبنا الهوىٰ والمخالفة». اهـ.

٢- عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال:

«جاء ثلاثة رهط إلىٰ بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أُخبروا كأنهم تقالوها فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟!

قال أحدهم: أما أنا فأنا أصلي الليل أبدًا، وقال الآخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا.

فجاء رسول الله ﷺ فقال: **«أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني»**(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: أن الدين الإسلامي الذي بعث به نبينا ﷺ دين التوسط والاعتدال، يلبي حاجات الروح ويراعي حاجات الجسد.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب النكاح، باب: الترغيب في النكاح برقم (٥٠٦٣)، ومسلم في «صحيحه» كتاب النكاح، باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه برقم (١٤٠١).

ثانيًا: ما كان عليه النبي ﷺ من الحنيفية السمحة؛ فقد كان يفطر ليتقوىٰ علىٰ الصوم، وينام ليتقوىٰ علىٰ القيام، ويتزوج لكسر الشهوة وإعفاف النفس وتكثير النسل. قاله الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الفتح» (٩/ ٧-٨).

ثالثًا: أنه ينبغي لمن أنكر أمرًا أن يتأكد أولًا من وقوعه لاسيما إذا تعلق بمعين؛ لأن نبينا ﷺ قال لأولئك النفر لما بلغه عنهم ما بلغه: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟**». وهذا من أهم صفات المحاور الناجح أن يكون عنده تثبت فيما ينقل إليه.

رابعًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بأمته وشفقته عليهم؛ حيث نهاهم عن التشديد علىٰ أنفسهم في العبادة؛ لأن المشدد لا يأمن الملل والانقطاع؛ بخلاف المقتصد فإنه أَمْكَنُ لاستمراره، وخير العمل ما داوم عليه صاحبه.

خامسًا: ما كان عليه الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ من الحرص علىٰ العبادة والاجتهاد في أمر الآخرة.

سادسًا: أنه ينبغي لداعية الحق والهدىٰ أن يحرص علىٰ إزالة ما قد يعرض من الشبهات؛ فإنه لما ظن أولئك الصحابة أن ما بلغهم عن رسول الله من العمل أنه بسبب مغفرة الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلا يحتاج إلىٰ كثرة عمل فأعلمهم النبي ﷺ أنه أخشاهم لله وأتقاهم له، ومع ذلك لم يدع النكاح ولا النوم ولا الفطر بل يقوم وينام ويصوم ويفطر ويتزوج النساء.

سابعًا: الوعيد الشديد في حق من تشدد وتنطع في العبادة وزاد علىٰ سنة رسول الله ﷺ حيث قال ﷺ: «**من رغب عن سنتي فليس مني**».

ثامنًا: أن رسول الله ﷺ كان يستخدم في حواراته طرح الأسئلة وأسلوب الترغيب والترهيب متىٰ احتاج المقام إلىٰ ذلك، وذلك من مقومات الحوار الناجح.

تاسعًا: الإشارة إلىٰ أن العلم بالله ومعرفة ما يجب من حقه أعظم قدرًا من مجرد العبادة البدنية. قاله الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الفتح» (٩/ ٨).

عاشرًا: أن العمل المخالف للشرع لا يبرره حسن قصد فاعله فهؤلاء الصحابة ما أرادوا إلا خيرًا ومع ذلك أنكر عليهم النبي ﷺ.

٣- عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال:

«خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «**أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا**».

فقال رجل: أكلَّ عام يا رسول الله؟

فسكت حتىٰ قالها ثلاثًا.

فقال رسول الله ﷺ: «**لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم!**».

ثم قال: «**ذروني ما تركتكم؛ فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم علىٰ أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه**»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: تغليظ النبي ﷺ القول علىٰ من شدد أو أراد أن يفتح بابًا للتشدد في العبادة، وهذا ملاحظ في الحوارات السابقة واللاحقة؛ فالنبي ﷺ يتصدىٰ لقضية الغلو والتشديد في العبادة بكل صرامة وحزم؛ حتىٰ إنه في هذا الحوار ينهىٰ عن كثرة الأسئلة فيما سكت عنه الشرع؛ لأن هذا كان من أسباب هلاك من كانوا قبلنا.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر برقم (١٣٣٧).

ثانيًا: يسر وسماحة الشريعة الإسلامية؛ حيث لم يفرض الحج إلا مرة في العمر على المستطيع.

ولأن النبي ﷺ قال: «**إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم**»، وهذا كقول الله تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، وكقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

ولذلك كانت القدرة مناط التكليف.

ثالثًا: ما كان عليه نبينا ﷺ من الفصاحة والبلاغة؛ فقد آتاه الله جوامع الكلم حيث قال هنا: «**إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم**» وهذا من قواعد الإسلام المهمة التي يدخل تحتها ما لا يحصى من الأحكام.

٤- عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال:

«قال لي رسول الله ﷺ غداة جمع: «**هلم الْقَطْ لي الحصى**».

فلقطت له حصيات من حصى الخذف.

فلما وضعها في يده قال: «**بأمثال هؤلاء، إياكم والغلو في الدين؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**»[(١)].

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: أن النبي ﷺ جاء بالوسطية والاعتدال.

ثانيًا: تحذير النبي ﷺ وتنفيره من الغلو، وإخباره أنه من أسباب الهلاك.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (١/ ٢١٥)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٤/ ٢٦٧)، والنسائي في «سننه» (٥/ ٢٦٨)، وصححه العلامة الألباني.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٨٩):
«وهذا عام في جميع الغلو في الاعتقادات والأعمال، وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمرات، وهذا داخل فيه مثل الرمي بالحجار الكبار بناءً علىٰ أنها أبلغ من الصغار، ثم علله بمقتضىٰ مجانبة هديهم إبعادًا عن الوقوع فيما هلكوا به، وأن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليهم من الهلاك». اهـ.

ثالثًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بأمته وشفقته عليهم؛ حيث حذرهم مما فيه هلاكهم وهو الغلو في الدين، وهذا يؤكد أن الدين الإسلامي دين السهولة واليسر في عقائده وأحكامه وآدابه.

رابعًا: حسن تعليم النبي ﷺ؛ حيث يقرن الحكم بعلته؛ ليكون ذلك أوقع في النفوس وأدعىٰ لقبول الأحكام، وليعلم أن هذه الشريعة جاءت بما يوافق العقول ويدعو إلىٰ إعمالها فالنبي ﷺ لما قال: «**إياكم والغلو في الدين**» علل ذلك بقوله: «**فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**».

٥- عن أبي مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال:

«قال رجل: يا رسول الله، إني لأتأخر عن الصلاة في الفجر مما يطيل بنا فلان فيها.

فغضب رسول الله ﷺ ما رأيته غضب في موضع كان أشد غضبًا منه يومئذٍ، ثم قال: «**يا أيها الناس، إن منكم منفرين، فمن أم الناس فليتجوز فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة**»(١).

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الأذان، باب: من شكا إمامه إذا طول برقم (٧٠٤)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الصلاة، باب: أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام برقم (٤٦٦).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: صرامة النبي ﷺ تجاه قضية الغلو في العبادة والتشدد فيها؛ فقد قام في الناس ووعظهم وهو غضبان غضبًا شديدًا ثم قال: «**أيها الناس إن منكم منفرين، فمن أم الناس فليتجوز فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة**».

ثانيًا: عدالة النبي ﷺ؛ حيث سمع الشكوىٰ في إمام من الأئمة من أحد المأمومين، ثم أنصفه من ذلك الإمام.

ثالثًا: أنه ينبغي للإنسان ألا ينفر الناس عن دين الله بقول أو فعل؛ لأن رسول الله ﷺ غضب غضبًا شديدًا لما حصل سبب التنفير.

رابعًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بأمته وشفقته عليهم وحسن رعايته لهم، وعظيم حرصه علىٰ تأليف قلوبهم وصرف المشقة عنهم.

خامسًا: خطاب الناس ونداؤهم في الموعظة بما تكرهه نفوسهم من المخالفة وإظهار ذلك القصد والإرشاد والتعليم والتبليغ من غير تخصيص بالذكر لفاعل المخالفة. قاله ابن الملقن رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الإعلام» (٢/ ٦٠٣).

سادسًا: حكمة النبي ﷺ؛ حيث كان يقوم في كل مقام بما يناسبه من شدة ولين؛ فقد غضب في هذا المقام وشدد النكير؛ لأن المقام يقتضي ذلك، ولم يكن ذلك لنفور هذا الرجل وحده بل ليكون تشريعًا عامًّا لجميع الأمة لئلا يحصل من أحد منهم ما يكون سببًا لتنفير الناس عن دين الله.

سابعًا: حسن تعليم النبي ﷺ؛ حيث أخرج الكلام مخرج العموم دون تعيين الفاعل، ثم خاطب الناس بأسلوب النداء شدًّا لانتباههم وتنبيهًا لهم علىٰ أهمية ما سيلقيه عليهم، ثم لما نهاهم عن الإطالة في الصلاة بين لهم علة ذلك وأنها قد تكون

سببًا للتنفير عن دين الله؛ لأن من وراء الإمام الكبير في السن، والضعيف بسبب مرض ونحوه، وذا الحاجة.

وهكذا ينبغي لمن حاور الناس أن يستعمل هذه الأسباب الناجحة التي تأخذ بالقلوب والألباب ويحصل بها المقصود.

٦- عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«دخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال: «**ما هذا الحبل؟**».

قالوا: هذا حبل لزينب فإذا فترت تعلقت.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا حلوه لِيُصَلِّ أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد**»[(١)].

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: الحث على الاقتصاد في العبادة، والنهي عن التعمق والأمر، بالإقبال عليها بنشاط، وأنه إذا فتر فليقعد حتى يذهب الفتور. قاله الإمام النووي في «شرح مسلم» (٥/ ٤٠٣).

وقد بوب الإمام البخاري لهذا الحديث في «صحيحه» بـ«باب: ما يكره من التشديد في العبادة».

ثانيًا: كمال شفقته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورأفته بأمته؛ لأنه أرشدهم إلى ما يصلحهم وهو ما يمكنهم الدوام عليه بلا مشقة ولا ضرر، فتكون النفس أنشط والقلب منشرحًا فتتم

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب التهجد، باب: ما يكره من التشديد في العبادة برقم (١١٥٠)، ومسلم في «صحيحه» كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره برقم (٧٨٤).

العبادة، بخلاف من تعاطىٰ من الأعمال ما يشق؛ فإنه بصدد أن يتركه أو بعضه أو يفعله بكلفة، وبغير انشراح القلب فيفوته خير عظيم.

وقد ذم الله ﷻ من اعتاد عبادة ثم أفرط فقال تعالىٰ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.

وقد ندم عبد الله بن عمرو بن العاص علىٰ تركه قبول رخصة رسول الله ﷺ في تخفيف العبادة ومجانبة التشديد. قاله الإمام النووي في «شرح مسلم» (٥/ ٤٠٢).

ثالثًا: حوارات نبوية فيها الوعيد الشديد والتحذير الأكيد من الغلو في الأحكام على الناس الذي يئول إلى استحلال دمائهم وأموالهم:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:

«بعث علي رضي الله عنه إلىٰ النبي ﷺ بذهيبة فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس الحنبلي ثم المجاشعي وعيينة بن بدر الفزاري وزيد الطائي ثم أحد بني نبهان وعلقمة بن علاثة العامري أحد بني كلاب، فغضبت قريش والأنصار قالوا: يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا.

قال: «**إنما أتألفهم**».

فأقبل رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناتئ الجبين كث اللحية محلوق فقال: اتق الله يا محمد.

فقال ﷺ: «**من يطع الله إذا عصيت؟! أيأمنني الله علىٰ أهل الأرض ولا تأمنوني؟!**».

فسأله رجل قتله – أحسبه خالد بن الوليد – فمنعه.

فلما ولىٰ قال: «**إن من ضئضئ هذا** -أو: في **عقب هذا**- **قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان؛ لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**»(١).

وفي رواية للبخاري ومسلم: «فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناشز الجبهة كث اللحية محلوق الرأس مشمر الإزار فقال: يا رسول الله، اتق الله.

فقال: «**ويلك! أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله؟!**».

ثم ولىٰ الرجل فقال خالد بن الوليد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟

فقال: «**لا، لعله أن يكون يصلي**».

قال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه.

فقال رسول الله ﷺ: «**إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم**».

قال: ثم نظر إليه وهو مقفٍّ فقال: «**إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطبًا لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**».

قال: أظنه قال: «**لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود**».

وهذا الحديث يتعلق بالخوارج الذين بالغوا في التعبد والتزهد علىٰ جهل، وقرءوا القرآن ولم يفهموا معانيه، وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ؛ فقد ظهروا في

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ برقم (٣٣٤٤)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم برقم (١٠٦٤).

خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في العراق، فأنكروا سيرة بعض أقارب عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فطعنوا على عثمان بذلك، وكان يقال لهم القراء لشدة اجتهادهم في التلاوة والعبادة، إلا أنهم كانوا يتأولون القرآن على غير المراد منه، ويستبدون برأيهم ويتنطعون في الزهد والخشوع وغير ذلك، فلما قتل عثمان قاتلوا مع علي واعتقدوا كفر عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن تابعه، واعتقدوا إمامة علي وكفر من قاتله.

ثم لما حصل بين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبين أهل الشام ما حصل واتفقوا على التحكيم كفروا عليًّا وأهل الشام، واعتزلوا جماعة المسلمين، وقتلوا عبد الله بن خباب أحد عمال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتركوا أهل الشرك، وخرجوا على المسلمين فقاتلهم علي بن أبي طالب، وتحقق به وبمن معه حديث النبي ﷺ وأنهم أولى الطائفتين بالحق.

ثم ظهروا بعد ذلك في العراق واليمامة وكفروا المسلمين، وعظم البلاء بهم، وتوسعوا في معتقداتهم الفاسدة فأبطلوا رجم المحصن وقطعوا يد السارق من الإبط، وأوجبوا الصلاة على الحائض في حال حيضها، وكفروا من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن كان قادرًا، وكفروا مرتكب الكبيرة وإن لم يكن مستحلًّا لها، وكفوا عن أموال أهل الذمة وعن التعرض لهم مطلقًا، وفتكوا فيمن ينسب إلى الإسلام بالقتل والسبي والنهب، ويكفيهم شرًّا أن علماء الإسلام اختلفوا في كفرهم، ولا زالت بقاياهم إلى اليوم وقى الله المسلمين شرهم.

وأما الدروس المستفادة من الحوار السابق فمن أهمها ما يلي:

أولًا: التحذير من الغلو في الديانة والتنطع في العبادة بالحمل على النفس فيما لم يأذن فيه الشرع، وقد وصف الشارع الشريعة بأنها سهلة سمحة، وإنما ندب إلى الشدة على الكفار وإلى الرأفة بالمؤمنين فعكس ذلك الخوارج. قاله الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في «الفتح» (١٢/ ٣١٥).

ثانيًا: في الحوار السابق علم من أعلام النبوة؛ حيث أخبر النبي ﷺ بما وقع قبل أن يقع، وذلك أن الخوارج لما حكموا بكفر من خالفهم استباحوا دماءهم وتركوا أهل الذمة فقالوا: نفي لهم بعهدهم، وتركوا قتال المشركين، واشتغلوا بقتال المسلمين، وهذا كله من آثار عبادة الجهال الذين لم تنشرح صدورهم بنور العلم ولم يتمسكوا بحبل وثيق من العلم، وكفىٰ أن رأسهم رد علىٰ رسول الله ﷺ أمره ونسبه إلىٰ الجور، نسأل الله السلامة.

وانظر: «الفتح» لابن الحجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢/ ٣١٤).

ثالثًا: عظيم حلم النبي ﷺ علىٰ من جهل عليه؛ فإنه لم يعاقب هذا الرجل وقد اتهمه بالجور بل منع خالد بن الوليد من قتله مع قدرته علىٰ ذلك.

رابعًا: أن الشريعة السمحة التي بعث بها النبي ﷺ تجري الأحكام علىٰ الظواهر والله يتولىٰ السرائر؛ فإن خالد بن الوليد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما أراد قتل هذا الرجل قال له النبي ﷺ: «**لا لعله أن يكون يصلي**». قال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه. فقال له رسول الله ﷺ: «**إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أشق عن بطونهم**».

والخوارج عكسوا هذا الأصل الأصيل من دين الإسلام؛ فكفروا المسلمين واستحلوا دماءهم وأموالهم بالظنون الكاذبة التي حملهم عليها غلوهم وتنطعهم وجهلهم.

خامسًا: أن الغلو والتنطع في الأحكام قد يئول إلىٰ استحلال الدماء والأموال وقد حصل.

سادسًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بأمته وكمال شفقته عليهم؛ حيث حذرهم من هؤلاء الخوارج وندبهم إلىٰ قتالهم دفعًا لشرهم وإزالة لضررهم.

سابعًا: خطورة التعبد لله علىٰ جهل.

ثامنًا: أن من أعظم أسباب سوء الخلق فساد المعتقد؛ فإن هؤلاء الخوارج لما فسدت عقيدتهم ساءت أخلاقهم حتىٰ بلغ بهم الأمر إلىٰ تكفير المسلمين وسفك دمائهم بل كفروا خيار الأمة وهم أصحاب رسول الله ﷺ.

رابعًا: حوارات نبوية تدعو إلى التوسط في معاملة الحكام وترشد إلى اتخاذ الموقف الصحيح منهم:

١- عن وائل الحضرمي رضي الله عنه قال:

«سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا فما تأمرنا؟

فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم سأله في الثانية أو في الثالثة فجذبه الأشعث بن قيس وقال: **«اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم»**[(١)].

٢- عن أسيد بن حضير رضي الله عنه:

«أن رجلًا من الأنصار أتىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله استعملت فلانًا ولم تستعملني.

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الإمارة باب في طاعة الأمراء وإن منعوا الحقوق برقم (١٨٤٦).

فقال ﷺ: «**إنكم ستلقون بعدي أثرة؛ فاصبروا حتىٰ تلقوني**»(١).

ومن الدروس المستفادة من الحوارين السابقين ما يلي:

أولًا: أن الواجب عند مطالبة ولاة الأمور بحقوقهم ومنعهم حقوق شعوبهم واستئثارهم بالمال والأعمال الصبر عليهم والسمع والطاعة لهم بالمعروف، وليس الخروج عليهم، ولا التحريض، وإثارة العوام وتحريك الشوارع، وشن الحملات الصحفية تحت شعار المطالبة بالحقوق العامة، وليس غرض المحركين لأولئك الغوغاء إلا الوصول إلىٰ منصب أو مال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ **في منهاج السنة (٤/ ٥٤٠)**: «وكثير ممن خرج علىٰ ولاة الأمور أو أكثرهم إنما خرج لينازعهم مع استئثارهم عليه ولم يصبروا علىٰ الاستئثار، ثم إنه يكون لولي الأمر ذنوب أخرىٰ فيبقىٰ بغضه لاستئثاره يعظم تلك السيئات، ويبقىٰ المقاتل له ظانًّا أنه يقاتله لئلا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، ومن أعظم ما حركه عليه طلب غرضه إما ولاية وإما مال، فإذا اتفق من هذه الجهة شبهة وشهوة ومن هذه الجهة شهوة وشبهة قامت الفتنة». اهـ باختصار.

ثانيًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بأمته وكمال شفقته عليهم؛ حيث أمرهم بالصبر علىٰ استئثار الولاة، ونهىٰ عن مقاتلتهم ومنازعتهم «لأن الفساد الناشئ من القتال في الفتنة أعظم من فساد ظلم ولاة الأمر فلا يزال أخف الفسادين بأعظمهما.

ومن تدبر الكتاب والسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ واعتبر ذلك بما يجده في

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الفتن، باب: قول النبي ﷺ: «سترون بعدي أمورًا تنكرونها» برقم (٧٠٥٧)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الإمارة، باب: الأمر بالصبر عند ظلم الولاة واستئثارهم برقم (١٨٤٥).

نفسه وفي الآفاق علم تحقيق قول الله تعالىٰ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، فإن الله تعالىٰ يري عباده آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبين لهم أن القرآن حق فخبره صدق وأمره عدل، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٥]»[(١)].

ثالثًا: حسن خلق النبي ﷺ؛ حيث لم يزجر السائل في الحوار الأول لما كره مسألته بل أعرض عنه حتىٰ كررها ثلاثًا فأجابه.

رابعًا: أن للولاة علىٰ الرعية حقًّا، وللرعية علىٰ الولاة حقًّا، والشارع أمر كل إنسان بما هو المصلحة له وللمسلمين، فأمر الولاة بالعدل والنصح لرعيتهم حتىٰ قال: «**ما من راع يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة**». أخرجه مسلم في «صحيحه» عن معقل بن يسار.

وأمر الرعية بالسمع والطاعة لهم بالمعروف، والصبر علىٰ استئثارهم والتضرع إلىٰ الله بإصلاحهم ودفع شرهم، ونهىٰ عن مقاتلتهم ومنازعتهم.

خامسًا: تواضع النبي ﷺ؛ حيث كان يجالس أصحابه ويجيب علىٰ أسئلتهم.

٣- عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم**».

قالوا: قلنا: يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك؟

(١) «منهاج السنة النبوية» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ٥٤٢-٥٤٣).

قال: «**لا ما أقاموا فيكم الصلاة، لا ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من ولي عليه والٍ فرآه يأتي شيئًا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يدًا من طاعة**»(١).

٤- عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت:

قال رسول الله ﷺ: «**إنه يُستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون؛ فمن كره فقد برئ؛ ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع.**

قالوا: يا رسول الله ألا نقاتلهم؟

قال: «**لا ما صلوا**»(٢).

ومن الدروس المستفادة من هذين الحوارين ما يلي:

أولًا: في الحوارين عَلَم من أعلام النبوة؛ حيث أخبر نبينا ﷺ بما سيقع فوقع كما أخبر، فعمل أناس بما أرشد إليه النبي ﷺ فسلموا في دينهم ودنياهم، ولم يصبر آخرون وخالفوا ما أرشد إليه النبي ﷺ فهلكوا وأهلكوا، وجلبوا علىٰ الناس شرًّا أعظم مما أرادوا بجهلهم وعاطفتهم دفعه.

وهذا يدل علىٰ عالمية رسالة نبينا ﷺ وأن الدين الذي جاء به قادر علىٰ حل مشكلات العالم كلها ما كان منها وما يكون؛ فالحمد لله الذي جعلنا من أهله، ونسأله سبحانه أن يثبتنا عليه حتىٰ نلقاه.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الإمارة، باب: خيار الأئمة وشرارهم برقم (١٨٥٥).
(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الإمارة، باب: وجوب الإنكار علىٰ الأمراء فيما يخالف الشرع وترك قتالهم ما صلوا برقم (١٨٥٥).

ثانيًا: أن الواجب عند صدور المعاصي والمنكرات من ولاة الأمور إنكارها وكراهتها -كما دلت عليه الشريعة- دون منازعتهم أو الخروج عليهم ما أقاموا في الناس الصلاة.

ثالثًا: في الحوارين السابقين دلالة لقاعدة المصالح والمفاسد وهي من أعظم القواعد الشرعية؛ فالضر لا يُزال بضر أعظم منه.

رابعًا: كمال رحمة النبي ﷺ بأمته؛ حيث أرشدهم إلىٰ ما ينفعهم وحذرهم مما يضرهم، وكم جرَّ أناس علىٰ أنفسهم وعلىٰ غيرهم من الشر بسبب مخالفتهم لما أرشدهم إليه مَن بُعث رحمة للعالمين «فقل من خرج علىٰ إمام ذي سلطان إلا كان ما تولد علىٰ فعله من الشر أعظم مما تولد من الخير، كالذين خرجوا علىٰ يزيد بالمدينة، وكابن الأشعث الذي خرج علىٰ عبد الملك بالعراق، وكابن المهلب الذي خرج علىٰ ابنه بخراسان، وكأبي مسلم صاحب الدعوة الذي خرج عليهم بخراسان أيضًا، وكالذين خرجوا علىٰ المنصور بالمدينة والبصرة وأمثال هؤلاء.

وغاية هؤلاء إما أن يُغلبوا وإما أن يَغلبوا ثم يزول ملكهم؛ فلا يكون لهم عاقبة؛ فإن عبد الله بن علي وأبا مسلم هما اللذان قتلا خلقًا كثيرًا، وكلاهما قتله أبو جعفر المنصور.

وأما أهل الحرة وابن الأشعث وابن المهلب وغيرهم فهزموا وهزم أصحابهم فلا أقاموا دينًا ولا أبقوا دنيا.

والله تعالىٰ لا يأمر بأمرٍ لا يحصل به صلاح الدين ولا صلاح الدنيا، وإن كان فاعل ذلك من أولياء الله المتقين ومن أهل الجنة؛ فليسوا أفضل من علي وعائشة وطلحة والزبير وغيرهم، ومع هذا لم يحمدوا ما فعلوه من القتال وهم أعظم قدرًا عند الله وأحسن نية من غيرهم.

وكذلك أهل الحرة كان فيهم من أهل العلم والدين خلق، وكذلك أصحاب ابن الأشعث كان فيهم خلق من أهل العلم والدين والله يغفر لهم كلهم.

وقد قيل للشعبي في فتنة ابن الأشعث: أين كنت يا عامر؟ قال: كنت حيث يقول الشاعر:

عوىٰ الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوىٰ وصَوَّتَ إنسان فكدت أطير

أصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء.

وكان الحسن البصري يقول: إن الحجاج عذاب الله فلا تدفعوا عذاب الله بأيديكم، ولكن عليكم بالاستكانة والتضرع؛ فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون: ٧٦].

وكان أفاضل المسلمين ينهون عن الخروج والقتال في الفتنة كما كان عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وعلي بن الحسين وغيرهم ينهون عام الحرة عن الخروج علىٰ يزيد، وكما كان الحسن البصري ومجاهد وغيرهما ينهون عن الخروج في فتنة ابن الأشعث.

ولهذا استقر أمر أهل السنة علىٰ ترك القتال في الفتنة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم، ويأمرون بالصبر علىٰ جور الأئمة وترك قتالهم، وإن كان قد قاتل في الفتنة خلق كثير من أهل العلم والدين»(١).

وإنما توسعت في الكلام في هذا المقام نصحًا للناس؛ فالتاريخ يعيد نفسه ودعاة الفتنة يتهافتون عليهم تهافت الفراش علىٰ النار، ويرمون من ذَكَّرَهم بالدواء

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٤/ ٥٢٧-٥٣٠).

النبوي بالجبن والعمالة والرضا بالفساد، وحاشىٰ وكلا ليس إلا العض علىٰ سنة رسول الله بالنواجذ، والحرص علىٰ سلامة دماء الناس وأموالهم والحفاظ علىٰ أمنهم؛ لأنه قد يحصل من فوضىٰ ساعة ما لم يحصل في ظلم سنة، والصبر علىٰ ظالم غشوم خير من فتنة تدوم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

خامسًا: أن بغض الناس للولاة ولعنهم لهم والعكس لا يسوغ الخروج عليهم ومنازعتهم ما داموا مسلمين، وحتىٰ لو كانوا غير مسلمين لابد في الخروج عليهم من القدرة.

سادسًا: أن الأمور المهمة تحتاج إلىٰ توكيد ليهتم بها فقد كرر النبي ﷺ قوله: «**لا ما أقاموا فيكم الصلاة**» مرتين. وهذا من فنون الحوار.

سابعًا: أنه لا يجب قبول كل ما صدر من ولاة الأمور بل ما كان مخالفًا للشرع يجب كراهته وإنكاره وعدم الرضا به، بدون منازعة أو خروج؛ لقول النبي ﷺ: «**ألا من ولي عليه والٍ فرآه يأتي شيئًا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يدًا من طاعة**».

ثامنًا: حسن خلق النبي ﷺ حيث كان صدره يتسع لأسئلة أصحابه واستفساراتهم عما أشكل عليهم من كلامه.

تاسعًا: إن إنكار المنكر إذا ترتب عليه ما هو أنكر منه كان ترك الإنكار واجبًا.

قال العلامة ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٣/ ٦-٧): «النبي ﷺ شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر؛ ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله، فإذا كان الإنكار يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلىٰ الله ورسوله؛ فإنه لا يسوغ إنكاره وإن كان

الله يبغضه ويمقت أهله، وهذا كالإنكار علىٰ الملوك والولاة بالخروج عليهم فإنه أساس كل شر وفتنة إلىٰ آخر الدهر.

وقد استأذن الصحابة رسول الله في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها وقالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: «**لا، ما أقاموا الصلاة**».

وقال: «**من رأىٰ من أميره ما يكره فليصبر ولا ينزعنَّ يدًا من طاعة**».

ومن تأمل ما جرىٰ علىٰ الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر علىٰ منكر فطلب إزالته، فتولد منه ما هو أكبر منه؛ فقد كان رسول الله ﷺ يرىٰ بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها، بل لما فتح الله مكة وصارت دار إسلام عزم علىٰ تغيير البيت وردِّه علىٰ قواعد إبراهيم ومنعه من ذلك مع قدرته عليه خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك؛ لقرب عهدهم بالإسلام، وكونهم حديثي عهد بكفر؛ ولهذا لم يأذن في الإنكار علىٰ الأمراء باليد لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه كما وجد سواء». اهـ.

عاشرًا: أن الدين الإسلامي دين متكامل يشمل جميع جوانب الحياة الدينية والدنيوية من المسجد إلىٰ كرسي الحكم إلىٰ السوق والشارع، وهذا يستفاد من جميع الحوارات في هذا الكتاب عامة وفي هذا الباب خاصة.

٥- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال:

قال رسول الله ﷺ لكعب بن عجرة: «**أعاذك الله من إمارة السفهاء**».

قال: وما إمارة السفهاء؟

قال: «**أمراء يكونون بعدي لا يقتدون بهديي ولا يستنون بسنتي، فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم علىٰ ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولست منهم، ولا يردون علىٰ**

حوضي، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم علىٰ ظلمهم فأولئك مني وأنا منهم وسيردون علىٰ حوضي»[(١)].

ومما يستفاد من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بأمته وكمال نصحه لهم؛ حيث حذرهم مما يضرهم قبل وقوعه، وأرشدهم إلىٰ الموقف الصحيح من الفتن التي سيواجهونها.

ثانيًا: في الحوار السابق عَلَم من أعلام نبوة نبينا ﷺ حيث وقع ما أخبر به قبل أن يقع كما أخبر.

ثالثًا: أن الواجب علىٰ المسلم عند ظهور هؤلاء الأمراء المذكورين في الحوار السابق ألا يصدقهم بكذبهم وألا يعينهم علىٰ ظلمهم، دون منازعتهم أو الخروج عليهم.

رابعًا: أن من فنون الحوار وعلامات المحاور الناجح استخدام الترغيب والترهيب إن كان المقام يستدعي ذلك فالنبي ﷺ قال: «**فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم علىٰ ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولست منهم ولا يردون علىٰ حوضي...**» إلخ.

خامسًا: أن من فنون الحوار استخدام بعض الأساليب البلاغية، ومنها النشر بعد اللف، أو التفصيل بعد الإجمال؛ لأن في ذلك تشويقًا للسامع لمعرفة ما ذكر فإن النبي ﷺ قال أولًا لكعب بن عجرة: «**أعاذك الله من إمارة السفهاء**» مما جعل كعبًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يشتاق لمعرفة ذلك تفصيلًا؛ فجاءه الجواب من النبي ﷺ وهو مشتاق إليه ومنتبه له.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٢١).

٦- عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلًا من الأنصار وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فأغضبوه في شيء.

فقال: «اجمعوا لي حطبًا». فجمعوا له.

ثم قال: أوقدوا نارًا فأوقدوا.

ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتطيعوا؟

قالوا: بلىٰ.

قال: فادخلوها.

قال: فنظر بعضهم إلىٰ بعض فقالوا: إنما فررنا إلىٰ رسول الله ﷺ من النار.

فكانوا كذلك وسكن غضبه وطفئت النار.

فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «**لو دخلوها ما خرجوا منها! إنما الطاعة في المعروف**»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: أن طاعة ولاة الأمور ليست مطلقةً، ولكنها في حدود الشرع فإن أمروا بمعصية الله فلا سمع لهم ولا طاعة في ذلك الأمر؛ لأن النبي ﷺ قال في تلك السرية

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الأحكام، باب: السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية برقم (٧١٤٥)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية برقم (١٨٤٠).

التي أمرهم أميرهم بدخول النار: «**لو دخلوها ما خرجوا منها! إنما الطاعة بالمعروف**».

ثانيًا: بلاغة النبي ﷺ حيث قال: «**إنما الطاعة بالمعروف**»، وهذا لفظ موجز يدخل تحته أفراد كثيرة جدًّا.

ثالثًا: كمال رحمة النبي ﷺ بأمته؛ حيث بين لهم أنه إنما يجب عليهم أن يطيعوا أمراءهم في طاعة الله، فإن أمروهم بمعصية لم تجب عليهم طاعتهم فيها.

رابعًا: أن مَن كان صادق النية لا يقع إلا في خير ولو قصد الشر، فإن الله يصرفه عنه، ولهذا قال بعض أهل المعرفة: «من صدق مع الله وقاه الله، ومن توكل علىٰ الله كفاه الله». قاله الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الفتح» (٧/ ٦٥٧).

حوار يعالج مشكلات عالمية منها تفشي الأمراض الفتاكة كالإيدز، ومنها القحط والجدب:

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال:

«جاء فتىٰ من الأنصار فسلم علىٰ رسول الله ﷺ ثم جلس فقال: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضل؟

قال: «**أحسنهم خلقًا**».

قال: فأي المؤمنين أكيس؟

قال: «**أكثرهم للموت ذكرًا، وأحسنهم له استعدادًا قبل أن ينزل بهم أولئك من الأكياس**».

ثم سكت الفتىٰ وأقبل عليه النبي ﷺ فقال: «**يا معشر المهاجرين، خمس إن ابتليتم بهن نزلن فيكم أعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتىٰ يعملوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا الزكاة إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدوهم من غيرهم وأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله إلا ألقىٰ الله بأسهم بينهم**»(١).

ومن الحوار السابق نستفيد ما يلي:

أولًا: في الحديث علم من أعلام النبوة لنبينا ﷺ؛ حيث أخبر عن هذه الأشياء فوقعت كما أخبر، وهذا يدل علىٰ صدقه، وأنه مرسل من عند الله ونظائر هذا كثيرة جدًّا.

ثانيًا: أن أعظم علاج للأمراض المستعصية كالطاعون والإيدز والزهري والهربس وغيرها هو الإقلاع عن الفواحش ومنها الزنا واللواط والشذوذ الجنسي، وعن المجاهرة بها فضلًا عن الترويج لها والدعوة إليها، وسن القوانين التي تحمي أهلها، كما هو حاصل في كثير من الدول تحت مسمىٰ الحرية والإباحية.

وصدق الله وصدق رسوله ﷺ ظهرت الفواحش وجاهر بها أهلها وجندوا وسائل الإعلام للدعوة إليها فأنزل الله بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، وسلط عليهم هذه الأمراض الفتاكة التي تحصدهم حصدًا جماعيًّا، وقد عجزوا عن

---

(١) أخرجه ابن ماجة في «سننه» برقم (٤٠١٩)، والحاكم في «مستدركه» برقم (٨٦٦٧)، وحسنه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ.

علاج هذه الأمراض مع ما بلغوا من التقدم العلمي، ولكنهم في غفلة عن الأسباب الحقيقية لهذه الأمراض وطرق الوقاية منها: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣﴾ [هود: ١٠٢-١٠٣].

ثالثًا: أن القحط والجدب عقوبة من الله سببها منع الزكاة، ولو أن الناس أدوا الزكاة الشرعية وصرفوها علىٰ مستحقيها لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض.

رابعًا: أن الغلاء ومحق البركات وظلم الحكام للشعوب عقوبة من الله سببها التطفيف في الكيل والوزن والغش في المعاملات، وعلاج ذلك إيفاء الكيل والوزن وترك الغش.

خامسًا: أن الثورات والانقلابات والإضرابات والفتن التي تثور بين الحكام والشعوب عقوبة من الله سببها ترك الحكم بما أنزل الله وتحكيم القوانين الوضعية والأسلاف والأعراف، وعلاج ذلك تحكيم شرع الله بين عباده فإن شريعة الله نور الله في أرضه وعدله بين عباده، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٠].

سادسًا: عظيم رحمة النبي ﷺ بأمته وكمال شفقته بهم؛ حيث ذكر لهم الداء والدواء، وحذرهم من الوقوع فيما يجلب عليهم عقوبة الله وبطشه.

حوارات نبوية تتعلق بالمعاملات المالية تتجلى فيها محاسن الشريعة الإسلامية التي بعث بها نبينا محمد ﷺ:

١- عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«غزوت مع رسول الله ﷺ فتلاحق بي وتحتي ناضح لي قد أعيا ولا يكاد يسير قال فقال لي: «**ما لبعيرك؟**».

قلت: عليل.

فتخلف رسول الله ﷺ فزجره ودعا له، فما زال بين يدي الإبل قدامها يسير.

فقال لي: «**كيف ترىٰ بعيرك؟**».

قلت: بخير قد أصابته بركتك.

قال: «**أفتبيعنيه؟**».

فاستحييت ولم يكن لنا ناضح غيره، فقلت: نعم. فبعته إياه علىٰ أن لي فقارَ ظهره حتىٰ أبلغ المدينة.

فقلت له: يا رسول الله إني عروس، فاستأذنته فأذن لي فتقدمت الناس إلىٰ المدينة حتىٰ انتهيت فلقيني خالي فسألني عن البعير فأخبرته بما صنعت فيه فلامني فيه.

وقد كان رسول الله ﷺ قال لي حين استأذنته: «**ما تزوجت؟ أبكرًا أم ثيبًا؟**».

فقلت له: تزوجت ثيبًا.

قال: «**أفلا تزوجت بكرًا تلاعبك وتلاعبها؟**».

فقلت له: يا رسول الله، توفي والدي أو استشهد ولي أخوات صغار فكرهت أن

أتزوج إليهن مثلهن فلا تؤدبهن ولا تقوم عليهن؛ فتزوجت ثيبًا لتقوم عليهن وتؤدبهن.

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة غدوت إليه بالبعير فأعطاني ثمنه ورده علي»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عظيم تواضع النبي ﷺ وذلك من وجوه:

أ- مباشرته ﷺ المماكسة والشراء بنفسه.

ب- سؤال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن بعيره وسبب تأخره.

ج- تخلفه ﷺ ليزجر جمل جابر ويدعو له.

د- ملاطفته لجابر بن عبد الله وسؤال له عمن تزوج، فلما أخبره أنه تزوج ثيبًا قال له: «**أفلا تزوجت بكرًا تلاعبك وتلاعبها؟**».

ثانيًا: عظيم كرمه ﷺ؛ حيث اشترىٰ من جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جمله ثم نقده الثمن ورد عليه الجمل.

ثالثًا: في الحديث دلالة من دلائل نبوته ﷺ؛ حيث كان جمل جابر قد أعيا ولا يكاد يسير، فلما زجره النبي ﷺ ودعا له صلح حاله، وكان يسير قدام سائر الإبل أحسن مما كان عليه من قبل.

رابعًا: أنه إذا تزاحمت مصلحتان قُدِّم أهمهما؛ لأن جابرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أخبر النبي ﷺ أنه تزوج ثيبًا لأجل مصلحة أخواته وآثرهن علىٰ مصلحة نفسه في الزواج بالبكر،

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الجهاد والسير برقم (٢٩٦٧)، ومسلم في «صحيحه» كتاب المساقاة والمزارعة، باب: بيع البعير واستثناء ركوبه برقم (١٥٩٩).

أقره النبي ﷺ علىٰ ذلك وصوب فعله، كما في بعض الروايات الأخرىٰ ودعا له، وفي هذا كله فضيلة لجابر رضي الله عنه.

خامسًا: نصح النبي ﷺ لجابر لما أخبره أنه تزوج ثيبًا: «**أفلا تزوجت بكرًا تلاعبك وتلاعبها**».

سادسًا: جواز بيع وشرط، وأن ذلك لا ينافي مقتضىٰ العقد لإقرار النبي ﷺ لجابر رضي الله عنه.

سابعًا: جواز اشتراط البائع الانتفاع بالمبيع مدة معلومة لإقرار النبي ﷺ لجابر رضي الله عنه.

ثامنًا: تفقد الأمير والكبير والعالم أحوال أصحابه وسؤاله عن أحوالهم وإعانتهم عليها بما تيسر من حال أو مال في السفر والحضر. قاله ابن الملقن رحمه الله في الإعلام (٧/ ٢٨٦).

٢- عن عائشة رضي الله عنها قالت:

«ابتاع رسول الله ﷺ من رجلٍ من الأعراب جزورًا أو جزائر بوسق من تمر الذخرة -وتمر الذخرة هو العجوة- فرجع به رسول الله ﷺ إلىٰ بيته فالتمس له التمر فلم يجده.

فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال له: «**يا عبد الله، إنَّا قد ابتعنا منك جزورًا أو جزائر بوسق من تمر الذخرة فالتمسناه فلم نجده**».

فقال الأعرابي: وا غُدَراه.

فنهمه الناس وقالوا: قاتلك الله أيغدر رسول الله ﷺ؟!

فقال رسول الله ﷺ: «**دعوه فإن لصاحب الحق مقالًا**».

ثم عاد له رسول الله فقال: يا عبد الله، إنا ابتعنا منك جزائرك ونحن نظن أن عندنا ما سمَّيناه لك فالتمسناه فلم نجده.

فقال الأعرابي: وا غُدَراه.

فنهمه الناس وقالوا: قاتلك الله أيغدر رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: «**دعوه فإن لصاحب الحق مقالًا**».

فردَّد رسول الله ﷺ مرتين أو ثلاثًا.

فلما رآه لا يفقه عنه قال لرجلٍ من أصحابه: «**اذهب إلىٰ خويلة بنت حكيم بن أمية فقل لها: رسول الله يقول لك إن كان عندكِ وسقٌ من تمر الذخرة فأسلفيناه حتىٰ نؤديه إليك إن شاء الله**».

فذهب إليها الرجل ثم رجع فقال: قالت: نعم هو عندي يا رسول الله فابعث من يقبضه.

فقال الرسول ﷺ للرجل: «**اذهب به فأوفه الذي له**».

فذهب به فأوفاه الذي له.

فمر الأعرابي برسول الله ﷺ وهو جالس في أصحابه فقال: جزاك الله خيرًا قد أوفيت وأطيبت.

فقال رسول الله ﷺ: «**أولئك خيار عباد الله يوم القيامة الموفون المطيبون**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٢٦٩)، والحاكم في «مستدركه» (٢ / ٣٢).

٣- عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال:

«كان لرجل علىٰ رسول الله ﷺ جملٌ، فجاء يتقاضاه فأغلظ له فهم به أصحاب رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: «**دعوه فإن لصاحب الحق مقالًا، واشتروا له بعيرًا فأعطوه إياه**».

فقالوا: إنا لا نجد إلا سنًّا فوقها.

قال: «**أعطوه**».

قال الرجل: أوفيتني أوفىٰ الله بك.

فقال رسول الله ﷺ: «**إن خياركم أحسنكم قضاءً**»(١).

ومن الدروس المستفادة من الحوارين السابقين:

أولًا: عظيم حلم النبي ﷺ وحسن خلقه، حيث لم ينتقم لنفسه ممن أساءوا إليه مع قدرته علىٰ ذلك بل قال: «**دعوه فإن لصاحب الحق مقالًا**».

ثانيًا: إنصاف النبي ﷺ حيث أمر بإعطاء صاحب الحق دون التفات إلىٰ إساءته.

ثالثًا: تواضع النبي ﷺ وذلك من وجوه:

أ- مباشرته الشراء والاقتراض بنفسه.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الوكالة، باب: وكالة الشاهد والغائب جائزة برقم (٢٣٠٥)، ومسلم في «صحيحه» كتاب المساقاة والمزارعة، باب: من استلف شيئًا فقضىٰ خيرًا منه برقم (١٦٠١).

ب- اقتراضه من امرأة من نساء أصحابه.

ج- اعتذاره للأعرابي عند أن لم يجد التمر في بيته.

د- جلوسه بين أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

رابعًا: ما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قلة ذات اليد، ولولا ذلك ما اقترض.

خامسًا: كرمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجوده؛ حيث أعطىٰ أكثر من الدين الذي عليه وندب أمته إلىٰ ذلك فقال: «**إن خياركم أحسنكم قضاءً**».

سادسًا: جواز رد الدين بأكثر منه إذا لم يكن مشروطًا عند الدين؛ لأنه إذا كان مشروطًا كان ربًا محرمًا.

سابعًا: مشروعية الوكالة؛ حيث وكل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من يستدين له ويقبض ذلك ومن يشتري له ويسدد عنه.

ثامنًا: أثر الإحسان إلىٰ الناس والصبر علىٰ أذاهم؛ فإن الأعرابي في الحوار الأول لما أخذ حقه مر بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو جالس في أصحابه فقال: «**جزاك الله خيرًا فقد أوفيت وأطيبت**».

والرجل في الحوار الثاني قال لما أخذ فوق حقه: «**أوفيتني أوفىٰ الله بك**».

وعليه؛ فإن من صفات المحاور الناجح ألا يقابل إساءة غيره بالمثل، بل يعفو ويصفح ويصبر ويحسن؛ فإن لذلك أثرًا إيجابيًّا عظيمًا كما هو ظاهر في الحوارين السابقين هذا مع بقية الصفات السابقة.

٤- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«أن رسول الله ﷺ استعمل رجلًا علىٰ خيبر فجاءه بتمر جنيب.

فقال له رسول الله ﷺ: «أكل تمر خيبر هكذا؟».

فقال: لا والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بالثلاثة.

فقال رسول الله ﷺ: **«فلا تفعل، بِعِ الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيبًا»**(١).

٥- عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«جاء بلال بتمر برني فقال له رسول الله ﷺ: **«من أين هذا؟»**.

فقال بلال: تمر كان عندنا رديء فبعت منه صاعين بصاع لنطعم رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله عند ذلك: **«أوه! عين الربا، لا تفعل! ولكن إذا أردت أن تشتري التمر فبعه ببيع آخر ثم اشتر به»**(٢).

ومن الدروس المستفادة من الحوارين السابقين ما يلي:

أولًا: تحريم ربا الفضل، وهذا من محاسن الشريعة الإسلامية؛ فإن الربا قد دمر الشعوب وأفسد الاقتصاد.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب البيوع، باب: إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه برقم (٢٢٠٢)، ومسلم في «صحيحه» كتاب المساقاة والمزارعة، باب: بيع الطعام مثلًا بمثل برقم (١٥٩٣).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الوكالة، باب: إذا باع الوكيل شيئًا فاسدًا فبيعه مردود برقم (٢٣١٢)، ومسلم في «صحيحه» كتاب المساقاة والمزارعة، باب: بيع الطعام مثلًا بمثل برقم (١٥٩٤).

ثانيًا: حكمة النبي ﷺ وحسن تعليمه؛ حيث أغلق الباب الممنوع وفتح بديلًا مشروعًا؛ حيث قال لمن قال له: إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بالثلاثة: «**لا تفعل! بِعِ الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيبًا**».

ثالثًا: أن حسن القصد وسلامة النية لا يبرر الخطأ؛ فإن بلالًا فعل ما فعل جهلًا منه بالحكم وأراد أن يطعم النبي ﷺ تمرًا جيدًا فلم يقره رسول الله ﷺ علىٰ ذلك، بل نهاه وأرشده إلىٰ المعاملة الصحيحة.

رابعًا: أن الشريعة الإسلامية التي بعث بها نبينا محمد ﷺ جاءت بأمثل الطرق في العبادات والمعاملات وغيرها؛ فهي مبنية علىٰ العدل والرحمة ومراعاة الفرد والمجتمع.

خامسًا: رحمة النبي ﷺ حيث قال لبلال رضي الله عنه: «**أوَّه**». وهي كلمة توجع وتحزن في لغة العرب، وهذا يدل علىٰ كمال شفقته ﷺ، وصدق الله إذ يقول: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

٦- عن أبي هريرة رضي الله عنه:

«أن رسول الله ﷺ مر علىٰ صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال: «**ما هذا يا صاحب الطعام؟**».

قال: أصابته السماء يا رسول الله.

قال: «**أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غش فليس مني**»(١).

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب: قول النبي ﷺ: «**من غشنا فليس منا**» برقم (١٠٢).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: تحريم النبي ﷺ للغش في المعاملات وبراءته من فاعله حيث قال: «**من غش فليس مني**».

ثانيًا: كمال الشريعة الإسلامية التي بعث بها النبي ﷺ ورعايتها لمصالح الناس؛ حيث حرمت الغش الذي يقدم عليه أهله بدافع الجشع والطمع وخداع الناس وأكل أموالهم بالباطل.

ثالثًا: حسن رعاية النبي ﷺ لأمته، وتفقده لأحوالهم وأسواقهم، ونهيهم عما يضرهم.

رابعًا: تواضع النبي ﷺ؛ حيث كان يسير في السوق ويباشر فحص الأمور بنفسه ويخاطب عامة الناس مباشرة.

خامسًا: التثبت والسؤال قبل الإنكار لاسيما في الأمور المحتملة؛ فإن النبي ﷺ لما أدخل يده في الطعام فنالت أصابعه بللًا، لم يبادر بالإنكار حتىٰ سأل صاحب الطعام عن ذلك لاحتمال أن يكون غير عالم بذلك ونحو ذلك، فلما علم أنه يعلم أنكر عليه ذلك.

٧- عن ابن عباس رضي الله عنهما:

«أن رجلًا أهدىٰ لرسول الله ﷺ راوية خمر فقال له رسول الله ﷺ: «**هل علمت أن الله قد حرمها؟**».

قال: لا. فسار إنسانًا.

فقال له رسول الله ﷺ: «**بم ساررته؟**».

فقال: أمرته ببيعها.

فقال: «**إن الذي حرم شربها حرم بيعها**».

ففتح المزاد حتىٰ ذهب ما فيها»(١).

ومما يستفاد من هذا الحوار القصير ما يلي:

أولًا: حسن خلق النبي ﷺ؛ حيث لم يبادر الرجل بالزجر والإنكار حيث أهدىٰ له الخمر بل سأله:

أولًا: «**هل علمت أن الله قد حرمها؟**».

ثانيًا: رفقه ﷺ بالجاهل وحسن تعليمه له؛ فقد أخرج الحكم والبيان مخرج السؤال والاستفهام؛ فإنه ﷺ لم يقل لهذا الرجل: إن الله قد حرم الخمر، ولكنه قال له: هل علمت أن الله قد حرمها.

ثم لما أراد الرجل بيعها قال له: «**إن الذي حرم شربها حرم بيعها**». فما كان من الرجل إلا أن بادر بإراقتها.

ثالثًا: تواضع النبي ﷺ؛ حيث كان يقبل أن يُهدىٰ إليه سواء كان يعرف المهدي أو لا يعرفه، حتىٰ إنه ﷺ قبل هدية امرأة يهودية، وكان من خلقه ﷺ قبول الهدية والإثابة عليها.

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب المساقاة والمزارعة، باب: تحريم بيع الخمر برقم (١٥٧٩).

رابعًا: كمال الشريعة الإسلامية وعظمة أحكامها؛ حيث حرمت الخمر لما فيها من أضرار علىٰ الأفراد والمجتمعات.

خامسًا: سدُّ الشريعة الإسلامية للذرائع؛ حيث حرمت بيع الخمر لئلا يتذرع ببقائها وصناعتها بحجة البيع إلىٰ شربها.

سادسًا: عناية النبي ﷺ بسد أبواب الكسب الحرام؛ لما في ذلك من ضرر علىٰ الفرد والمجتمع.

سابعًا: أن من فنون الحوار استخدام أسلوب السؤال كما فعل نبينا ﷺ، وهذا كثير في سيرته العطرة.

ثامنًا: أن الغاية لا تبرر الوسيلة.

٨- عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالًا، وكان أحب أمواله إليه بيرحا، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب.

قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] قام أبو طلحة إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: إن الله يقول في كتابه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإن أحب أموالي إلىٰ بيرحا، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث شئت.

قال رسول الله ﷺ: «**بخ**(١) **ذلك مال رابح! بخ ذلك مال رابح! قد سمعتُ ما**

---

(١) **بخ**: كلمة تقال لتفخيم الأمر والإعجاب به.

قلتَ فيها، وإني أرىٰ أن تجعلها في الأقربين».

فقال أبو طلحة: أفعل ذلك؛ فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: عناية الدين الإسلامي الحنيف الذي بعث به محمد ﷺ بالتكافل الاجتماعي؛ حيث ندب إلىٰ الإنفاق في وجوه البر.

ثانيًا: مشروعية وقف المال في وجوه البر، وهذا من محاسن الإسلام حيث شرع ذلك لما يحصل به من النفع العام والخاص.

ثالثًا: أن من محاسن الشريعة الإسلامية الحث علىٰ الإحسان إلىٰ الأقارب وصلة الأرحام؛ حيث أمر النبي ﷺ أن يجعل صدقته في أقاربه، وبذلك يحصل الترابط الأسري وتسود بين أفراده روح العطف والمحبة.

رابعًا: أن الصدقة علىٰ القريب أعظم أجرًا عند الله من غيره.

خامسًا: حسن خلق النبي ﷺ وتواضعه؛ حيث كان أصحابه يشاورونه في كيفية الصدقات ووجوه الطاعات.

سادسًا: نصح النبي ﷺ لأصحابه خصوصًا ولأمته عمومًا؛ حيث أشار علىٰ أبي طلحة أن يجعل ذلك البستان في أقاربه.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الوصايا، باب: إذا وقف أرضًا ولم يبين الحدود فهو جائز برقم (٢٧٦٩)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الزكاة، باب: فضل النفقة والصدقة علىٰ الأقربين برقم (٩٩٨).

سابعًا: أن الإسلام لا يمنع أن يكون للشخص أموالًا كثيرة؛ فإن أبا طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان من أكثر الأنصار مالًا، ولم يأمره النبي ﷺ أن يخرج من ماله، أو جبره علىٰ ترك شيء منه ولا أمَّمه بل كان يقول: «**نعم المال الصالح للعبد الصالح**».

ثامنًا: جواز دخول أهل العلم والفضل الحوائط والبساتين والاستظلال بظلها، والأكل من ثمرها والراحة والتنزه فيها، وقد يكون ذلك مستحبًّا يترتب عليه الأجر إذا قصد به إجمام النفس من تعب العبادة وتنشيطها للطاعة. قاله الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في «الفتح» (٥/ ٤٦٧).

ووجه ذلك: قول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن تلك الحديقة كانت مستقبلة المسجد، وإن رسول الله ﷺ كان يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب».

تاسعًا: حسن تربية النبي ﷺ وحسن تعليمه لهم؛ حيث كان يشجعهم علىٰ فعل المعروف ويثني عليهم بذلك، ويذكر لهم ما لهم من الأجر تشجيعًا لهم وتطييبًا لنفوسهم وليتأسىٰ بهم غيرهم، فقد قال لأبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**بخ ذاك مال رابح! ذاك مال رابح!**». وكلمة (بخ) تقال لتفخيم الأمر والإعجاب به.

عاشرًا: في الحوار السابق فضيلة عظيمة لأبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٩- عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«عادني رسول الله ﷺ في حجة الوداع من وجع أشفيت منه علىٰ الموت فقلت: يا رسول الله بلغني ما ترىٰ من الوجع وأنا ذو مال ولا يرثني إلا بنت لي واحدة أفأتصدق بثلثي مالي؟

قال: لا.

قلت: أفأتصدق بشطره؟

قال: «**لا**».

قلت: الثلث؟

قال: «**الثلث والثلث كثير؛ إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم، وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتىٰ اللقمة تجعلها في فِيِّ امرأتك**».

قال: قلت: يا رسول الله أخلف بعد أصحابي؟

قال: «**إنك لن تخلف فتعمل عملًا تبتغي به وجه الله إلا ازددت به درجة ورفعة، ولعلك تخلف حتىٰ ينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون.**

اللهم أمض لأصحابي هجرتهم، ولا تردهم علىٰ أعقابهم، لكن البائس سعد بن خولة».

قال: رثىٰ له رسول الله ﷺ أن توفي بمكة»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: تواضع النبي ﷺ؛ حيث كان يعود مَن مرض من أصحابه ويدعو لهم.

ثانيًا: أن من محاسن الدين الإسلامي الذي بعث به نبينا ﷺ الحث علىٰ

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الجنائز، باب: رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة برقم (١٢٩٥)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الوصية، باب: الوصية بالثلث برقم (١٦٢٨).

الإحسان إلىٰ الأقارب، وأن صلتهم أفضل من صلة الأبعد، وبهذا يحصل الترابط الأسري الذي هو أساس ترابط المجتمع.

ثالثًا: أن من محاسنه أيضًا الحث علىٰ الإنفاق في وجوه الخير والبر، وبذلك يحصل الترابط الاجتماعي؛ فالدين الإسلامي الحنيف يحث علىٰ كل ما فيه منفعة للفرد والأسرة والمجتمع، وما يحصل به ترابطه وتكافله.

رابعًا: أن من محاسن الدين الإسلامي أن المسلم إذا فعل المباح وقصد به وجه الله صار طاعة يثاب عليها، وقد نبه نبينا ﷺ علىٰ ذلك بقوله: «**حتىٰ اللقمة تجعلها في فِيِّ امرأتك**»؛ لأن زوجة الإنسان هي من أخص حظوظه الدنيوية وشهواته وملاذه المباحة، وإذا وضع اللقمة في فيها فإنما يكون ذلك في العادة عند الملاعبة والملاطفة والتلذذ بالمباح، فهذه الحالة أبعد الأشياء عن الطاعة وأمور الآخرة، ومع هذا فأخبر ﷺ أنه إذا قصد بهذه اللقمة وجه الله تعالىٰ حصل له الأجر بذلك، فغير هذه الحالة أولىٰ بحصول الأجر إذا أراد وجه الله تعالىٰ.

ويتضمن ذلك أن الإنسان إذا فعل شيئًا أصله علىٰ الإباحة وقصد به وجه الله تعالىٰ يثاب عليه، وذلك كالأكل بنية التقوِّي علىٰ طاعة الله تعالىٰ، والنوم للاستراحة ليقوم إلىٰ العبادة نشيطًا، والاستمتاع بزوجته وجاريته ليكف نفسه وبصره ونحوهما عن الحرام وليقضي حقها وليحصِّل ولدًا صالحًا.

انظر: «شرح الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لصحيح مسلم» (١٠/ ٢٤٨).

خامسًا: عناية النبي ﷺ بالمرأة؛ حيث حث زوجها علىٰ الإحسان إليها وملاطفتها حتىٰ عند الأكل.

سادسًا: عظيم نصح النبي ﷺ؛ حيث دل سعد بن أبي وقاص علىٰ فعل الأصلح له ولورثته من بعده.

سابعًا: حسن تعليم النبي ﷺ؛ حيث ذكر الحكم مقرونًا بعلته ليكون أوقع في النفس وأدعىٰ للقبول حيث قال لسعد: «**الثلث والثلث كثير**»، ثم علل بقوله: «**إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس**». ولكونه أيضًا ﷺ يحث علىٰ العمل ويذكر ثوابه.

ثامنًا: أن من محاسن الدين الإسلامي الذي بعث به محمد ﷺ العناية بإصلاح القلوب والسرائر التي بصلاحها تصلح سائر الجوارح؛ حيث قال النبي ﷺ لسعد رضي الله عنه: «**إنك لن تعمل عملًا تبتغي به وجه الله إلا ازددت به درجة ورفعةً**».

تاسعًا: كمال شفقة النبي ﷺ علىٰ أمته؛ حيث نجده مواسيًا لهم في السراء والضراء بنفسه وماله، ففي هذا الحديث عاد سعدًا وواساه في مرضه، ودعا له ولسائر أصحابه بأن يتم الله لهم هجرتهم، ورثىٰ لحال سعد بن خولة رضي الله عنه الذي مات في البلد الذي هاجر منه وتوجع له ورق عليه.

عاشرًا: في الحوار السابق علم من أعلام نبوة نبينا محمد ﷺ حيث قال لسعد رضي الله عنه: «**ولعلك أن تخلف حتىٰ ينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون**»؛ فقد عاش سعد حتىٰ فتح العراق وغيره، وانتفع به أقوام في دينهم ودنياهم، وتضرر به الكفار في دينهم ودنياهم فإنهم قُتلوا وصاروا إلىٰ جهنم، وسبيت نساؤهم وأولادهم وغنمت أموالهم وديارهم، وولي العراق فاهتدىٰ علىٰ يديه خلائق وتضرر به خلائق بإقامته الحق فيهم من الكفار ونحوهم.

انظر: «شرح الإمام النووي رحمه الله لصحيح مسلم» (١٠/ ٢٤٨).

١٠- عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«أصاب عمر أرضًا بخيبر فأتىٰ النبي ﷺ يستأمره فيها فقال: يا رسول الله إني أصبت أرضًا بخيبر لم أصب مالًا قط هو أنفس عندي منه فما تأمرني به؟

قال: «**إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها**».

قال: فتصدق بها عمر أنه لا يباع أصلها ولا يبتاع ولا يورث ولا يوهب.

قال: فتصدق بها عمر في الفقراء وفي القربىٰ وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضيف، لا جناح علىٰ من وليها أن يأكل منها بالمعروف أو يطعم صديقًا غير متمول فيه»(١).

ومن الدروس المستفادة من هذا الحوار ما يلي:

أولًا: أن من محاسن الدين الإسلامي الذي جاء به نبينا محمد ﷺ مشروعية الوقف الخيري خلافًا لما كان عليه أهل الجاهلية؛ فإن الشيء الموقوف يبقىٰ أصله ثابتًا، ويكون الانتفاع بمنافعه باستمرار الجهة التي أُوقف عليها، فينتفع الواقف باستمرار أجره وثوابه في حال حياته وبعد وفاته، وتنتفع الجهة الموقوف عليها بحيث يكون عندها دخل مستمر.

ثانيًا: تواضع النبي ﷺ؛ حيث كان أصحابه يأتون إليه ويشاورونه في أمورهم الخاصة ولا يجدون منه حرجًا من ذلك، بل يتسع صدره لهم ويشير عليهم بما ينفعهم.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الوصايا، باب: الوقف كيف يكتب؟ برقم (٢٧٧٢)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الوصية، باب: الوقف برقم (١٦٣٢).

ثالثًا: أن من محاسن الدين الإسلامي الذي بعث به نبينا محمد ﷺ العناية بالأقارب والفقراء والمحتاجين.

رابعًا: تشوُّف الدين الإسلامي لعتق الأرقاء وتحريرهم؛ فقد جعل عمر رضي الله عنه جزءًا من ريع وقفه على الرقاب؛ أي: في عتق الرقاب وإعانة المكاتبين، وأقره على ذلك نبينا ﷺ.

خامسًا: أن من محاسن الدين الإسلامي: الحث على إكرام الضيف والقيام بحقه؛ فقد جعل عمر رضي الله عنه جزءًا من ريع وقفه على إكرام الضيف والقيام بحقه، ولا عجب أن يقره على ذلك نبينا ﷺ فهو القائل: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**». متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

* * *

الخاتمة
نسأل الله حسنها

الحمد لله الذي وفقني وأعانني علىٰ إتمام هذا الكتاب بحوله وقوته، فما كان فيه من صواب فمن الله، وما كان فيه من خطأ فمني والشيطان، والله ورسوله منه بريئان، وأنا راجع عنه بعد البيان والله من وراء لسان كل عبد وقلبه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

فرغ منه في ضحىٰ الخامس عشر من شهر رمضان المبارك سنة (١٤٢٩هـ).

* * *

الفهرس

مقدمة فضيلة القاضي العلامة محمد بن إسماعيل العمراني حفظه الله ٥

مقدمة ٧

كلمة شكر ١٤

تعريف الحوار... ١٥

الفصل الأول حوارات من السيرة النبوية في ظروف عصيبة بعد البعثة وقبل الهجرة إلىٰ المدينة...................................... ١٧

١ـ من حوارات النبي ﷺ للمشركين بمكة حين أمره الله بالبلاغ الخاص والعام: ١٧

الفصل الثاني حوارات من السيرة النبوية بعد هجرة النبي ﷺ إلىٰ المدينة دار الهجرة ومنطلق الدعوة ٤٧

أولًا: حوارات دارت بينه ﷺ وبين أحبار من أهل الكتاب:............... ٤٧

ثانيًا:حوار النبي ﷺ مع بعض النصارىٰ -حواره مع هرقل ملك النصارىٰ وعالمهم-:.. ٥٦

ثالثًا:حوار النبي ﷺ مع كفار قريش وإبرامه معهم صلح الحديبية الشهير:٧٢

رابعًا: حوار النبي ﷺ مع جبريل عليه السلام، وسؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان.. ٨٥

خامسًا: حوار النبي ﷺ مع وفد عبد القيس: ٨٩
الفصل الثالث حوارات عقدية ٩٣
١ـ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: ٩٣
٢- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ٩٦
٣- عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: ٩٩
٤ـ عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: ١٠٢
٥- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: ١٠٦
٦ـ عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال: ١١٦
٧ـ عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه. ١١٨
الفصل الرابع حوارات تتجلىٰ فيها مكارم أخلاق نبينا الكريم ﷺ ١٢١
وإليك أخي القارئ الكريم حوارات تتجلىٰ فيها مكارم أخلاق نبينا..... ١٢٤
١ـ صدقه: ١٢٤
٢ـ وفاؤه ﷺ ومجانبته للغدر: ١٢٥
٣- شجاعته ﷺ: ١٢٧
٥- عفوه ﷺ عن أعدائه الذين ظلموه ورحمته بهم وصبره وحلمه عليهم:
.... ١٣٠
٦ـ عفوه ﷺ وصفحه وإعراضه عن الجاهلين. ١٣٥

٧ـ تواضعه ﷺ وبغضه للإطراء:.................................١٣٨

٨ـ زهده ﷺ في الدنيا وعظيم رغبته في الآخرة:........................١٤٢

٩ـ رحمته ﷺ: ١٤٧

١٠ـ رفقه ﷺ بالجاهل وحسن تعليمه له: ١٤٩

١١- شدة حرصه ﷺ علىٰ هداية الخلق، وعظيم فرحه بمن اهتدىٰ منهم، وعظيم حزنه وأسفه علىٰ من أعرض: ١٦٠

الفصل الخامس حوارات تتعلق بالأنبياء وموقف نبينا ﷺ منهم ١٦٨

أولًا: حوار يتعلق بنبي الله عيسىٰ.................................١٦٨

ثانيًا: حوارات تتعلق بنبي الله وكليمه موسىٰ.........................١٦٩

ثالثًا: حوار يتعلق بنبي الله وخليله إبراهيم ١٧٤

رابعًا: حوار يتعلق بنبي الله يوسف ١٧٦

خامسًا: حوار يتعلق بنبي الله داود ١٧٨

الفصل السادس حوارات تتعلق بالجهاد في سبيل الله الذي يعتبر ذروة سنام الإسلام...١٨٣

١ـ عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه. ١٨٣

٢-عن سهل بن سعد رضي الله عنه: ١٨٤

٤ـ عن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه...............................١٩٥

٥- عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ١٩٦

٦- عن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ١٩٨

حوار النبي ﷺ مع الأنصار عقب تقسيم غنائم حنين: ٢٠٧

حوار دار بين النبي ﷺ وبين وفد هوازن بعد انتصاره عليهم وغنيمة أموالهم ونسائهم وأبنائهم: ٢١٣

الفصل السابع حوارات نبوية تتعلق بالحدود الشرعية وما يترتب عليها من المصالح الدينية والدنيوية.. ٢١٧

أولًا: حوارات تتعلق بحد الزنا الذي تصان به الأعراض وتحفظ به الأنساب:.. ٢١٧

ثانيًا: حوار يتعلق بحد السرقة الذي به تصان الأموال ويأمن به الناس:.. ٢٢٢

ثالثًا: حوارات تتعلق بحد الخمر الذي به تحفظ العقول وتمنع الشرور: ٢٢٥

رابعًا: حوار يتعلق بتغليظ حرمة الدماء والأعراض والأموال: ٢٢٧

شبهة تتعلق بالحدود الشرعية والجواب عنها.............................. ٢٢٩

الفصل الثامن حوارات نبوية تتعلق بالمرأة وما لها من المكانة السامية والحقوق العظيمة في الإسلام ٢٣٨

١- عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.. ٢٣٩

٢- عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.. ٢٤٠

٣- عن مالك بن الحويرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.. ٢٤٣

٤- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. ٢٤٤

٥- عن حكيم بن معاوية عن أبيه رضي الله عنهما.............................. ٢٤٥

٦- عن أنس رضي الله عنه:.. ٢٤٧

٧- عن عائشة رضي الله عنها.. ٢٤٨

٨- وعن علي بن الحسين رضي الله عنهما: ٢٥١

٩- عن عائشة رضي الله عنها. ٢٥٣

١٠- عن أبي هريرة رضي الله عنه. ٢٥٣

١١- عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها. ٢٥٥

١٢- عن ابن عباس رضي الله عنهما. ٢٥٦

١٣- عن أبي بكرة رضي الله عنه. ٢٥٧

الفصل التاسع حوارات نبوية تتعلق بتربية الأولاد ٢٥٩

وإليك أيها القارئ الكريم باقة عطرة من هذه الحوارات التي تدل علىٰ سمو الشريعة الإسلامية وعنايتها بالطفل وحفاظها عليه:........................ ٢٥٩

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما. ٢٥٩

٢- عن عبد الله بن عامر رضي الله عنه.................................... ٢٦١

٣-عن النعمان بن بشير رضي الله عنه. ٢٦٢

٤- عن شداد بن الهاد رضي الله عنه. ٢٦٤

٥- عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ٢٦٥

٦- عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. ٢٦٦

الفصل العاشر حوارات نبوية تعالج المشاكل العالمية........................ ٢٦٩

١- حوارات تعالج مشكلة العنصرية الطبقية والنعرات الجاهلية: ٢٦٩

أولًا: حوارات عامة في هذا الموضوع ومنها:............................ ٢٧١

ثانيًا: حوارات تدل علىٰ قوة تصدي النبي ﷺ لهذه النعرات عند أن وجدت وحزمه في علاجها ومن ذلك:.. ٢٧٤

ثالثًا: حوارات نبوية تبطل العصبية الجاهلية والتمييز الطبقي في باب النكاح:.. ٢٨١

حوارات نبوية تبين موقف الإسلام من العبودية أو الرق:................ ٢٨٧

الفصل الحادي عشر حوارات نبوية تعالج مشكلة الغلو والتطرف وتدعو إلىٰ الوسطية والاعتدال ٢٩٤

أولًا: حوارات نبوية تحث علىٰ الوسطية في باب الاعتقاد:.............. ٢٩٥

ثانيًا: حوارات نبوية تحث علىٰ الوسطية في العبادات: ٢٩٧

ثالثًا: حوارات نبوية فيها الوعيد الشديد والتحذير الأكيد من الغلو في الأحكام علىٰ الناس الذي يئول إلىٰ استحلال دمائهم وأموالهم:.............. ٣٠٨

رابعًا: حوارات نبوية تدعو إلىٰ التوسط في معاملة الحكام وترشد إلىٰ اتخاذ الموقف الصحيح منهم: ٣١٢

حوار يعالج مشكلات عالمية منها تفشي الأمراض الفتاكة كالإيدز، ومنها القحط والجدب:..٣٢٢

حوارات نبوية تتعلق بالمعاملات المالية تتجلىٰ فيها محاسن الشريعة الإسلامية التي بعث بها نبينا محمد ﷺ:...................................٣٢٥

الخاتمة نسأل الله حسنها ٣٤٣

الفهرس ٣٤٥

* * *